البحر الرائق

في الزهد والرقائق

The Pure Sea





الدار السلفية للنشر والتوزيع

الدار السلفية للنشر والتوزيع
البحر الرائق
في الزهد والرقائق
د. أحمد فريد

الطبعة الشرعية

المكتبة التوفيقية (جمهورية مصر العربية)

الدار السلفية للنشر والتوزيع

تحذير: لا يحق التعامل مع أي طبعة غير طبعة التوفيقية والسلفية

الدار السلفية للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

1428هـ/2007م

رقم الإيداع

2007/9899

ترقيم دولي I.S.B.N

977-423-008-6

البحـر الرائـق
فى الزهد والرقائق

جمع وترتيب

أحمـد فريـد

طبعةٌ مزيدةٌ منقحةٌ

الناشر
الدار السلفية للنشر والتوزيع
الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

[illegible]

[illegible] يتجرأ على سرقة هذا الكتاب وغيره من كتبي [illegible]
[illegible] وجهود المؤلف والناشر [illegible] الذين يتجرأون على السرقة [illegible]
[illegible] يقفون أمام الله [illegible]
وكذا طلبة العلم أن لا يبتاعوا هذه الكتب المسروقة [illegible]
[illegible] على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان [illegible]
[illegible] صلى الله عليه وسلم «لا ضرر ولا ضرار» [illegible]
[illegible] وأمر الله [illegible] المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال [illegible]
﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ وقال عز وجل: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا﴾.
[illegible] في نشر الكتاب الإسلامي [illegible]
[illegible] والله تعالى يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن [illegible]
[illegible] كتب الحماية القانونية وقدم [illegible]
[illegible] وسوف يقومون [illegible] لسرقة الحقوق والله على ما نقول وكيل.

كتبه

[illegible]

د/ أحمد محمد فريد

تنبيه هام

نحذر من يتجرأ على سرقة هذا الكتاب وغيره من كتبي لأن في ذلك هضم لحق ولجهد المؤلف والناشر فعلى الذين يتجرأون على السرقة أن يتقوا الله ﷻ ويعلموا أنهم سيقفون أمام الله ﷻ ويسألهم عن ذلك، كما أرجوا من أصحاب المكتبات وكذا طلبة العلم أن لا يروجوا هذه الكتب المسروقة فقد قال الله ﷻ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: 2].

وقال النبي ﷺ: «لا ضَرَرَ وَلا ضِرَارَ»، وقال ﷺ: «المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ وَلا يُسْلِمُهُ»، وأمر الله ﷻ المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: 172]، وقال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: 51].

فعلى من يعلم في نشر الكتاب الإسلامي أن يتقي الله ﷻ وأن يطيب مطعمه والله تعالى يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن وسوف يتعرض من يتجرأ على كتبي إلى المسائلة القانونية وقد تم عمل توكيل في القضايا لمحامين عندهم خبرة في هذا المجال وسوف يقومون بعمل الإجراءات القانونية على كل من يخالف ويتحايل لسرقة الحقوق والله على ما نقول وكيل.

كتبه

د. أحمد فريد

مقدمة

الحمد لله الذي سهل لعباده المتقين إلى مرضاته سبيلًا، وأوضح لهم طرق الهداية وجعل اتباع الرسول عليها دليلًا، واتخذهم عبيدًا له فأقروا له بالعبودية ولم يتخذوا من دونه وكيلًا وكتب في قلوبهم الإيمان لما رضوا بالله وبالإسلام دينًا. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أشهد بها مع الشاهدين، وأتحملها عن الجاحدين، وأدخرها عند الله عدة ليوم الدين.

وأشهد أن محمدًا عبده المصطفى، ونبيه المرتضى، ورسوله الصادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، أرسله على حين فترة من الرسل فهدى به على أقوم الطرق وأوضح السبل، وافترض على العباد طاعته وتعظيمه وتوقيره وتبجيله والقيام بحقوقه، وسد إليه جميع الطرق فلم يفتح لأحدٍ إلا من طريقه، فشرح له صدره، ورفع له ذكره، وفتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا، فأشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها، وتألفت القلوب بعد شتاتها، وسارت دعوته سير الشمس في الأقطار، وبلغ دينه ما بلغ الليل والنهار، فصلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى أصحابه الغر الميامين.

أما بعد...

فمن فضل الله على العبد أن ييسر له سبيل الخيرات وأن يصرف عنه السوء والمنكرات، ولاشك أن الاهتمام بما تزكو به النفس ويرق به القلب حتى ينقاد لشرع الله ويستجيب لأمره ونهيه من أعظم أسباب الخير في الدنيا والآخرة، فإن القلوب لا تصل إلى مناها حتى تصل إلى مولاها، ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة.

والسعادة سعادة القلوب، والشقاء شقاء القلوب، والقلوب لا تسعد إلا بالله ولا تطمئن إلا بذكره وطاعته كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: 28]، فبان بما ذكرنا أن طريق السعادة الاهتمام بالقلوب وإصلاحها ومداواة أمراضها وأسقامها حتى تستجيب لربها، والموفق من وفقه الله والمخذول من حرم عنايته وهداه.

وبعد أيضًا...

فمنذ أن نفدت الطبعة الأولى من كتاب «البحر الرائق في الزهد والرقائق» وذلك بعد أن تمَّ عرضها بمدة يسيرة على ما فيها من أخطاء مطبعية غفر الله لناشرها، وإخواننا يطلبون أن يعاد طبعه، والأمور كما قال النبي ﷺ: «تجري بالمقادير»، فكنت أجتهد في إعادة طبعه طبعةً منقحة محققة مزيدة ثم أنشغل عن ذلك، حتى يسر الله ﷻ ومَنَّ علينا بفضله ووفقنا للانقطاع لتحقيقه وتنقيحه، وأرجو أن يكون «البحر الرائق» في طبعته الجديدة وثوبه القشيب رائقًا من الأخطاء المطبعية، كما أرجو أن يكون رائقًا من الأحاديث الضعيفة؛ فقد بذلت جهدًا أحتسبه في تحقيق الأحاديث المرفوعة، وحذفت كل حديث ثبت عندنا ضعفه وإن كان مشهورًا متداولًا؛ حتى أُثبتَ لإخواننا أن في الصحيح غُنيَةً، وأن العبد ينبغي عليه أن يداوي قلبه بأدوية القرآن والسنة الصحيحة، وما جعل الله ﷻ شفاء أمة محمد ﷺ فيما حرم عليها، فلا ينبغي أن نعالج قلوبنا بالضعيف والموضوع والحكايات الملفقة والأخبار المزوقة، ولا نستغني بالأبيات عن الآيات كما فعلت الصوفية، مع أنه قد توسع بعض إخواننا في استماع الشعر يلتمسون بذلك رقة

قلوبهم وهذا توسع في أشياء لم يتوسع فيها السلف ﷺ، وكل ما يشغل عن القرآن والسنة الصحيحة فهو شؤم على صاحبه نسأل الله السلامة، ويخشى على من يكثر من ذلك أن يتأثر قلبه بكلام الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ.

وقد بينت منهج أهل السنة في التزكية في رسالة مستقلة بعنوان «التزكية بين أهل السنة والصوفية».

فالله ﷻ قد أغنانا بكتابه وبسنة نبيه ﷺ، ونزل على النبي ﷺ بعرفة في حجة الوداع قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: 3].

فالكتاب والسنة الصحيحة منهج حياة للأفراد والمجتمعات يتكفلان بالسعادة الدنيوية والأخروية، والإعراض عنهما سبب للشقاء في الدنيا والآخرة، سواء في ذلك من أعرض عنهما واستبدل بهما غيرهما من الأحاديث الموضوعة والأبيات المصنوعة، أو من تركهما بالكلية واستغنى عنهما بالمناهج الأرضية والقوانين البشرية.

قال الله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾

[طه: 123، 124]

وهدي الله ﷻ هو كتابه المُنزَّل وسنة رسوله ﷺ، والذكر كذلك هو الكتاب والسنة.

فكل ما يتقرب به إلى الله ﷻ يجب أن يكون في حدود المشروع، وهذا أصل

أصيل في دين الإسلام، وقاعدة أرساها رسول الله ﷺ بقوله: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[1]، وليست العبادة تعذيبًا للنفس، وليس كل تعذيب للنفس عبادة، فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِي ﷺ رَأَى شَيْخًا يُهَادَى بَيْنَ ابْنَيْهِ فَقَالَ: «مَا بَالُ هَذَا؟». قَالُوا: نَذَرَ أَنْ يَمْشِيَ. قَالَ: «إِنَّ اللهَ عَنْ تَعْذِيبِ هَذَا نَفْسَهُ لَغَنِيٌّ». وَأَمَرَهُ أَنْ يَرْكَبَ[2].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ. إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَائِمٍ، فَسَأَلَ عَنْهُ فَقَالُوا: أَبُو إِسْرَائِيلَ، نَذَرَ أَنْ يَقُومَ وَلاَ يَقْعُدَ، وَلاَ يَسْتَظِلَّ، وَلاَ يَتَكَلَّمَ، وَيَصُومَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مُرْهُ فَلْيَتَكَلَّمْ وَلْيَسْتَظِلَّ وَلْيَقْعُدْ، وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ»[3]. فأقر ﷺ المشروع وهو الصيام وأنكر غير المشروع وهو ترك الكلام والقيام في الشمس.

فلا يجوز أن نتقرب على الله عز وجل بعبادات لم يشرعها الله عز وجل، كذلك لا يجوز أن نبالغ في المشروع ونتجاوز به حد الاعتدال الذي شرعه الله عز وجل، وكان هديه ﷺ وعبادته المثل الأعلى في ذلك، ولا يجوز لأحدٍ من أمته ﷺ أن يزيد عليه أو أن يظن أنه أكمل عبادة من رسول الله ﷺ، وأدل دليل على ذلك حديث النفر الثلاثة الذين أتوا إلى بيوت النبي ﷺ فعن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه قال: جَاءَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ

---

(1) رواه مسلم (1718) الأقضية والبخاري بمعناه (2697) الصلح.

(2) رواه البخاري (1865) جزاء الصيد، ومسلم (1642) النذر وأبي داود (3301) الأيمان والنذور، والترمذي (1537) النذور، والنسائي (3861) الأيمان، والدرامي (2/ 184) النذور، وأحمد (3/ 106/ 114/ 183).

(3) رواه البخاري (6074) الأيمان والنذور وأبي داود (3300) الأيمان والنذور.

النَّبِيِّ ﷺ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ. قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا. وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ. وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا. فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَاللهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[1]. وصفوة القول أن العبد ينبغي عليه بأن يلتمس رقة قلبه ويسعى في تزكية نفسه بحسب ما بين الله ﷻ في كتابه وما صح من سنة رسوله ﷺ[2] وعلى هذا الهَدْيُ مضى الصحابة ﭫ فالهُدى ما كان من الله ﷻ: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: 73].

وبقي أن نقول إن علم التزكية والرقائق لازم لطلاب العلم فضلًا عن سائر العباد لزوم الماء للسمك والهواء لسائر الأحياء، وذلك لتطييب قلوبهم أولًا كما يقال: يطيب القلب للعلم كما تطيب الأرض للزراعة، وحتى يجددا توبتهم إلى الله ﷻ كل صباح ومساء كما قال بعض السلف: من لم يتب كُلَّ صباح ومساء كان من الظالمين، قال الله ﷻ: ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات: 11]، وحتى لا ينقطع طالب العلم في الطريق بآفة تصيبه في مَقتل، فلربما كان العبد على درجة من الذكاء، أو جدٍّ واجتهاد في تحصيل العلوم الشرعية فيدخله عجب أو كبر أو رياء فيهلك كما في قصة الثلاثة الذين هم أول ما تسعر بهم النار - نعوذ بالله من حال أهل البوار -.

(1) رواه البخاري (5063) النكاح، ومسلم (1401) النكاح.

(2) انظر: «الكتاب والسنة عقيدة ومنهجًا» لعبد الرحمن عبد الخالق.

وقد لجأ كثير من الناس على كتب الصوفية يلتمسون رقة قلوبهم وهي قد تعالج شيئًا من أمراضهم لما فيها من أدلة الكتاب والسنة الصحيحة ولكنها مع ذلك تشتمل على الضعيف والموضوع والشطحات والغلو في المخلوقين مما يجعل ضررها أكثر من نفعها ولا يأمن الناظر فيها من تناول السم مع العسل.

وأدى تساهل العلماء في رواية الضعيف في المواعظ والرقائق إلى حشو كتب الرقائق بالنسبة للمواعظ خلافًا للعقائد والأحكام دون حدود أو ضوابط، وإنما رخص من ترخص في رواية الضعيف في ذلك بشروط بيّنها العلماء وليس هذا مجال سردها، ولاشك أن الأحوط في ذلك والذي لا خلاف فيه أن نقتصر على الصحيح الذي يحصل به المقصود، خاصة والهمم في هذه الأزمنة المتأخرة قاصرة عن إدراك الصحيح من ذلك فضلًا عن الاشتغال بالضعيف وغيره، وقد جمعت هذا الكتاب نصيحة لي ولإخواني من كتب الرقائق التي وقفت عليها، واقتصرت على نقل صحيح الأخبار حتى أوفر لإخواني الذين يريدون تهذيب نفوسهم وترقيق قلوبهم النظر في المصنفات الكبار التي لا تخلو من ضعيف الأخبار، والكتاب ولاشك زاد نافع للمتصدي من إخواننا للدعوة إلى الله حيث يوفر عليه تحضير الخطب فكل موضوع يصلح أن يكون خطبة أو درسًا نسأل الله أن يتقبله بقبول حسن، وأن يجعل خير أعمالنا خواتمها وخير أيامنا يوم لقائه، وأن يمتعنا بالنظر إلى وجهه الكريم، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

بسم الله الرحمن الرحيم

(2) الإخلاص ومتابعة السنة(1)

شرطان لقبول العمل

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: 2].

قال الفضيل بن عياض: هو أخلصه وأصوبه. قالوا يا أبا علي: ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل؛ حتى يكون خالصًا صوابًا. والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: 125]. فإسلام الوجه: إسلام القصد والعمل لله والإحسان فيه متابعة رسوله ﷺ وسنته.

وقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: 23]. وهي الأعمال التي كانت على غير السنة أو أريد بها غير وجه الله.

قال بعض السلف: ما من فعلة وإن صغرت إلا ينشر لها ديوانان: لم؟

---

(1) انظر: إغاثة اللهفان لابن القيم. وإحياء علوم الدين للغزالي، وجامع العلوم والحكم لابن رجب، وفتح الباري لابن حجر العسقلاني.

وكيف؟ أي لم فعلت؟ وكيف فعلت؟ فالأول سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل وغرضه من أغراض الدنيا في محبة المدح من الناس أو خوف ذمهم أو استجلاب محبوب عاجل أو دفع مكروه عاجل؟ أم الباعث على الفعل القيام بحق العبودية وطلب التودد والتقرب إلى الرب ﷻ وابتغاء الوسيلة إليه؟

ومحل هذا السؤال: أنه هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك أم فعلته لحظك وهواك.

والثاني: سؤال عن متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام في ذلك التعبد، أي هل كان ذلك العمل مما شرعته لك على لسان رسولي أم كان عملًا لم أشرعه ولم أرضه؟

فالأول: سؤال عن الإخلاص، والثاني: سؤال عن المتابعة فإن الله سبحانه لا يقبل عملًا إلا بهما.

فطريق التخلص من السؤال الأول بتجريد الإخلاص، وطريق التخلص من السؤال الثاني بتحقيق المتابعة.

الإخلاص

تعريفه: هو تجريد قصد التقرب إلى الله ﷻ عن جميع الشوائب.

وقيل: هو إفراد الله ﷻ بالقصد في الطاعات.

وقيل: هو نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق.

وقد أمر الله ﷻ بالإخلاص فقال تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة: 5]. وقال تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ ﴾ [الزمر: 3]. وقال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ [الكهف: 110].

۞عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ رَجُلًا غَزَا يَلْتَمِسُ الأَجْرَ وَالذِّكْرَ مَالَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا شَيْءَ لَهُ» فَأَعَادَهَا ثَلاثَ مَرَّاتٍ يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا شَيْءَ لَهُ» ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ اللهَ لا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إلا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ»[1]. وقال ﷺ: «ثَلاثٌ لا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلاصُ الْعَمَلِ للهِ، وَمُنَاصَحَةُ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ»[2].

---

(1) رواه النسائي (3140) الجهاد وقال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء: وإسناده حسن (4/ 28) وقال المنذري: إسناده جيد (1/ 24) الترغيب والترهيب.

(2) رواه الترمذي (2658) العلم باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع وقال: حديث حسن صحيح؛ وابن ماجه (229) المقدمة باب مَنْ بَلَّغَ عِلْمًا، والدارمي (1/ 76)، والبغوي في شرح السنة (1/ 236)، وصححه الحافظ، ورواه أحمد (4/ 80، 82) وصححه الألباني كذلك.

والمعنى أن هذه الثلاثة تستصلح بها القلوب فمن تخلق بها طهر قلبه من الخيانة. الدغل[1] والشر.

ولا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالإخلاص لقول الله ﷻ: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر: 40]. ويروى أن أحد الصالحين كان يقول لنفسه: أخلصي تتخلصي. وكل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب قل أم كثر إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوه وزال به إخلاصه، والإنسان مرتبط في حظوظه منغمس في شهواته قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس؛ فلذلك قيل: طوبى لمن صحت له خطوة لم يرد بها إلا وجه الله.

فالإخلاص تنقية القلب عن الشوائب كلها قليلها وكثيرها، حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواه، والشيطان قد يحاصر العبدَ ويحبط له كل عمل ولا يكاد يخلص له عمل واحد، وإذا خلص عمل واحد فقد ينجو به العبد.

قيل للإمام سهل: أي شيء أشد على النفس قال: الإخلاص إذ ليس لها فيه نصيب.

فالنفس تحب الظهور والمدح والرياسة وتميل إلى البطالة والكسل وزينت لها الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ، فأشد شيء على النفس إخلاص النية لله ﷻ.

---

(١) الدغل: الصفات السيئة.

قال أيوب: تخليص النيات على العمل أشد عليهم من جميع الأعمال. وقال بعضهم: إخلاص ساعة نجاة الأبد ولكن الإخلاص عزيز. فينبغي لمن أراد الإخلاص أن يقطع محبة الشهوات من قلبه، ويملأ قلبه بحب الرب جل وعلا، ويستغرق الهم بالآخرة، فمثل هذا لو أكل أو شرب أو قضى حاجته كان خالص العمل صحيح النية، ومن ليس كذلك فباب الإخلاص مسدود عليه إلا على النُّدور.

فالذي يغلب على قلبه حب الله ﷻ وحب الآخرة تكتسب حركاته الاعتيادية صفة همه وتصير إخلاصًا، والذي يغلب على نفسه الدنيا والعلو والرياسة فيها وبالجملة غير الله تكتسب جميع حركاته تلك الصفة فلا تسلم له عبادة من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادرًا.

فإذن الإخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب، فإذ ذاك يتيسر الإخلاص، وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها من المغرورين، كما حُكي عن بعضهم أنه كان يصلي دائمًا في الصف الأول فتأخر يومًا عن الصلاة فصلى في الصف الثاني فاعترته خجلة من الناس حيث رَأوه في الصف الثاني، فعلم أن مسرته وراحة قلبه في الصلاة في الصف الأول كانت بسبب نظر الناس إليه، وهذا دقيق غامض قلما تسلم الأعمال من أمثاله، وَقَلَّ من يتنبه له إلا من وفقه الله تعالى.

والغافلون عن الإخلاص يرون حسناتهم يوم القيامة سيئات، وهم المقصودون بقوله تعالى: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ۝ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ﴾ [الزمر: 47، 48]. وبقوله ﷻ: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: 103، 104].

قال في «الإحياء»: فقد ظهر بالأدلة والعيان أنه لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة؛ فالعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، وهو للنفاق كفاء ومع العصيان سواء، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء، وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوبًا مغمورًا: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: 23].

حقيقة النية:

النية ليست قول القائل بلسانه: «نويت» بل هي انبعاث القلب يجري مجرى الفتوح من الله، فقد تتيسر في بعض الأوقات وقد تتعذر في بعضها، ومن كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه في أكثر الأحوال إحضار النية للخيرات، فإن قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير فينبعث إلى التفاصيل غالبًا، ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك بل لا تتيسر له في الفرائض إلا بجهد جهيد.

عن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى؛ فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ

يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»[1]. روى عن الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: هذا الحديث ثلث العلم.

قوله: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» أي أن قبول الأعمال الصالحة الموافقة للسنة منوط بتوفر النيات الصالحة، وهو كقوله ﷺ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ»[2]. فهذه قاعدة من قواعد الشرع الحنيف وقوله ﷺ: «وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى» ليس تكرارًا للقاعدة الأولى ولكنها قاعدة جديدة يرسيها رسول الله ﷺ والأصل في الشرع التأسيس، والمعنى أن ثواب العامل (على عمله) يكون بمقدار النيات الصالحة التي يجمعها في العمل الواحد، وقوله ﷺ: «فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ».

فهذا مثال من رسول الله ﷺ للأعمال التي صورتها واحدة وتختلف في صلاحها وفسادها، وقيل: أعاد النبي ﷺ ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله ﷺ في الجزء الأول من المثال تعظيمًا لهذه النية ولقدر هذا العمل المصحوب بهذه النية، وحتى تلتذ القلوب

---

(1) رواه البخاري (1) بدء الوحي، ومسلم (1907) الإمارة، وأبي داود (2201) الطلاق، والنسائي (75) الطهارة، قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد تواتر النقل عن الأئمة في تعظيم قدر هذا الحديث قال أبو عبد الله: ليس في أخبار النبي ﷺ شيء أجمع وأغنى وأكثر فائدة من هذا الحديث. وقال ابن مهدي والشافعي: إنه ثلث العلم وقال الشافعي كذلك: يدخل في سبعين بابًا.

(2) رواه البخاري (6493) الرقاق، وأحمد (5/ 335).

والألسنة بإعادة ذكر الله ﷻ ورسوله ﷺ ولم يكرر في الجزء الثاني من المثال تحقيراً لهذا العمل المصحوب بهذه النية، وحتى يدخل في ذلك بقية النيات الفاسدة.

والنية الصالحة لا تغير المعاصي عن مواضعها فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله ﷺ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» فيظن أن المعصية تصير طاعة بالنية، فإذن قوله ﷺ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» يخص من أقسام العمل الثلاثة الطاعات والمباحات دون المعاصي، إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد، ودخول النية في المعصية إذا أضيف إليها قصود خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها، والطاعات مرتبطة بالنيات في أصل صحتها وفي تضاعف فضلها، فأما الأصل فهو أن ينوي بها عبادة الله وحده، فإن نوى الرياء صارت معصية، وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة أما المباحات فما من شيء منها إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالي الدرجات.

فضل النية:

قال الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[الكهف: 28]. والمراد بتلك الإرادة النية، وفي حديث أنس ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ فِي غَزَاةٍ، فَقَالَ: «إِنَّ أَقْوَامًا بِالْمَدِينَةِ خَلْفَنَا، مَا سَلَكْنَا شِعْبًا وَلاَ وَادِيًا إِلاَّ وَهُمْ مَعَنَا فِيهِ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ»[1] فشركوا في الأجر بحسن النية.

---

(1) رواه البخاري (2839) الجهاد، ومسلم (1911) الإمارة عن جابر وأبي داود (2508) الجهاد وأحمد (3/ 103).

قال بعض السلف: رب عمل صغير تعظيمه النية ورب عمل كبير تصغره النية.

وقال يحي بن كثير: تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل.

وقال بعضهم: تجارة النيات تجارة العلماء. والمعنى: أن العلماء هم الذين يعلمون كيف يعاملون ربهم ﷻ ويربحون عليه ﷻ أعظم الربح، أما في الطاعات فينوي في الطاعة الواحدة نيات كثيرة، كمن يقصد الذهاب إلى المسجد فينوي أنه زائر لبيت الله وقاصدٌ كذلك لصلاة الجماعة التي تعدل صلاة الفذ بسبعة وعشرين ضعفًا، وينوي مع ذلك سماع الذكر من العلماء وإفادة العلم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ المسجد لا يخلو من جاهل يسيء في صلاته، وينوي مع ذلك أن يستفيد أخًا في الله فإن ذلك غنيمة ونصرة للدار الآخرة، وينوي كذلك ترك الذنوب حياء من الله تعالى، فما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة.

أما المباحات: فما من شيء منها إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها محاسن القربات، كما قال بعضهم: إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي. ونصح بعضهم فقال: لا تعملن عملًا إلا بنية.

فيمكن للعبد أن يستحضر نية صالحة في مباحاته فتصبح بذلك قربات، فالتطيب مثلًا إن قصد به التلذذ والتنعم فهو مباح، وإن نوى به اتباع سنة رسول الله ﷺ فهو قربة، وإن نوى به التودد إلى قلوب النساء الأجنبيات والتفاخر والتكاثر فهذا يجعل التطيب معصية، فإذن المباح بالنية الصالحة يرتفع إلى قربة وبالنية الفاسدة يصبح معصية.

متابعة السنة

الشرط الثاني لقبول العمل أن يكون العمل مطابقًا لسنة النبي ﷺ لحديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ»[1]. وفي رواية لمسلم: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» وهذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام، فكما أن حديث «الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» ميزان للأعمال في باطنها فهو ميزان للأعمال في ظاهرها، فكل عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله فهو مردود على عامله، فقوله: «لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا» إشارة إلى أن أعمال العاملين كلها ينبغي أن تكون تحت أحكام الشريعة فتكون أحكام الشريعة حاكمة عليها بأمرها ونهيها فمن كان عمله جاريًا تحت أحكام الشريعة موافقًا لها فهو مقبول، ومن كان خارجًا عن ذلك فهو مردود.

وقد أخبر النبي ﷺ عن السبيل التي ينبغي للعباد أن يسلكوها حتى لا يكونوا يوم القيامة من المغبونين: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: 104]. فقال ﷺ في حديث العرباض بن سارية: «فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ

---

(1) رواه البخاري (2697) الصلح، ومسلم (1718) الأقضية والرد هنا بمعنى المردود أي فهو باطل غير معتد به.

الرَّاشِدِينَ، فَتَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ»(1).

فهذا إخبار منه ﷺ بما وقع في أمته بعده من كثرة الاختلاف في أصول الدين وفروعه وفي الأعمال والأقوال والاعتقادات، وهذا موافق لما روى عنه من افتراق أمته على بضع وسبعين فرقة وأنها كلها في النار إلا واحدة وهيَ ما كان عليه وأصحابه ففي هذا الحديث أمر عند الافتراق والاختلاف بالتمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده، والسنة هي الطريق المسلوكة فيشمل ذلك التمسك بما كان عليه هو وخلفاؤه الراشدون من الاعتقادات والأعمال والأقوال، وهذه هي السنة الكاملة، ولهذا كان السلف لا يطلقون اسم السنة إلا على ما يشمل ذلك كله، وقوله: «عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ» كناية عن شدة التمسك بها. والنواجذ: الأضراس، قوله: «وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُل بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ» تحذير للأمة من اتباع الأمور المحدثة والمبتدعة وأكد ذلك بقوله: «كُل بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ» وعن جابر عن النبي ﷺ إنه كان يقول في خطبته: «فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ. وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ ﷺ. وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا. وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ»(2).

---

(1) رواه أحمد (4/ 126، 127)، وأبي داود (4607) السنة، والترمذي (2676) العلم، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه (43) المقدمة والدارمي (1/ 44، 45) أتباع السنة والبغوي في شرح السنة (1/ 205) وقال: هذا حديث حسن وصححه الألباني في الظلال.

(2) رواه مسلم (867) الجمعة: بَاب تَخْفِيفِ الصَّلَاةِ وَالْخُطْبَةِ.

فقوله: «كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ» من جوامع الكلم لا يخرج عنه شيء، وهو أصل عظيم من أصول الدين شبيه بقوله ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ منه فَهُوَ رَدٌّ»[1]. فكل من أحدث شيئًا ونسبه إلى الدين ولم يكن له أصل في الدين يرجع إليه فهو ضلالة والدين بريء منه، وسواء في ذلك مسائل الاعتقادات أو الأعمال أو الأقوال الظاهرة والباطنة، وأما ما وقع في كلام السلف من استحسان بعض البدع فإنما ذلك في البدع اللغوية لا الشرعية، فمن ذلك قول عمر ﷺ لما جمع الناس في قيام رمضان على إمام واحد في مسجد وخرج ورآهم يصلون كذلك فقال: «نعمت البدعة هذه» فهذا الفعل وإن لم يكن على هذا الوجه قبل هذا الوقت ولكن له أصل في الشرع يرجع إليه، فمنها أن النبي ﷺ كان يحث على قيام رمضان ويرغب فيه، وكان الناس في زمنه يقومون في المسجد جماعات متفرقة ووحدانًا، وهو يصلي ﷺ بأصحابه غير ليلة ثم امتنع من ذلك معللًا بأنه خشي أن يكتب عليهم فيعجزوا عن القيام به، ومنها أنه ﷺ أمر باتباع سنة خلفائه الراشدين وهذا قد صار من سنة خلفائه الراشدين.

وقد روى الحافظ أبو نعيم بإسناده عن إبراهيم بن الجنيد قال: سمعت الشافعي يقول: البدعة بدعتان: بدعة محمودة وبدعة مذمومة: فما وافق السنة فهو محمود، وما خلاف السنة فهو مذموم. واحتج بقول عمر ﷺ: نعمت البدعة هذه.

---

(1) تقدم تخريجه (ص23).

قال ابن رجب رحمه الله : ومراد الشافعي رضي الله عنه أن أصل البدعة المذمومة ما ليس له أصل في الشرع ترجع إليه ، وهي البدعة في إطلاق الشرع ، وأما البدعة المحمودة فما وافق السنة يعني ما كان له أصل من السنة يرجع إليه ، وإنما هي بدعة لغة لا شرعًا لموافقتها السنة.

وفي هذه الأزمان التي بعد العهد فيها بعلوم السلف يتعين ضبط ما نقل عنهم من ذلك كله ليتميز به ما كان من العلم موجودًا في زمانهم وما أحدث في ذلك بعدهم فيعلم بذلك السنة من البدعة ، وقد صح عن ابن مسعود أنه قال : «إنكم قد أصبحتم اليوم على الفطرة ، وإنكم ستحدثون ويحدث لكم ، فإذا رأيتم محدثة فعليكم بالعهد الأول». وابن مسعود قال هذا في زمن الخلفاء الراشدين.

وروى ابن حميد عن مالك قال : لم يكن شيء من هذه الأهواء في عهد النبي وأبي بكر وعمر وعثمان. وكان مالك يشير بالأهواء إلى ما حدث من التفرق في أصول الديانات من أمور الخوارج والروافض والمرجئة ونحوهم ممن تكلم في تكفير المسلمين واستباحة دمائهم وأموالهم ، أو في تخليدهم في النار ، أو في تفسيق خواص هذه الأمة أو عكس ذلك من زعم أن المعاصي لا تضر أهلها ، وأنه لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد.

وقد أمر الله عز وجل باتباع سنة النبي ﷺ فقال تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر : 7]. وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : 36].

بل جعل الله ﷻ اتباع سنة نبيه ﷺ علامة على محبته ﷻ فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: 31] الآية.

قال الحسن البصري: ادعى ناس محبة الله ﷻ فابتلاهم بهذه الآية: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ الآية.

قال الزهري: الاعتصام بالسنة نجاة؛ لأن السنة كما قال مالك: مثل سفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها هلك.

وعن سفيان قال: لا يقبل قول إلا بعمل، ولا يستقيم قول وعمل إلا بنية، ولا يستقيم قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة.

وعن ابن شوذب قال: إن من نعمة الله على الشاب إذ نَسُكَ أن يؤاخي صاحب سنة يحمله عليها.

وعن المعتمر بن سليمان قال: دخلت على أبي وأنا منكسر فقال لي: مالك؟ قلت: مات صديق لي فقال: مات على السنة؟ قلت: نعم. قال: تحزن عليه.

وعن سفيان الثوري قال: استوصوا بأهل السنة خيرًا فإنهم غرباء.

الأخبار في ذم البدع والمبتدعين:

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾

[آل عمران: 105، 106]

قال ابن عباس رضي الله عنهما: تَبْيَضُّ وجوه أهل السنة والائتلاف وتسود وجود أهل البدعة والاختلاف.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[1]. وعَنْ عَبْدِ الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ. وَلأُنَازِعَنَّ أَقْوَامًا ثُمَّ لأُغْلَبَنَّ عَلَيْهِمْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ! أَصْحَابِي أَصْحَابِي. فَيُقَالُ: إِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ»[2]. وفي حديث العرباض بن سارية قوله ﷺ: «وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُل بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ»[3].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم».

وعن أيوب السختياني قال: ما ازداد صاحب بدعة اجتهادًا إلا ازداد من الله عز وجل بعدًا.

وعن سعيد الكويري قال: مرض سليمان التيمي فبكى في مرضه بكاء شديدًا فقيل له: ما يبكيك؟ أتجزع من الموت؟ قال: لا ولكن مررت على قَدريٍّ فسلمت عليه فأخاف أن يحاسبني ربي عليه.

وعن الفضيل قال: إذا رأيت مبتدعًا في طريق فخذ في طريق آخر، ولا يرفع لصاحب بدعة إلى الله عز وجل عمل، ومن أعان صاحب بدعة فقد أعان على هدم الدين.

---

(1) جزء من حديث رواه البخاري (5063) النكاح، ومسلم (1401) النكاح.

(2) رواه البخاري، ومسلم (2297) الفضائل، ومالك (1/ 28،29) الطهارة والبغوي في «شرح السنة» (1/ 322،323) الطهارة.

(3) تقدم تخريجه (ص24).

فصــــل

فإن قال قائل: قد مدحت السنة ذممت البدعة فما السنة؟ وما البدعة؟ فإنا نرى كل مبتدع يزعم أنه من أهل السنة.

فالجواب: أن السنة في اللغة: الطريق ولا ريب في أن أهل النقل والأثر المتبعين آثار رسول الله ﷺ وآثار أصحابه ﷺ هم أهل السنة؛ **لأنهم على تلك** الطريق التي لم يحدث فيها حادث، وإنما وقعت الحوادث والبدع بعد رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ.

والبدعة: عبارة عن فعل لم يكن - يعني في عهد الصحابة ﷺ - فابتدع، والأغلب في المبتدعات أنها تصادم الشريعة بالمخالفة، وتوجب التعاطي عليها فإن ابتدع شيءٌ لا يخالف الشريعة ولا يوجب التعاطي عليها فقد كان جمهور السلف يكرهونه وكانوا ينفرون من كل مبتدع وإن كان جائزًا حفظًا للأصل وهو الاتباع، وقد قال زيد بن ثابت لأبي بكر وعمر ﷺ حين قالا اجمع القرآن: «كَيْفَ تَفْعَلانِ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ النَّبِيُّ ﷺ»[1].

وعن أبي البختري قال: أخبر رجل عبد الله بن مسعود أن قومًا يجلسون في المسجد بعد المغرب فيهم رجل يقول: كبروا الله كذا وكذا وسبحوا الله كذا وكذا واحمدوا الله كذا وكذا، قال عبد الله: فإذا رأيتهم فعلوا ذلك فأتني فأخبرني

---

(1) رواه البخاري (4986) التفسير ورواه في فضائل القرآن، والترمذي (3103) التفسير.

بمجلسهم، فأتاهم فجلس فلما سمع ما يقولون قام فأتى ابن مسعود فجاء وكان رجلًا حديدًا. فقال: أنا عبد الله بن مسعود والله الذي لا إله غيره لقد جئتم ببدعة ظلمًا ولقد فضلتم أصحاب محمد ﷺ علمًا، فقال عمر بن عتبة: استغفر الله فقال: عليكم بالطريق فالزموه ولئن أخذتم يمينًا وشمالًا لتضلُن ضلالًا بعيدًا[1].

وفي الصحيحين عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ»[2].

وقال أبو شامة عن مبارك عن الحسن البصري: السنة والذي لا إله إلا هو بين الغالي والجافي، فاصبروا عليها رحمكم الله، فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى، وهم أقل الناس فيما بقى، الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم، فكذلك إن شاء الله فكونوا.

فهؤلاء هم أهل السنة والجماعة والطائفة المنصورة إلى أن تقوم الساعة فنسأل الله عز وجل أن يجعلنا منهم، وأن يحشرنا في زمرتهم بمنه وكرمه.

***

(1) رواه الدارمي (1/ 68) وصححه الألباني.

(2) رواه البخاري (3640، 7311، 7495) الاعتصام بالكتاب والسنة، ومسلم (1920) الإمارة.

(3) فضل العلم والعلماء[1]

* قال الله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: 18].

دلت هذه الآية على فضل العلم وأهله من وجوه:

الأول: استشهاد العلماء دون غيرهم من البشر.

الثاني: اقتران شهادة العلماء بشهادة الله ﷻ وشهادة الملائكة.

والثالث: ضمن استشهادهم تزكيتهم وتعديلهم من الله ﷻ فإن الله ﷻ لا يستشهد من خلقه إلا العدول، ومنه الأثر المعروف: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين»[2].

الرابع: أنه ﷻ استشهد بهم على أجلِّ مشهودٍ عليه وأعظمه وأكبره وهو شهادة أن لا إله إلا الله، والعظيم القدر إنما يستشهد على الأمر العظيم أكابر الخلق وساداتهم.

❁ ومنِ الأدلة على فضل العلم أن الله ﷻ أمر نبيه ﷺ أن يسأله مزيدًا من العلم فقال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه: 114].

وكفى بهذا شرفًا للعلم أن أمر الله نبيه أن يسأله المزيد منه.

---

(1) انظر مفتاح دار السعادة لابن القيم.

(2) رواه الخطيب في شرف أصحاب الحديث عن أبي هريرة وأسامة بن زيد وإبراهيم بن عبد الرحمن العذري وحكي تصحيح الإمام أحمد له (29)، وقال الألباني: ثم إن الحديث مرسل لكن قد روي موصولًا من طريق جماعة من الصحابة وصحح بعضهم طرقه الحافظ العلائي «مشكاة المصابيح» (248)

❁ ومن الأدلة كذلك على فضل العلم: أن الله ﷻ أخبر عن رفعه درجات لأهل العلم والإيمان فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: 11].

❁ ومن الأدلة كذلك على فضل العلم وأهله أن الله ﷻ أخبر أن أهل العلم هم أهل خشيته بل خصهم من بين العباد بذلك فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: 28]. قال ابن مسعود ﷺ: «كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار جهلاً» والعلم هو خشية الله ﷻ والعالم من يخشى الله. قيل للشعبي: يا عالم قال: إنما العالم من يخشى الله.

❁ ومن الأدلة كذلك على فضل العلم وشرفه أن الله ﷻ شهد لمن آتاه العلم بأنه آتاه خيرًا كثيرًا فقال تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: 269]. قال ابن قتيبة والجمهور: الحكمة إصابة الحق والعمل به، وهي العلم النافع والعمل الصالح.

❁ ومن الأدلة كذلك على شرف العلم، فضله أن الله ﷻ جعل صيد الكلب الجاهل ميتة يحرم أكلها وأباح صيد الكلب المعلم وهذا من شرف العلم. قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [المائدة: 4].

ولولا مزية العلم والتعليم وشرفهما كان صيد الكلب الجاهل والمعلم سواء.

۞ ومما يدل على شرف العلم والتعليم قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: 122].

والمعنى على قول الأكثرين وما كان المؤمنون لينفروا إلى الجهاد كلهم، بل ينبغي أن تنفر طائفة للجهاد وفرقة تقعد تتفقه في الدين، فإذا جاءت الطائفة التي نفرت فقهتها القاعدة وعلمتها ما أنزل من الدين والحلال والحرام.

۞ ومن الأدلة كذلك على شرف العلم والعلماء ما ورد في الصحيحين من حديث معاوية ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ يُرِدْ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»(1).

ويدل الحديث بمنطوقه على أن من أراد الله به خيرًا فقهه في دينه وبمفهومه على أن من لم يرد الله به خيرًا لم يفقهه في الدين.

قال الإمام أحمد: الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب؛ لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس.

---

(1) رواه البخاري (71) العلم، ومسلم (1037) الإمارة، والترمذي (2645) العلم عن ابن عباس وقال: حديث حسن صحيح، وقال ابن الأثير في الجامع: الفقه الفهم والدراية والعلم في الأصل، وقد جعله العُرف خاصًا بعلم الشريعة.

❁ ومن الأدلة كذلك على شرف العلم وأهله ما أخرجاه في الصحيحين من حديث ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حَسَدَ إلا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ الله مَالا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ وَرَجُلٌ آتَاهُ الله حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا»[1]. فأخبر ﷺ أنه لا ينبغي لأحد أن يحسد أحدًا يعني حسد غبطة بتمني مثل حاله إلا في واحدة من هاتين الحالتين وهي الإحسان إلى الناس بالعلم أو بالمال، وما عدا هذين لا ينبغي أن يتمنى العبد مثل حاله لقلة منفعته للناس.

❁ ومن الأدلة كذلك ما ورد في السنن والمسانيد من حديث صفوان بن عسال قال: قلت يا رسول الله، إني جئت أطلب العلم قال: «مرحبًا بطالب العلم، إن طالب العلم لتحف به الملائكة وتظله بأجنحتها فيركب بعضها بعضًا حتى تبلغ السماء الدنيا، من حبهم لما يطلب»[2].

وذكر حديث المسح على الخفين قال أبو عبد الله الحاكم: إسناده صحيح، وقال ابن عبد البر: هو حديث صحيح حسن ثابت محفوظ مرفوع، وقد ورد في

---

(1) رواه البخاري (73) العلم، ومسلم (816) صلاة المسافرين عن عبد الله بن مسعود ورواه الترمذي (8/ 121) أبواب البر والصلة عن الزهري عن أبيه وقال: هذا حديث حسن صحيح وقال الحافظ في الفتح: قوله: «لا حسد» أي لا رخصة في الحسد إلا في خصلتين. أو لا يحسن الحسد إن حسن، أو أطلق الحسد مبالغة في الحث على تحصيل الخصلتين.

(2) رواه أحمد والطبراني بإسناد جيد واللفظ له وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح الإسناد وروى ابن ماجه نحوه باختصار وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (1/ 34).

حديث أبي داود والترمذي قوله ﷺ: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ»(1).

ففي الحديث الأول حف الملائكة له إلى السماء الدنيا وفي الثاني وضعها أجنحتها له فالوضع تواضع وتوقير وتبجيل، والحف بالأجنحة حفظ وحماية وصيانة، فتضمن الحديثان تعظيم الملائكة لطالب العلم وحبها إياه وحياطته وحفظه، فلو لم يكن لطالب العلم إلا هذا الحظ الجزيل لكفى به شرفًا وفضلًا.

- ومن الأدلة كذلك ما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»(2)، وقد تظاهر الشرع والقدر على أن الجزاء من جنس العمل، فكلما سلك طريقًا يطلب فيه حياة قلبه ونجاته من الهلاك سلك الله به طريقًا يحصل له ذلك.

- ومن الأدلة كذلك على شرف العلم وفضله ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أنه قال: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ. أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ. أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»(3). فهذا من أعظم الأدلة

---

(1) رواه أبي داود (3641) العلم، والترمذي (2682) العلم. ورواه أيضًا ابن ماجه (222) العلم وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (1/ 33) والأرناؤوط في تحقيق الجامع (8/ 6).

(2) رواه مسلم (2699) الذكر والدعاء، والترمذي (2682) العلم وقال: هذا حديث حسن، وأبي داود (3643) العلم، وابن ماجه (222) المقدمة.

(3) رواه مسلم (1631) الوصية، وأبي داود (2880) الوصايا والترمذي (1376) الأحكام وقال: حسن =

على شرف العلم وفضله وعظم ثمرته، فإن ثوابه يصل إلى الرجل بعد موته ما دام ينتفع به فكأنه حي لم ينقطع عمله لما له من حياة الذكر والثناء فجريان أجره عليه إذا انقطع عن الناس ثواب أعمالهم حياة ثانية.

ومن الأدلة كذلك على شرف العلم وفضله ما رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه والحاكم وصححه من حديث أبي كبشة الأنماري قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالاً وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَيَعْلَمُ للهِ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالاً وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَلا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَلا يَعْلَمُ للهِ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ الله مَالاً وَلا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ»[1].

فقسم النبي ﷺ أهل الدنيا أربعة أقسام خيرهم من أوتي علمًا ومالاً فهو محسن إلى الناس بعلمه وماله، يليه في المرتبة من أوتي علمًا ولم يؤت مالاً وإن كان

صحيح، والنسائي (3653) الوصايا قال الشيخ ولي الدين: إنما أجري على هؤلاء الثلاثة الثواب بعد موتهم لوجود ثمرة أعمالهم بعد موتهم كما كانت موجودة في حياتهم، والصدقة الجارية حملت على الوقف.

(1) رواه الترمذي (2325) أبواب الزهد وقال: حسن صحيح، ورواه أحمد (4/ 230، 231)، وصححه الألباني.

أجرهما سواء فذلك إنما كان بالنية ، الثالث من أوتي مالًا ولم يؤت علمًا ، الرابع من لم يؤت مالًا ولا علمًا ونيته أنه لو كان له مال لعمل فيه بمعصية الله ، فعادت السعادة بجملتها إلى العلم وموجبه ، والشقاوة بجملتها إلى الجهل وثمرته.

❊ومن الأدلة كذلك على شرف العلم وطلبه ما رواه كثير بن قيس قال : كنت جالسًا مع أبي الدرداء في مسجد دمشق فجاء رجل فقال : يا أبا الدرداء إني جئتك من مدينة الرسول ﷺ ما جئت لحاجة قال : فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ الله بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[1].

❊ومن الأدلة كذلك على شرف العلم وأهله ما رواه كميل بن زياد النخعي قال : أخذ علي بن أبي طالب ﷺ بيدي فأخرجني ناحية الجبانة فلما أصحر جعل يتنفس ثم قال يا كميل بن زياد : القلوب أوعية فخيرها أوعاها احفظ عني ما أقول لك : الناس ثلاثة : فعالم رباني ، ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا إلى ركن

---

(1) تقدم تخريجه (صـ35).

وثيق، العلم خير من المال؛ العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم يزكو على الإنفاق «وفي رواية: على العمل» والمال تنقصه النفقة، العلم حاكم والمال محكوم عليه، ومحبة العلم دين يدان بها، العلم يكسب العالم الطاعة في حياته وجميل الأحدوثة بعد وفاته، وصنيعة المال تزول بزواله، مات خُزَّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة، هاه هاه إن ههنا علمًا - وأشار بيده إلى صدره - لو أصبت له حملة، بل أصبته لقنًا غير مأمون عليه يستعمل آله الدين للدنيا يستظهر بحجج الله على كتابه وبنعمه على عباده، أو منقادًا لأهل الحق لا بصيرة له في أحنائه ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة لا ذا ولا ذاك، أو منهومًا للذات سلس القياد للشهوات أو مغرى بجمع الأموال والادخار ليسوا من دعاة الدين، أقرب شبهًا بهم الأنعام السائمة؛ كذلك يموت العلم بموت حامليه[1].

فقسم أمير المؤمنين الناس تقسيمًا في غاية الصحة ونهاية السداد؛ لأن الإنسان لا يخلو من أحد الأقسام التي ذكرها مع كمال العقل وإزاحة العلل، إما أن يكون عالمًا أو متعلمًا أو مُغفِلًا للعلم وطلبه ليس بعالم ولا طالب له.

فالعالم الرباني: هو الذي لا زيادة على فضله لفاضل، ولا منزلة فوق منزلته لمجتهد، وقد دخل في الوصف له بأنه رباني وصفه بالصفات التي يقتضيها العلم لأهله ويمنع وصفه بما خالفها، فأما المتعلم على سبيل النجاة فهو الذي يتعلم ما

---

(1) رواه أبو نعيم في الحلية (1/ 79، 80).

ينفعه، ويقصد بتعلمه نجاته من التفريط في تضييع الفروض الواجبة عليه والرغبة بنفسه عن إهمالها وإطراحها والأنفة عن مجانسة البهائم.

وأما القسم الثالث فهم المهملون لأنفسهم الراضون بالمنزلة الدنيئة والحالة الخسيسة التي هي في الحضيض الأسقط والهبوط الأسفل التي لا منزلة بعدها في الجهل ولا دونها في السقوط، قوله: «أتباع كل ناعق» أي: من صاح بهم ودعاهم تبعوه سواء دعاهم إلى هدى أو إلى ضلال فإنهم لا علم لهم بالذي يدعون إليه أحق هو أم باطل فهم مستجيبون لدعوته.

قوله: «يميلون مع كل ريح» شبه عقولهم الضعيفة بالغصن الضعيف، وشبه الأهوية والآراء بالرياح، والغصن يميل مع الريح حيث مالت، قوله: «لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجئوا إلى ركن وثيق» بين السبب الذي جعلهم بهذه المثابة وهو أنه لم يحصل لهم من العلم نور يفرقون به بين الحق والباطل كما قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ [الحديد: 28]. فإذا عدم القلب هذا النور صار بمنزلة الحيران الذي لا يدري أين يذهب فهو لحيرته وجهله بطريق مقصوده يؤم كل صوت يسمعه.

قوله: «العلم خير من المال؛ العلم يحرسك وأنت تحرس المال». يعني أن العلم يحفظ صاحبه ويحميه من موارد الهلكة ومواقع العطب وصاحب المال يحرس ماله، قوله: «العلم يزكو على الإنفاق والمال تنقصه النفقة» فالعلم كلما بذل علمه للناس وأنفق منه تفجرت ينابيعه فازداد كثرة وقوة وظهورًا فيكتسب بتعليمه حفظ ما

علمه ويحصل له به علم ما لم يكن عنده فلزكاة العلم طريقان: أحدهما تعليمه والثاني العمل به كما قال بعض السلف: كنا نستعين على حفظ العلم بالعمل به، وقال بعضهم: يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل.

وقد أورد العلامة ابن القيم في كتابه القيم مفاتح دار السعادة أربعين وجهًا لفضل العلم على المال نذكر بعضها مختصرًا.

- العلم ميراث الأنبياء والمال ميراث الملوك والأغنياء.
- العلم يحرس صاحبه وصاحب المال يحرس ماله.
- المال تذهبه النفقات والعلم يزكو على النفقة.
- صاحب المال إذا مات فارق ماله والعلم يدخل معه قبره.
- العلم حاكم على المال والمال لا يحكم على العلم.
- العلم يحتاج إليه الملوك فمن دونهم، وصاحب المال يحتاج إليه أهل العدم والفاقة.
- المال يحصل للمؤمن والكافر والبر والفاجر، والعلم النافع لا يحصل إلا للمؤمن.
- النفس تزكو بجمع العلم وتشرف بتحصيله، والمال لا يزكيها ولا يكملها بل تنقص وتشح وتبخل بجمعه والحرص عليه، فحرصها على العلم عين كمالها وحرصها على المال عين نقصها.

۞ المال يدعو إلى الطغيان والفخر والخيلاء، والعلم يدعو إلى التواضع والقيام بحق العبودية.

۞ حب العلم وطلبه أصل كل طاعة، وحب المال وطلبه أصل كل سيئة.

۞ ما أطاع الله أحدٌ قط إلا بالعلم، وعامة من يعصيه إنما يعصيه بالمال.

۞ المال يمدح صاحبه بتخلله عنه وإخراجه، والعلم يمدح بتحليه به واتصافه به.

۞ الغني بماله لابد أن يفارقه غناه ويتعذب ويتألم بمفارقته، والغني بعلمه لا يزول غناه ولا يتعذب صاحبه ولا يتألم، فلذة الغنى بالمال لذة زائلة منقطعة يعقبها الألم، ولذة الغنى بالعلم لذة دائمة مستمرة لا يلحقها ألم.

قوله ﷺ: «محبة العلم -أو العالم- دين يدان بها» لأن العلم ميراث الأنبياء والعلماء ورثتهم، وأيضًا فإن محبة العلم تحمل على تعلمه واتباعه وذلك دين يدان به.

قوله ﷺ: «العلم يكسب العالم الطاعة في حياته وجميل الأحدوثة بعد وفاته» أي يجعله مطاعًا لأن الحاجة إلى العلم عامة لكل إنسان للملوك فمن دونهم، فكل إنسان محتاج إلى طاعة العالم فإنه يأمر بطاعة الله ورسوله فيجب على الخلق طاعته.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [النساء: 59]. وفسر «أولي الأمر» بالعلماء، فإذا مات العالم أحيا الله ذكره ونشر له في العالمين أحسن الثناء، فالعالم بعد وفاته ميت وهو حي بين الناس، والجاهل في حياته حي وهو ميت بين الناس، ومن تأمل أحوال أئمة الإسلام كأئمة الحديث والفقه كيف هم تحت التراب وهم في العالمين كأنهم أحياء بينهم لم يفقدوا منهم إلا صورهم، وإلا فذكرهم وحديثهم والثناء عليهم غير منقطع وهذه هي الحياة حقًا.

قوله: «وصنيعة المال تزول بزواله» يعني كل صنيعة للرجل من أجل ماله من إكرام ومحبة وخدمة فإنما هي لمراعاة ماله فإذا زال ماله زالت تلك الصنائع كلها حتى ربما لا يسلم عليه من كان يدأب في خدمته، كما قال بعض العرب:

وَكَانَ بَنُوْ عمِّي يَقُوْلُونَ مَرْحَبًا فَلَمَّا رَأَونِي مُعْسِرًا مَاتَ مرحبُ

ثم بين بعد ذلك صفات علماء السوء أعاذنا الله منهم ومن أحوالهم فلتراجع في مفتاح دار السعادة نسأل الله الحسنى وزيادة.

۞ ومن الأدلة كذلك على شرف العلم وفضله ما رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده من حديث أنس بن مالك يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»(1). هذا وإن كان في سنده ضعف فمعناه صحيح فإن الإيمان فرض على كل واحد وهو مركب من علم وعمل ثم شرائع الإسلام واجبة على كل مسلم ولا يمكن أداؤها إلا بعد معرفتها والعلم بها، والله تعالى أخرج عباده من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئًا، وهل تمكن عبادة الله التي هي حقه على العباد كلهم إلا بالعلم، وهل ينال العلم إلا بطلبه.

---

(1) صحيح ابن ماجه (223) المقدمة، والبيهقي في الشعب، وقال في الزوائد: إسناده ضعيف لضعف حفص بن سليمان، وقال السيوطي: سئل الشيخ محي الدين النووي رحمه الله عن هذا الحديث، فقال: إنه ضعيف، أي سندًا وإن كان صحيحًا، أي معنى وقال تلميذه جمال الدين المزي: هذا الحديث روى من طرق تبلغ رتبة الحسن وهو كما قال فإني رأيت له خمسين طريقًا وقد جمعتها في جزء - ابن ماجه (1/ 81) المقدمة وصححه كذلك الألباني وانظر طرق الحديث في جنة المرتاب للحويني (83/ 104).

❁ ومن الأدلة كذلك على شرف العلم وفضله أنه يرفع العبد المملوك حتى يجلسه مجالس الملوك، كما ثبت في الصحيح من حديث الزهري عن أبي الطفيل أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ لَقِيَ عُمَرَ بِعُسْفَانَ وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ فَقَالَ: مَنِ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ فَقَالَ: ابْنَ أَبْزَى. قَالَ: وَمَنِ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ: مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا. قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى؟ قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللهِ عز وجل وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ. قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»[1].

قال إبراهيم الحربي: كان عطاء بن رباح عبدًا أسود لامرأة من مكة، وكان أنفه باقلاه، قال: وجاء سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين إلى عطاء هو وابناه فجلسوا إليه وهو يصلي، فلما صلى انفتل إليهم فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج وقد حول قفاه إليهم، ثم قال سليمان لابنيه: قوما فقاما فقال: يا بنيا لا تنيا في طلب العلم فإني لا أنسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود.

قال الحربي: وكان محمد بن عبد الرحمن الأوقص عنقه داخل في بدنه، وكان منكباه خارجين كأنهما زجان، فقالت أمه: يا بني لا تكون في مجلس قوم إلا كنت المضحوك منه المسخور به فعليك بطلب العلم فإنه يرفعك، فولي قضاء مكة عشرين سنة، قال وكان الخصم إذا جلس إليه بين يديه يرعد حتى يقوم.

---

(1) رواه مسلم (817) صلاة المسافرين.

وقال عبد الله بن داود سمعت سفيان الثوري يقول: إن هذا الحديث عز فمن أراد به الدنيا وجدها، ومن أراد به الآخرة وجدها.

قال سفيان بن عيينة: أرفع الناس عند الله من كان بين الله وبين عباده وهم الأنبياء والعلماء.

مَا الفَخْرُ إلاّ لأَهْلِ العِلْمِ إنَّهُمُ ... عَلَى الهُدَى لِمَن استَهْدَى أدِلاَّءُ

وَقَدْرُ كُلِّ امرِئٍ مَا كَانَ يُحْسِنُهُ ... والجاهلون لأهْلِ العِلْمِ أعْدَاءُ

فَفُزْ بِعِلْمٍ تَعِشْ حَيّاً بِهِ أَبَدَا ... النَّاسُ مَوْتَى وَأَهْلُ العِلْمِ أَحْيَاءُ

***

(4) آداب طالب العلم*

* ينبغي لطالب العلم أن يعلم أن الله ﷻ فرض عليه عبادته والعبادة لا تكون إلا بعلم والمؤمن لا يحسن به الجهل فطلبه للعلم لينفي عن نفسه الجهل وليعبد الله ﷻ كما أمره وليس كما تهوى نفسه، فكان هذا مراده في السعي في طلب العلم معتقدًا الإخلاص في سعيه لا يرى لنفسه الفضل في سعيه، بل يرى لله ﷻ الفضل عليه، إذ وفقه لطلب علم ما يعبده به من أداء فرائضه واجتناب محارمه.

* ينبغي له أن يتجنب الأسباب الشاغلة عن التحصيل إلا سببًا لابد منه للحاجة: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: 4]. ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق؛ ولذلك قيل: العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك.

* وينبغي له كذلك أن يقدم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف، إذ العلم عبادة القلب وصلاةُ السر وقربةُ الباطن إلى الله تعالى وكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث، فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف، ولذلك قيل: يُطَيَّبُ القلب للعلم كما تطيب الأرض للزراعة.

---

* انظر: التبيان عن آداب حملة القرآن للنووي - ومختصر منهاج القاصدين لابن قدامة - وأخلاق العلماء للآجري.

۞ وينبغي له كذلك أن لا يتكبر على العلم ويتواضع لمعلمه ويلقي إليه زمام أمره بالكلية في كل تفصيل، ويذعن إليه إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق، وإن كان معلمه أصغر سنًا وأقل شهرة ونسبًا، فبالتواضع والصبر على ذلك التعليم ينال العلم.

وَمَنْ لَمْ يَذُقْ طَعْمَ المَذَلَّةِ سَاعَةً ... قَطَعَ الزَّمَانَ بِأَسْرِهِ مَذْلُولاَ

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ذللت طالبًا فعززت مطلوبًا.

وينبغي له كذلك أن يختار مَنْ يتعلمُ منه، ولا يتعلمْ إلا ممن كَملَتْ أَهْليته، وظهرت ديانته، وتحققت معرفته، واشتهرت صيانته، فقد قال محمد بن سيرين، ومالك بن أنس وغيرهما من السلف: «إن هذا العلم دِيْنٌ، فانظروا عمَّنْ تأخذون دينكم».

۞ وينبغي له أن ينظر إلى معلمه بعين الاحترام والتوقير فإن هذا أقرب إلى الانتفاع به، وكان بعض المتقدمين إذا ذهب إلى معلمه تصدق بشيء وقال: اللهم استر عيب معلمي عني ولا تذهب بركة علمه مني. وقال الربيع صاحب الشافعي رحمهما الله: ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إليَّ هيبة له.

وروى عن عليّ بن أبي طالب قال: من حق المعلم عليك أن تسلم على الناس عامة تخصه دونهم بتحية، وأن تجلس أمامه، ولا تشيرنَّ عنده بيدك، ولا تغمزنَّ بعينك، ولا تقولن: قال فلان خلاف ما تقول، ولا تغتابن عنده أحدًا،

ولا تشاور جليسك في مجلسه، ولا تأخذ بثوبه إذا قام، ولا تلح عليه إذا كَلَّ ولا تَعرض - أي تشبع - من طول صحبته.

❂ وينبغي له كذلك أن يدخل على شيخه كامل الخصال، مُتطهرًا فارغ القلب من الأمور الشاغلة، وألاَّ يدخل بغير استئذان إذا كان الشيخ في مكان يحتاج فيه إلى استئذان، وأن يُسلم على الحاضرين إذا دخل ويخصه دونهم بتحية، ولا يتخطى رقاب الناس بل يجلس حيث ينتهي به المجلس إلا أن يأذن له الشيخ في التقدم، أو يعلم من حال الجالسين إيثارهم له بذلك، ولا يقيم أحدًا من موضعه، فإن آثره غيره لم يقبل اقتداء بابن عمر ﷺ، إلا أن يكون في تقديمه مصلحة للحاضرين، أو أمره الشيخ بذلك، ولا يجلس في وسط الحلقة إلا لضرورة، ولا يجلس بين صاحبين بغير إذنهما، وإن فسحا له قعد وضم نفسه.

❂ وينبغي له كذلك أن يتأدب مع رفقته وحاضري مجلس الشيخ فإن ذلك تأدب مع الشيخ وصيانة لمجلسه، ولا يرفع صوته رفعًا بليغًا من غير حاجة، ولا يضحك، ولا يكثر الكلام من غير حاجة، ولا يعبث بيده، ولا يلتفت يمينًا ولا شمالًا من غير حاجة، بل يكون متوجهًا إلى الشيخ مصغيًا إلى كلامه.

❂ وينبغي له كذلك أن يكون حريصًا على التعلم مواظبًا عليه في جميع الأوقات التي يتمكن منه فيها، ولا يقتنع بالقليل مع تمكنه من الكثير، ولا يحمل نفسه مالا يطيق مخافة من الملل وضياع ما حصل، وهذا يختلف باختلاف الناس والأحوال، وينبغي أن يأخذ نفسه بالاجتهاد في التحصيل في وقت الفراغ

والنشاط وقوة البدن ونباهة الخاطر وقلة الشاغلات مثل عوارض البطالة وارتفاع المنزلة، فقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁ : تفقهوا قبل أن تُسَوَّدُوا - أي تصيروا سادة - فإنكم إذا صرتم سادة متبوعين امتنعتم من التعلم لارتفاع منزلتكم وكثرة شغلكم، وهذا معنى قول الإمام الشافعي : تفقه قبل أن ترأس فإذا رَأَسْتَ فلا سبيل إلى الفِقْه.

***

(5) آداب المعَلم

❁ ينبغي للمعلم أن يقصد بتعليمه وجه الله ﷻ، ولا يطلب بعلمه شرف منزلة عند الملوك، ولا يأخذ على العلم ثمنًا، ولا يقرب أبناء الدنيا ويباعد الفقراء.

❁ وينبغي له أن يتخلق بالمحاسن التي ورد الشرع بها، والخصال الحميدة، والشيم المرضية التي أرشده الله إليها من الزهادة في الدنيا التقلل منها وعدم المبالاة بها وبأهلها، والسخاء والجود ومكارم الأخلاق وطلاقة الوجه من غير خروج إلى الخلاعة، والحلم والصبر والتنزه عن دنيء المكاسب، وملازمة الورع والخشوع والسكينة والوقار والتواضع، واجتناب الضحك والإكثار من المزاح، وملازمة الوظائف الشرعية كقص الشارب وتقليم الأَظْفَار وتسريح اللحية وإزالة الروائح الكريهة، وأن يكون ظاهره وباطنه مزينًا بسنة النبي ﷺ؛ فقد روى عن عمر بن الخطاب ؓ أن قال: من أظهر لنا خيرًا ظننا به خيرًا وأحببناه عليه، ومن أظهر لنا شرًا ظننا به شرًا وأبغضناه عليه.

❁ وينبغي له أن يتنزه عن المكروهات وفضول المباحات أمام تلامذته، وأن يحرص على أن يروه دائمًا في طاعة الله ﷻ مكثرًا من الذكر مقبلًا على ربه، وليحذر كل الحذر من الحسد والرياء والعجب واحتقار الغير.

۞ وينبغي للمعلم أن يرفق بمن يتعلم منه، وأن يرحب به ويحسن إليه بحسب حاله، وينبغي أن يبذل له النصيحة، فإن رسول الله ﷺ قال: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ، لله وَلِكِتَابِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»[1].

۞ ويبغي له أن يشفق على من يطلب منه العلم، ويعتني بمصالحه كما يعتني بمصالح ولده وبمصالح نفسه، وينبغي أن يتواضع لمن يتردد عليه ويتعلم منه؛ فعن أبي أيوب السختياني أنه قال: ينبغي للعالم أن يضع التراب على رأسه تواضعًا لله عز وجل.

۞ وينبغي له أن يكون حريصًا على تعليم تلامذته، مؤثرًا ذلك على مصالح نفسه التي ليست بضرورية، وأن يفرغ قلبه في حال جلوسه معهم من الأسباب الشاغلة، وأن يعطي كل إنسان منهم ما يليق به، فلا يكثر على من لا يحتمل الإكثار، ولا يقصر لمن يتحمل الزيادة، ويثني على من ظهرت نجابته ما لم

---

(1) رواه مسلم (55) الإيمان والترمذي (1926) البر، والنسائي (4211) البيعة. قال ابن الأثير: النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة: وهي إرادة الخير للمنصوح له، ومعنى النصيحة لله عز وجل: صحة الاعتقاد في وحدانيته وإخلاص النية في عبادته، والنصيحة لكتاب الله تعالى هو التصديق به والعمل بما فيه، والنصيحة لرسوله ﷺ التصديق بنبوته، وبذل الطاعة فيما أمر به ونهى عنه، والنصيحة لأئمة المؤمنين أن يطيعهم في الحق ولا يرى الخروج عليهم بالسيف إذا جاروا، والنصيحة لعامة المسلمين إرشادهم إلى مصالحهم.

يخش عليه فتنة بإعجاب أو غيره، ومن قصر عنفه تعنيفًا لطيفًا ما لم يخش عليه تنفيره، ولا يحسد أحدًا منهم لبراعة تظهر منه، ولا يستكثر فيه ما أنعم الله به عليه فإن الحسد للأجانب حرام شديد التحريم فكيف للمتعلم الذي هو بمنزلة الولد، ويعود من فضيلته إلى معلمه في الآخرة الثواب الجزيل، وفي الدنيا الثناء الجميل، والله والموفق.

***

(6) أحوال القلوب وأقسامها[1]

لما كان القلب للأعضاء كالملك المتصرف في الجنود التي تصدر كلها عن أمره ويستعملها فيما يحب، فكلها تحت عبوديته وقهره، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ، وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحله، قال النبي ﷺ: «أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ»[2].

فهو ملكها وهي المنفذة لما يأمرها به القابلة لما يأتيها من هديه، ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتى تصدر عن قصده ونيته، وهو المسئول عنها كلها، فكل راع مسئول عن رعيته؛ لذا كان الاهتمام بتصحيح القلب وتسديده أول ما اعتمد عليه السالكون والنظر في أمراضه وعلاجها أهم ما تنسك به الناسكون.

---

(1) انظر: إغاثة اللهفان لابن القيم وإحياء علوم الدين للغزالي.

(2) جزء من حديث رواه البخاري (52) الإيمان، ومسلم (1599) المساقاة والمزارعة وأول الحديث: «الْحَلالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ» وفي ألفاظه بعض الزيادة والنقص والمعنى واحد.

قال ابن رجب رحمه الله: فيه إشارة إلى أن صلاح حركات العبد بجوارحه واجتنابه للمحرمات واتقاءه للشبهات بحسب صلاح قلبه فإن كان قلبه سليمًا ليس فيه إلا محبة الله وخشية الوقوع فيما يكرهه صلحت حركات الجوارح كلها ونشأ عن ذلك اجتناب المحرمات كلها، وتوقي الشبهات حذرًا من الوقوع في المحرمات، وإن كان القلب فاسدًا قد استولى عليه اتباع الهوى وطلب ما يحبه ولو كرهه الله فسدت حركات الجوارح كلها، وانبعث إلى كل المعاصي والمشتبهات بحسب اتباع هوى القلب (1/ 284، 285) جامع العلوم والحكم بتحقيق الأحمدي أبو النور.

ولما علم عدو الله إبليس أن المدار على القلب والاعتماد عليه أجلب عليه بالوساوس وأقبل بوجوه الشهوات إليه وزين له من الأحوال والأعمال ما يصده عن الطريق، وأمده من أسباب الغي ما يقطعه به عن أسباب التوفيق، ونصب له من المصايد والحبائل ما إن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق، فلا نجاة من مصايدة ومكايدة إلا بدوام الاستعانة بالله تعالى والتعرض لأسباب مرضاته والتجاء القلب إليه وإقباله عليه في حركاته وسكناته، والتحقق بذل العبودية الذي هو أول ما تلبس به الإنسان ليحصل لـــه الدخول في ضمان: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الحجر: 42].

أقسام القلوب

لما كان القلب يوصف بالحياة وضدها انقسم بحسب ذلك إلى أقسام ثلاثة: قلب سليم، وقلب ميت، وقلب مريض.

القلب السليم:

وهو القلب الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به كما قـــال تعـــالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشـــعراء: 88، 89]. والسليم هو الذي قد صارت السلامة صفة ثابتة له كالعليم والقدير وأيضًا فإنه ضد المريض والسقيم والعليل فهو الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير

رسوله، فخلصت عبوديته لله تعالى إرادةً ومحبةً وتوكلًا وإنابةً وإخباتًا وخشيةً ورجاء، وخلص عمله لله، فإن أحبَّ أحب في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا ورسولهﷺ، فيعقد قلبه معه عقدًا محكمًا على الائتمام والاقتداء به وحده دون كل أحد في الأقوال والأفعال.

القلب الميت:

هو القلب الذي لا حياة فيه، فهو لا يعرف ربه ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه، بل هو واقفٌ مع شهواته ولذاته ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته رضي ربه أم سخط، فهو متعبد لغير الله حبًا وخوفًا ورجاءً ورضًا وسخطًا وتعظيمًا وذلًا إن أحب أحب لهواه وإن أبغض أبغض لهواه، وإن منع منع لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه، فهواه آثر عنده من رضي مولاه، فالهوى إمامه، والشهوة قائده، والجهل سائقه، والغفلة مركبه، فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مخمور، ينادى إلى الله والدار الآخرة من مكان بعيد فلا يستجيب للناصح ويتبع كل شيطان مريد، الدنيا تسخطه وترضيه، والهوى يصمُّهُ عما سوى الباطل ويعميه، فمخالطة صاحب هذا القلب سقم، ومعاشرته سم، ومجالسته هلاك.

القلب المريض:

قلب له حياة وبه علة، فله مادتان تمده هذه مرة وهذه أخرى، وهو لما غلب عليه منهما، ففيه من محبة الله تعالى والإيمان به والإخلاص له والتوكل عليه ما هو مادة حياته، وفيه من محبة الشهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها والحسد والعجب والكبر وحب العلو والفساد في الأرض والرياسة ما هو مادة هلاكِهِ وعطبه، وهو ممتحن بين داعيين: داعٍ يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة، وداعٍ يدعوه إلى العاجلة، وهو إنما يجيب أقربهما منه بابًا وأدناهما إليه جوارًا.

فالقلب الأول حَيٌّ مخبتٌ والثاني يابس ميت، والثالث مريض فإما إلى السلامة أدنى وإما إلى العطب أدنى.

تقسيم آخر: قسم الصحابة رضي الله عنهم القلوب إلى أربعة أقسام فعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: القلوب أربعة: قلبٌ أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن، وقلب أغلف فذلك قلب الكافر، وقلب منكوس فذلك قلب المنافق، عَرفَ ثم أنكر وأبصَرَ ثم عمي، «قلب تمده مادتان مادة إيمان ومادة نفاق وهو للغالب عليه منهما».

قوله: «قلب أجرد» أي متجرد مما سوى الله عز وجل، قوله: «فيه سراج يزهر» وهو مصباح الإيمان، فأشار بتجرده إلى سلامته من شبهات الباطل وشهوات الغي، وبحصول السراج إشراقه واستنارته بنور العلم والإيمان.

وقوله: «وقلب أغلف» أي داخل في غلافه وغشائه فلا يصل إليه نور العلم والإيمان كما قال تعالى حاكيًا عن اليهود: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: 88].

وقوله: «وقلب منكوس» أي مكبوب مركوس كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ [النساء: 88]. أي نكسهم وردهم في الباطل الذي كانوا فيه بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة وهذا أشر القلوب وأخبثها.

وقوله: «وقلب تمده مادتان» وهو القلب المريض الذي لم يتمكن فيه الإيمان ولم يزهر فيه سراجه حيث لم يتجرد للحق المحض الذي بعث الله به رسوله، بل فيه مادة منه ومادة من خلافه فتارة يكون للكفر أقرب منه للإيمان، وتارة أقرب منه للكفر، فالحكم للغالب وإليه يرجع.

***

مداخل الشيطان إلى القلب

اعلم أن مثال القلب مثال الحصن، والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن فيملكه ويستولي عليه، ولا يقدر على الحصن من العدو إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلمه، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يدري أبوابه، فحماية القلب من وساوس الشيطان واجب، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله، فصارت معرفة مداخله واجبة، ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد وهي كثيرة، ولكننا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية مجرى الدروب التي لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان.

فمن أبوابه العظيمة: الغضب والشهوة: فإن الغضب هو غول العقل وإذا ضعف جند العقل هجم جند الشيطان ومهما غضب الإنسان لعب الشيطان به كما يلعب الصبي بالكرة.

ومن أبوابه العظيمة الحسد والحرص: فمهما كان العبد حريصًا أعماه حرصه وأصَمَّهُ، ونور البصيرة هو الذي يعرف مداخل الشيطان، فإذا غطاه الحسد والحرص لم يبصر، فحينئذٍ يجد الشيطان فرصة فيحسن عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته وإن كان منكرًا فاحشًا، أما الحرص فقد قال ﷺ: «مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلا فِي غَنَمٍ، بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ، وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ»[1].

---

(1) رواه الترمذي (2376) الزهد وقال: حسن صحيح، والدارمي (2/ 304) الرقاق، ورواه أحمد في المسند (3/ 456)، والنسائي وصححه الألباني.

ومن أبوابه العظيمة الشّبع من الطعام: وإن كان حلالًا صافيًا؛ فإنَّ الشّبع يقوي الشهوات، والشهوات أسلحة الشيطان.

ومن أبوابه العظيمة العجلة: وترك التثبت في الأمور قال ﷺ: «**الْعَجَلَة مِنْ الشَّيْطَانِ والتأني مِنْ اللَّهِ**»[1].

ومن أبوابه العظيمة البخل وخوف الفقر: فإن ذلك يمنع من الإنفاق والتصديق ويدعو إلى الادخار والكَنْز والعذاب الأليم.

ومن أبوابه العظيمة التعصب للمذاهب: والأهواء والحقد على الخصوم والنظر إليهم بعين الازدراء والاستحقار وذلك مما يهلك العباد والفساق جميعًا فإن الطعن في الناس والاشتغال بذكر نقصهم صفة مجبولة في الطبع من الصفات السبعية.

ومن أبوابه سوء الظن بالمسلمين: قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: 12].

---

(1) في الصحيحة (1795) ورواه الترمذي (2376) البر وقال هذا حديث غريب، وقد تكلم بعض أهل الحديث في عبد المهيمن ابن عباس بن سهل وضعفه من قبل حفظه، قال في تحقيق جامع الأصول لكن للحديث شواهد يرتقي بها، وحسنه الزرقاني في مختصر المقاصد ص (84) بتحقيق الصباغ، وحسنه الألباني في الصحيحة رقم 1795.

فالمؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العيوب فإن قلت: فما العلاج في دفع الشيطان؟ وهل يكفي في ذلك ذكر الله تعالى وقول الإنسان لا حول ولا قوة إلا بالله؟ فاعلم أن علاج القلب في ذلك سد هذه المداخل بتطهير القلب من هذه الصفات المذمومة وذلك مما يطول ذكره فإذا قطعت من القلب أصول هذه الصفات المذمومة كان للشيطان بالقلب اجتيازات وخطرات ولم يكن له استقرار ويمنعه من الاجتياز ذكر الله تعالى لأن حقيقة الذكر لا تتمكن من القلب إلا بعد عمارة القلب بالتقوى وتطهيره من الصفات المذمومة وإلا فيكون الذكر حديثًا للنفس لا سلطان له على القلب فلا يدفع سلطان الشيطان ولذلك قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[الأعراف: 201]. خصص بذلك المتقي.

فمثل الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك فإن لم يكن بين يديك خبز ولحم فإنه ينزجر بأن تقول له: اخسأ فمجرد الصوت يدفعه فإن كان بين يديك لحم وهو جائع فإنه يهجم على اللحم ولا ينزجر بمجرد الكلام، فالقلب الخالي عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر.

فأما الشهوة فإذا غلبت على القلب دفعت حقيقة الذكر إلى حواشي القلب فلم يتمكن من سويدائه فيستقر الشيطان في سويداء القلب.

قال ﷺ «في القلب لمتان لمة من الملك إيعاذ بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله، ولمة من العدو إيعاذ بالشر وتكذيب بالحق

ونهي عن الخير فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم»[1]. ثم تلا قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [البقرة: 268].

وقال الحسن: إنما هما همان يجولان في القلب: هَمٌ من الله تعالى، وهَمٌ من العدو، فرحم الله عبدًا وقف عند همه فما كان من الله تعالى أمضاه، وما كان من عدوه جاهده.

والقلب بأصل فطرته صالح لقبول آثار الملك ولقبول آثار الشيطان صلاحًا متساويًا ليس يترجح أحدهما على الآخر، وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى والإكباب على الشهوات أو الإعراض عنها ومخالفتها، فإن اتبع الإنسان مقتضى الغضب والشهوة ظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى وصار القلب عش الشيطان ومرتعه؛ لأن الهوى هو مرعى الشيطان ومرتعه، وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه وتشبه بأخلاق الملائكة عليهم السلام صار قلبه مستقر الملائكة ومهبطهم، والتطارد بين جندي الملائكة والشياطين في معركة القلب دائم إلى أن يفتح القلب لأحدهما فيستوطن ويستمكن ويكون اجتياز الثاني اختلاسًا، وأكثر القلوب قد فتحتها جنود الشياطين وتملكتها فامتلأت بالوساوس الداعية إلى إيثار العاجلة وإطراح الآخرة، ومبدأ استيلائها اتباع الشهوات والهوى ولا يمكن فتحها

---

(1) رواه الترمذي وحسنه النسائي في الكبرى من حديث ابن مسعود قاله الحافظ العراقي في تخريج الإحياء ص(1386) طبعة الشعب.

بعد ذلك إلا بتخلية القلب عن قوت الشيطان وهو الهوى والشهوات، وعمارته بذكر الله تعالى الذي هو مطرح أثر الملائكة.

عن حذيفة بن اليمان ﷺقال: قال رسول الله ﷺ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّه فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»(1).

فالقلب عندما يتعرض للفتن من الشهوات والشبهات ينقسم إلى قسمين:

قلب إذا عرضت عليه الفتنة أشربها كما يشرب الإسْفَنْجُ الماء فتنكت فيه نكتة سوداء فلا يزال يشرب كل فتنة تعرض عليه حتى يسود وينتكس، فإذا اسود وانتكس تعرض لآفتين خطيرتين: أحدهما اشتباه المعروف عليه بالمنكر فلا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، وربما استحكم عليه هذا المرض حتى يعتقد المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، والسنة بدعة والبدعة سنة، والحق باطلًا والباطل حقًا.

والثاني: تحكيمه هواه على ما جاء به الرسول ﷺوانقياده للهوى واتباعه له.

---

(1) رواه مسلم (144) الإيمان: ذكر الفتن التي تموج كموج البحر وقوله «مُرْبَادًا» المربد الذي في لونه رُبْدَة وهي بين السواد والغُبْرَة «والمجخيّ» هو المائل عن الاستقامة والاعتدال.

وقلب أبيض : قد أشرق فيه نور الإيمان وأزهر فيه مصباحه ، فإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها وردها فازداد نوره وإشراقه ، والفتن التي تعرض على القلب فتن الشهوات وفتن الشبهات فالأولى توجب فساد القصد والإرادة ، والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد.

وتنقسم أمراض القلوب بحسب ذلك إلى أمراض الشهوات وأمراض الشبهات ، كما فسر مرض الشهوات بقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب : 32]. فإن المريض يؤذيه ما لا يؤذي الصحيح من يسير الحر والبرد والحركة فكذلك القلب إذا كان فيه مرض آذاه أدنى شيء من الشهوة أو الشبهة حيث لا يقوى على دفعها إذا وردا عليه ، والقلب الصحيح القوي يطرقه أضعاف ذلك وهو يدفعه بقوته وصحته.

أما أمراض الشبهات فكما قال الله ﷻ : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة : 10]. قال قتادة ومجاهد : أي شك.

فأمراض القلوب تجمعها أمراض الشهوات وأمراض الشبهات ، والقرآن شفاء للنوعين ، ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل فتزول أمراض الشبهة المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه ، فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبهة والشكوك ، ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه ، فمن رزقه الله تعالى ذلك أبصر الحق والباطل عيانًا بقلبه كما يرى الليل والنهار.

وأما شفاؤه لأمراض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب، والتزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة، والأمثال والقصص التي فيها أنواع العبر والاستبصار، فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك بما ينفعه في معاشه ومعاده، ويرغب عما يضره، فيصير القلب محبًا للرشد مبغضًا للغي فالقرآن مزيلٌ للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة فيصلح القلب فتصلح إرادته، ويعود إلى فِطْرته التي فُطِرَ عليها قال الله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: 82]. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [يونس: 57].

فيتغذى القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويقويه، وكل من القلب والبدن محتاج إلى أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح فكما أن البدن محتاج إلى أن يزكو بالأغذية المصلحة له وحمايته عما يضره، فلا يتم صلاحه إلا بذلك، ولا سبيل له للوصول إلى ذلك إلا بالقرآن، وإذا وصل إلى شيء من غيره فهو نزر لا يحصل به تمام المقصود، وكذلك الزرع لا يتم إلا بهذين الأمرين، فحينئذٍ يقال زكا الزرع وكمل.

ينبغي للعبد أن يدرس علامات مرض القلب وعلامات صحة القلب حتى يتأكد من حالة قلبه فإن كان قلبه مريضًا يسعى في علاجه قبل أن يلقى الله بقلب مريض فلا يؤذن له في دخول الجنة، وإن كان سليمًا فيحافظ على سلامته حتى يموت على ذلك وإن كان ميتًا والعياذ بالله فيعلم أن الله ﷻ يحيي الموتى ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الحديد: 17].

علامات مرض القلب

فمن علامات مرض القلب أن يتعذر على العبد ما خلق له من معرفة الله ومحبته والشوق إلى لقائه والإنابة إليه وإيثار ذلك على كل شهوة، فيقدم العبد حظه وشهوته على طاعة الله ومحبته، كما قال الله ﷻ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: 43]. قال بعض السلف: هو الذي كلما هوى شيئًا ركبه. فيحيا هذه الحياة الدنيا حياة البهائم لا يعرف ربه ﷻ ولا يعبده بأمره ونهيه كما قال تعالى: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: 12]. والجزاء من جنس العمل فكما لا يحيا الحياة التي يحبها الله ﷻ ويرضاها وهو كذلك ليس جمادًا لا يحس، بل يحيا من أجل أن يعصي الله ﷻ بنعمه، فهو كذلك في الآخرة لا يحيا حياة يجد فيها راحته، ولا يموت فيفقد الإحساس بالألم فلا يموت فيها ولا يحيا ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: 17].

❋ ومن علامات مرضه أن صاحبه لا تؤلمه جراحات المعاصي كما قيل: [وما لجرح بميت إيلام] فالقلب الصحيح يتوجع بالمعصية ويتألم لها فيحدث له ذلك توبة وإنابة إلى ربه ﷻ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201]. وقال تعالى في وصف المتقين: ﴿إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية [آل عمران: 135]. أي ذكروا عظمة الله ﷻ وتوعده وعقابه فأحدث لهم

ذلك استغفارًا. فمريض القلب يتبع السيئة السيئة كما قال الحسن في قوله ﷻ: ﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾[المطففين: 14]. هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب. أما سليم القلب فيتبع السيئة الحسنة والذنب التوبة.

❋ومن علامات مرضه أن صاحبه لا يوجعه جهله بالحق، فإن القلب السليم يتألم بورود الشبهات عليه، ويتألم بجهله بالحق وبعقائده الباطلة، فالجهل مصيبة من أكبر المصائب يتألم بها من كان في قلبه حياة قال بعض العلماء: «ما عصى الله بذنب أقبح من الجهل» وقيل للإمام سهل: يا أبا محمد، أي شيء أقبح من الجهل؟ قال: «الجهل بالجهل» قيل: صدق لأنه يسد باب العلم بالكلية.

ويقول القائل:

وفي الجهلِ قبلَ الموتِ موتٌ لأهلِهِ ... وَأَجْسَامُهُمْ قَبْلَ القُبُورِ قُبُورُ

وَأَرْوَاحُهُمْ فِي وَحْشَةٍ من جُسُومِهِمْ ... وَلَيْسَ لَهُمْ حَتَّى النُّشُورِ نُشُورُ

❋ومن علامات مرضه عدول صاحبه عن الأغذيةِ النافعةِ إلى السموم الضارة. كما يعرض أكثر الناس عن سماع القرآن الذي أخبر الله ﷻ عنه فقال: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[الإسراء: 82]. ويستمعون إلى الغناء الذي ينبت النفاق في القلب ويحرك الشهوات وفيه من الكفر بالله ﷻ ما فيه، فالعبد يُقدمُ على المعصية لمحبته لما يبغضه الله ﷻ ورسوله ﷺ، فالإقدام على المعصية نتيجة لمرض القلب ويزيد في مرض القلب، وكلما سَلِمَ القلب أحب ما يحبه الله ﷻ وما يحبه رسوله ﷺ

قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ [الحجرات: 7].

وقال ﷺ: «ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا وَبِالإِسْلامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نبيًا»[1].

وقال ﷺ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ ووَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[2].

❊ومن علامات مرضه أن يستوطن صاحبه الدنيا ويرضى بها ويطمئن فيها ولا يحس فيها بغربة ولا يرجو الآخرة ولا يسعى لها سعيها وكلما صح القلب من مرضه ترحل إلى الآخرة، فيعطي الناس ظاهره ويخالفهم بباطنه، يرى ما هم فيه ولا يرون ما هو فيه، ويكون حاله في الدنيا كما وصى الرسول ﷺ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»[3].

---

(1) رواه مسلم (2/ 2) الإيمان: بلفظ «ذاق طعم الإيمان»، والترمذي (2623) الإيمان وقال: حسن صحيح. قال عياض: معنى الحديث صح إيمانه واطمأنت به نفسه وخامر باطنه لأن رضاه بالمذكورات دليل لثبوت معرفته ونفاذ بصيرته ومخالطة بشاشة قلبه.

(2) رواه البخاري (1/ 58) الإيمان بمعناه، ومسلم (244) الإيمان، والنسائي (5028) الإيمان، وابن ماجه في المقدمة رقم (67).

(3) رواه البخاري (1416) الرقاق، والترمذي (2333) الزهد وأحمد (2/ 24، 41، 132)، والبغوي (14/ 221) شرح السنة.

علامات صحة القلب

❋أول علامة لصحة القلب ومحبة الرب ﷻ هي كثرة ذكر الله ﷻ، فإن القلوب كما قيل: كالقدور وألسنتها مغارفها، فاللسان يخرج ما في القلب من حُلوٍ أو حنظل، فإذا امتلأ القلب بحب الرب جل وعلا تحرك اللسان بالذكر ولابد، وإذا امتلأ بغير ذلك من الكفر والفسوق والعصيان تحرك اللسان بالغيبة والنميمة والفحش والبذاء.

قال بعضهم: المحب لا يجد للدنيا لذةً ولا يغفل عن ذكر الله طرفة عين.

وقيل كذلك: المحب طائر القلب كثير الذكر متسبب إلى رضوانه بكل سبيل، يقدر عليها من الوسائل والنوافل دأبًا وشوقًا. والذكر عند الشدة علامة على المحبة كما قال عنترة:

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ والرِّمَاحُ نَوَاهِلُ مِنِّيْ ... وَبِيضُ الهِنْدِ تَقْطُرُ مِنْ دَمِي

ففي الوقت الذي يرخص فيه بالإفطار وقصر الصلاة أمر الله ﷻ بالإكثار من الذكر فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: 45].

❋ومن علامات صحته أنه لا يزال يضرب على صاحبه حتى ينيب إلى الله ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه الذي لا حياة له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا برضاه وقربه والأنس به، فبه يطمئن، وإليه يسكن، وإليه يأوي وبه يفرح،

وعليه يتوكل، وبه يثق، وإياه يرجو، ومنه يخاف، فذكره قوته وغذاؤه، ومحبته والشوق إليه حياته ولذته نعيمه وسروره، والالتفات إلى غيره والتعلق بسواه داؤه، والرجوع إليه دواءه، فإذا حصل له ربه سكن إليه واطمأن به وزال ذلك الاضطراب والقلق وانسدت تلك الفاقة فإن في القلب فاقة لا يسدها إلا الله تعالى أبدًا.

❋ومن علامات صحته أن يتعب الجسد في الخدمة ولا يمل القلب، وقد كان الرسول ﷺ يُصَلِّيَ حَتَّى تَرِمُ قَدَمَاهُ فَقِيلَ لَهُ: غَفَرَ الله لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ: «أَفَلا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا»[1].

قال يحيى بن معاذ: من سر بخدمة الله سرت الأشياء كلها بخدمته، ومن قرت عينه بالله قرت عين كل أحد بالنظر إليه. قال ابن مسعود لرجل: دَاوِ قلبك فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم. أي مراده منهم ومطلوبه منهم، وصلاح القلب أن يمتلأ بحب الرب عز وجل ومن أحب الله عز وجل أحب خدمته وصارت قوت قلبه وغذاء نفسه كما قيل:

وَكُنْ لِرَبِّكَ ذَا حُبٍّ لِتَخْدِمَهُ إِنَّ الْمُحِبِّيْنَ لِلأَحْبَابِ خُدَّامُ

---

(1) رواه البخاري (4836، 3837) التهجد، والترمذي (412) الصلاة، والنسائي (1643) قيام الليل.

وقال الإمام ابن المبارك:

تَعصِي الإِلهَ وأنتَ تزعمُ حبَّهُ ... هَذا لَعَمْرِي فِي القِيَاسِ بَدِيعُ
لو كانَ حبُّكَ صَادِقًا لأطعتَهُ ... إن المُحبَّ لِمَن يُحِبُّ مُطِيعُ

* ومن علامات صحته أن يحن صاحبه إلى الخدمة ويشتاق إليها أكثر من حنين الجائع إلى الطعام والشراب؛ فإن العبد إذا ذاق حلاوة معاملة الله ﷻ بالمداومة على الطاعات أحب الطاعة، فلا يستغنى عنها بحال، فإذا وجد نفسه معطلًا في غير طاعة الله ﷻ ضاق عليه صدره ووجد دافعًا يدفعه من داخله إلى طاعة الله ﷻ، كما نصحت إحدى الصالحات من السلف بنيها فقالت لهم: تَعَوَّدُوا حب الله وطاعته، فإن المتقين ألفوا بالطاعة فاستوحشت جوارحهم من غيرها، فإن عرض لهم الملعون بمعصية، مرت المعصية بهم محتشمة فهم لها منكرون.

* ومن علامات صحته أنه إذا دخل في الصلاة ذهب عنه همه وغمه بالدنيا ووجد فيها راحته ونعيمه واشتد عليه خروجه منها كما قال ﷺ: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ»[1]

* ومن علامات صحته أن يكون أشح بوقته أن يذهب في غير طاعة من أشد الناس شحًا بماله فإن رأس مال العبد أنفاسه وكل نفس من أنفاس العمر جوهرة

---

(1) رواه النسائي (3949، 3950) في عشرة النساء وأحمد في المسند (31/ 138، 199، 285) وحسنه في تحقيق جامع الأصول وحسنه الألباني كذلك في تحقيق المشكاة.

ثمينة تستطيع أن تشتري بها كنزًا لا يفنى أبد الآباد فتضييعه وخسارته أو اشتراء صاحبه به ما يجلب هلاكه لا يسمح به إلا أقل الناس عقلًا وأكثرهم حمقًا.

روى الترمذي في جامعه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ»[1]. فانظر إلى مضيع الساعات كم يفوته من النخيل.

وقال ﷺ: «اقرؤا القرآن فإنكم تؤجرون عليه أما إني لاَ أَقُولُ ﴿الٓمٓ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ عشر، ولامٌ عشر، وَميمٌ عشر»[2].

وقال ﷺ «مَنْ صَلَّى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ بُنِيَ لَهُ بِهِنَّ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ»[3].

---

(1) رواه ابن حبان (2335) موارد، والترمذي (3465) الدعوات، والحاكم (1/ 501، 502) وقال الترمذي حسن صحيح وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي وصححه الألباني في الصحيحة.

(2) أخرجه الخطيب في التاريخ (1/ 285)، والديلمي (1/ 1/ 13) وقال الألباني: وهذا إسناد جيد رجاله رجال الصحيح غير ابن الجنيد ترجمه الخطيب وقال: وهو شيخ صدوق ووثقه غيره وروى الترمذي نحوه. الصحيحة 660.

(3) رواه مسلم (728) صلاة المسافرين، وأبي داود (1250) الصلاة والترمذي (415) الصلاة، والنسائي (1808) قيام الليل.

فسليم القلب الذي يستقبل هذا الكلام استقبالًا سليمًا لا يسعه إلا أن يملأ أوقاته وأنفاسه بطاعة الله ويبخل بالوقت والنفس أن ينفق في غير طاعة الله فيكون أشح بذلك من أشد الناس بخلًا بماله.

❋ومن علامات صحته أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أكثر من اهتمامه بالعمل ذاته، فإن العبرة ليست في كثرة العمل ولكن العبرة في حسن العمل وحفظه مما يحبطه، فيحرص على الإخلاص والمتابعة في كل عمل، ويشاهد منة الله عليه فيه وتقصيره في حق ربه ﷻ، ثم لا يَمُنّ بالعمل على ربه ﷻ أو على الناس، أو يصيبه بذلك العمل عجبٌ أو كِبْرٌ أو غير ذلك مما يجعل الأعمال التي تبدو للناس حسنات أقرب إلى السيئات، عياذًا بالله من ذلك.

❋ومن علامات صحته أنه إذا فاته ورده أو طاعة من الطاعات وجد لذلك حسرة أكثر مما يجد الحريص إذا فقد أهله وماله، فإنه يعلم أنها خسارة في الآخرة فيتألم لفوات الخير فيها، ويعلم أن خسارة الدنيا نسبتها إلى خسارة الآخرة كل شيء، فإن أعراض الدنيا زائلة آجلًا أو عاجلًا، أما ما عند الله ﷻ فلا يزول ولا يفنى قال الله تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: 96]. فلو أن تاجرًا يعاني البيع والشراء فاتته تجارة، الدرهم فيها يربح سبعة وعشرين درهمًا وفي نفس البلد لأكل أصابعه ندمًا عليها، فالذي تفوته صلاة الجماعة التي تعدل صلاة الفرد بسبع وعشرين ضعفًا ولا يتألم لذلك فهي علامة على مرض قلبه، وتعظيم الأمر والنهي من علامات صحة القلب ومحبة الرب ﷻ.

❋ومن علامات صحته أن يجعل العبد همه واحدًا يجعله في الله ﷻ أي في طاعة الله ، فالذي يحرك العبد من داخله هو محبة الله ﷻ ورجاء التلذذ بالنظر إلى وجهه الكريم كما قال تعالى: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[الليل: 19 ، 20].

وفي الأثر عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: من شغله أمر دينه كفاه الله أمر دنياه ، ومن أحسن سريرته أحسن الله علانيته ، ومن أحسن ما بينه وبين الله أحسن الله ما بينه وبين الناس. وقال بعضهم: إذا قصر العبد في العلم ابتلاه الله بالهم.

❋وفي علامات صحته أن يأنس بالله ﷻ ويستوحش من غيره ، إلا بمن يدله عليه أو يذكره به كما قيل: طوبى لمن استوحش من الناس وكان الله أنيسه». فإن العبد إذا أحب أحدًا أحب أن يخلو به ومن كان فاضلًا في نفسه أحب الخلوة وإذا خلا أنس بالله ﷻ وسعد بالله والعكس بالعكس. وكما يقولون: الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس.

❋ومن علامات صحته أنه يكون كلام الله ﷻ والكلام عنه أحب شيء إلى قلبه ، كما روى عن ابن مسعود أنه قال: «من كان يحب أن يعلم أنه يحب الله فيعرض نفسه على القرآن ، فإن أحب القرآن فهو يحب الله فإنما القرآن كلام الله». وروى عنه أنه كان يقبل المصحف ويقول: كلام ربي كلام ربي.

وقال عثمان ﷺ لو طهرت قلوبكم ما شبعت من كلام ربكم.

❁ فهذه علامات صحة القلب وهي أيضًا علامات محبة الرب جل وعلا، فصلاح القلوب أن تمتلئ بمحبة علام الغيوب وغفار الذنوب ﷻ، ولا صلاح لها بغير ذلك فكما أن ٱلسَّمَـٰوَٰتِ والأرض لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فكذلك قلوب العباد لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدت بذلك فسادًا لا يرجى له صلاح حتى تعود إلى توحيد ربها ﷻ ومحبته فالعين خلقت للإبصار، والأذن للسماع، واللسان للتحدث والذوق، والقلب خلق لمحبة الله ﷻ وعبادته، فلا يسعد إلا بذلك ولا يطمئن إلا به، وإذ أحب غير الله ﷻ وتعلق به فالتعاسة والشقاء والهموم والغموم. قال ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الْقَطِيفَةِ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ»(1).

فإذا فقد القلب وظيفة محبة الله ﷻ وعبادته فإنه يكون أشقى من العين إذا فقدت نورها، ومن الأذن إذا فقدت سمعها، فلذلك يظل القلب في تقلب وشقاء وهم وغم وحزن حتى يعرف ربه ﷻ، فإذا عرف ربه سعد به واستغنى بحبه عن حب ما سواه، وبذكره عن ذكر ما سواه، وبخدمته عن خدمة ما سواه، فسعادة الدنيا والآخرة منوطة بصلاح القلوب، وشقاء الدنيا والآخرة منوط بفسادها، نسأل الله ﷻ، أن يرزقنا بمنه وكرمه قلوبًا سليمة، وفطرًا مستقيمة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

---

(1) رواه البخاري (2887) الجهاد، والخميصة والقطيفة نوعان من الثياب وقوله: «إِذَا شِيكَ» إذا دخلت في جسمه شوكة. قوله: «فَلَا انْتَقَشَ» أي فلا خرجت من جسمه.

(7) أسباب مرض القلب وسمومه الضارة[1]

اعلم أن المعاصي كلها سموم للقلب وأسباب لمرضه وهلاكه، وهي منتجة لمرض القلب وإرادته غير إرادة الله ﷻ وضررها للقلب كضرر السموم للأبدان.

قال الإمام ابن المبارك:

رأيتُ الذُّنُوبَ تُميتُ القُلُوبَ وقد يورثُ الذل إدمانُهَا
وتركُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ القُلُوبِ وَخَيرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا

وللمعاصي من الآثار المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله ﷻ وليس في الدنيا والآخرة شرٌ وداء إلا وسببه الذنوب والمعاصي.

قال ابن القيم رحمه الله ما ملخصه:

فما الذي أخرج الوالدين من الجنة دار اللذةِ والنعيم والبهجة والسرور إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟!.

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه ومسخ ظاهره وباطنه فجعلت صورته أقبح صورة وأشنعها وباطنه أقبح من صورته وأشنع وبدل بالقرب بعدًا وبالرحمة لعنة وبالجمال قبحًا وبالجنة نارًا تلظى، فهان على الله غاية

---

(1) انظر: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم.

الهوان وسقط من رحمته غاية السقوط، وحل عليه غضب الرب تعالى فأهواه ومقته أكبر المقت فأراده، فصار قوادًا لكل فاسق ومجرم رضي لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة؟!. فعياذًا بك اللهم من مخالفة أمرك وارتكاب نهيك.

وما الذي أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رأس الجبال؟ وما الذي سلط الريح العقيم على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية؟

وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم وماتوا على آخرهم؟

وما الذي رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها فأهلكهم جميعًا ثم أتبعهم حجارة من سجيل فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم، ولإخوانهم أمثالها، وما هي من الظالمين ببعيد.

وما الذي أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل، فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم نارًا تلظى؟

وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم فالأجساد للغرق والأرواح للحرق؟

وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله؟

وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات ودمرهم تدميرًا؟

وما الذي بعث على بني إسرائيل قومًا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وقتلوا الرجال وسبوا الذراري والنساء، ثم بعثهم عليهم مرة ثانية فأهلكوا ما قدروا عليه وتبروا ما علوا تتبيرًا، وما الذي سلط عليهم أنواع العذاب والعقوبات مرة بالقتل والسبي وخراب البلاد، ومرة بجور الملوك، ومرة بمسخهم قردة وخنازير آخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى: ﴿ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [الأعراف: 167].

❋ فمن آثار الذنوب والمعاصي: أنها مدد من الإنسان يمد به عدوه عليه، وجيش يقويه به على حربه.

❋ ومنها: أنها تجرئ على العبد من لم يكن يجترئ عليه.

❋ ومنها: الطبع على القلب إذا تكاثرت، حتى يصير صاحب الذنب من الغافلين كما قال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: 14]. هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب، وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية، فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير رانًا، ثم يغلب حتى يصير طبعًا وقفلًا فيصير القلب في غشاوة وغلاف.

❋ ومنها: أن ينسلخ من القلب استقباحها فتصير له عادة.

❋ ومنها: أن المعاصي تزرع أمثالها ويولد بعضها بعضًا.

❋ ومنها: ظلمة يجدها في قلبه يحس بها كما يحس بظلمة الليل. كما روي

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «إن للحسنة نورًا في الوجه، وضياءً في القلب، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للمعصية سوادًا في الوجه، وظلامًا في القلب، وضيقًا في الرزق وبُغْضَةً في قلوب الخلق».

❋ومنها: أن المعاصي توهن القلب والبدن، أما وهنها للقلب فأمر ظاهر بل لا تزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية، وأما وهنها للبدن فإن المؤمن قوته في قلبه وكلما قوى قلبه قوى بدنه.

❋ومنها: تعسير أموره فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقًا دونه أو متعسرًا عليه كما قال بعض السلف: إني لأعصي الله فأجد ذلك في خلق دابتي وامرأتي.

❋ومنها: الوحشة التي تحصل بينه وبين الناس ولاسيما أهل الخير، قال أبو الدرداء: ليتق أحدكم أن تلعنه قلوب المؤمنين وهو لا يشعر، يخلو بمعاصي الله فيلقي الله له البغض في قلوب المؤمنين.

❋ومنها: سقوط الجاه والكرامة عند الله وعند خلقه: ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ [الحج: 18].

❋ومنها: أنها تطفئ في القلب نار الغيرة.

❋ومنها: ذهاب الحياء الذي هو مادة حياة القلب.

❋ومنها: أنها تضعف سير القلب إلى الله والدار الآخرة.

❋ومنها: أن العبد لا يزال يرتكب المعاصي حتى تهون عليه وتصغر في قلبه.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ فِي أَصْلِ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ، فقَالَ بِهِ هَكَذَا.»[1].

وقال أنس رضي الله عنه: «إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا، هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنْ الشَّعَرِ، إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ الْمُوبِقَاتِ»[2].

وقال بلال بن سعد: لا تنظر إلى صغر المعصية ولكن انظر إلى عظمة من عصيت.

ونخص بالذكر هنا - إن شاء الله تعالى - خمسة سموم من سموم القلب وهي من أكثر السموم انتشارًا وأشدها تأثيرًا في حياة القلب: وهي فضول الكلام، وفضول النظر، وفضول المخالطة، وفضول الطعام، وفضول النوم.

***

---

(1) رواه البخاري (6308) الدعوات والترمذي (2497) صفة القيامة.

(2) رواه البخاري (6492) الرقاق: بَاب مَا يُتَّقَى مِنْ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، وقوله: «مِنْ الْمُوبِقَاتِ» أي من المهلكات.

فضول الكلام[1]
«آفـات اللسـان»

الحمد لله الذي أحسن خلق الإنسان وعَدَّلَهُ، وألهمه نور الإيمان فزينه به وجَمَّلَهُ وعلمه البيان فقدمه به وفضله، وأمده بلسان يترجم به عما حواه القلب وعقله، فاللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة، فإنه صغير جرْمُه عظيمة طاعته وجُرْمُه، إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والعصيان، ومن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخي العنان سلك به الشيطان في كل ميدان وساقه إلى شفا جرف هار إلى أن يضطره إلى البوار، ولا يكبُّ الناس في النار على مناخرهم إلا حصائدُ ألسنتهم، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله، ففي حديث معاذ ﷺ قوله ﷺ: «وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ. أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ. إلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟»[2]. والمراد بحصائد الألسنة

---

(1) إحياء علوم الدين - جامع العلوم والحكم - فتح الباري.

(2) رواه الترمذي (2216) الإيمان. وقال: هذا حديث حسن صحيح وابن ماجه (2044) الفتن، والحاكم (2/ 413) التفسير وقال صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وصححه الألباني.

جزاء الكلام المحرم وعقوباته ؛ فإن الإنسان يزرع بقوله وعمله الحسنات والسيئات ثم يحصد يوم القيامة ما زرع ، فمن زرع خيرًا من قول أو عمل حصد الكرامة ، ومن زرع شرًا من قول أو عمل حصد الندامة ، وظاهر حديث معاذ يدل على أن أكثر ما يدخل الناس به النار النطق بألسنتهم ، فإن معصية النطق يدخل فيها الشرك وهو أعظم الذنوب عند الله عز وجل ، ويدخل فيها القول على الله بغير علم وهو قرين الشرك ، ويدخل فيها شهادة الزور والسحر والقذف وغير ذلك من الكبائر والصغائر كالكذب والغيبة والنميمة ، وسائر المعاصي الفعلية لا يخلو غالبًا من قول يقترن بها يكون معينًا عليها.

وقد ورد في فضل الصمت أحاديث كثيرة منها حديث سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَخْوَفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟ فَأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا»[1].

وقال ﷺ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»[2]. وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ مَا النَّجَاةُ؟ قَالَ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ»[3].

---

(1) رواه الترمذي (2410) الزهد وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه (4043) الفتن، وصححه الألباني، ورواه الدارمي (2/ 298) الرقاق، والحاكم (2/ 313) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(2) رواه البخاري (10) الإيمان، ومسلم (40) الإيمان، وأبي داود (2149) الطلاق، والنسائي (5010) الإيمان.

(3) رواه الترمذي (2406) الزهد، وأحمد (5/ 259) وابن المبارك في الزهد (134) وصححه الألباني =

وقال ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»(1). وهو من جوامع كلمه ﷺ ففيه أمر بقول الخير وبالصمت عما عداه، فالكلام إما أن يكون خيرًا فيكون مأمورًا بقوله، وإما أن يكون غير ذلك فيكون مأمورًا بالصمت عنه، وقد قال الله تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: 18].

وعن سهل بن سعد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ»(2). أي من أدى الحق الذي على لسانه من النطق بما يجب عليه والصمت عمَّا لا يعنيه، وأدى الحق الذي على فرجه من وضعه في الحلال وكفه عن الحرام، أضمنُ له الجنة، قال ابن بطال: دل الحديث على أن أعظم البلاء على المرء في الدنيا لسانه وفرجه فمن وقي شرهما وقي أعظم الشر.

عن أبي هريرة ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا يَزِلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ»(3). قال ابن عبد البر: الكلمة التي يهوي

لطرقه وهو في الصحيحة (890)

(1) رواه البخاري (10/ 445) الأدب، ومسلم (2/ 18) الإيمان وأبي داود (5132) الأدب، وابن ماجه (3971) الفتن.

(2) رواه البخاري (11/ 308) الرقاق، والترمذي (9/ 248) الزهد.

(3) رواه البخاري (11/ 266) الرقاق، ومسلم (18/ 117) الزهد والموطأ في الكلام، والترمذي (9/ 195) الزهد بلفظ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لا يَرَى بِهَا بَأْسًا يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النَّارِ».

بها صاحبها بسببها في النار هي التي يقولها عند السلطان الجائر.

قوله: «مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا» قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: هي الكلمة التي لا يعرف القائل حسنها من قبحها، قال: فيحرم على الإنسان أن يتكلم بما لا يعرف حسنه من قبحه. قال النووي: في هذا الحديث حث على حفظ اللسان فينبغي لمن أراد أن ينطق أن يتدبر ما يقول قبل أن ينطق فإن ظهرت فيه مصلحة تكلم وإلاَّ أمسك.

الآثار:

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: والله الذي لا إله إلا هو ليس شيء أحوج إلى طول سجن من لساني. وكان يقول: يا لسان، قل خيرًا تغنم واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم.

وعن أبي الدرداء ﷺ قال: أنصف أذنيك من فيك، وإنما جعل لك أذنان وفم واحد لتسمع أكثر مما تتكلم.

وعن الحسن البصري قال: كانوا يقولون: «إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ثم أمضاه، وإن لسان المنافق أمام قلبه فإذا هم بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه».

وعن الحسن قال: ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه.

فإن قلت: فهذا الفضل الكبير للصمت ما سببه؟

فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والفحش والمراء وتزكية النفس والخوض في الباطل والخصومة والفضل والتحريف والزيادة والنقصان وإيذاء الخلق وهتك العورات، فهذه آفات كثيرة، وهي سياقة إلى اللسان لا تثقل عليه، ولها حلاوة في القلب وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان، والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يحب ويكفه عما لا يحب، فإن ذلك من غوامض العلم ففي الخوض خطر وفي الصمت سلامة، فلذلك عظمت فضيلته مع ما فيه من جمع الهم ودوام الوقار والفراغ للفكر والذكر والعبادة والسلامة من تبعات القول في الدنيا ومن حسابه في الآخرة فقد قال تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: 18]. ويدل على فضل لزوم الصمت أمر، وهو أن الكلام أربعةُ أقسام: قسم هو ضرر محض، وقسم هو نفع محض، وقسم فيه ضرر ومنفعة، وقسم ليسَ فيه ضرر ولا منفعة.

أما الذي هو ضرر محض فلابد من السكوت عنه، وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة فإن درأ المفاسد مقدم عن جلب المنافع، وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول، والاشتغال به تضييع زمان وهو عين الخسران، فلا يبقى إلا القسم الرابع فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام وبقى ربع، وهذا الربع فيه خطر إذ قد يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء والتصنع وتزكية النفس امتزاجًا يخفى دَرْكُه فيكون الإنسان له مخاطرًا.

ونخص بتفصيل الذكر بعض آفات اللسان التي عمت بها البلوى: وهي الكلام فيما لا يعني، والغيبة والنميمة، والمدح.

الكلام فيما لا يعني

اعلم أن رأس مال العبد أوقاته، فمهما صرفها إلى ما لا يعنيه ولم يدخر بها ثوابًا في الآخرة فقد ضيع رأس ماله، ولهذا قال النبي ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ»[1].

وسببه الباعث عليه هو الحرص على معرفة ما لا حاجة إليه، أو تزجية أوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها، وعلاج ذلك كله أن يعلم أن أنفاسه رأس ماله، وأن لسانه شبكة يقدر أن يقتنص بها الخيرات الحسان فإهماله ذلك وتضييعه خسران مبين، ومعنى قوله ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ» أن من حسن إسلامه ترك ما لا يعنيه من قول وفعل واقتصر على ما يعنيه من الأقوال والأفعال، ومعنى يعنيه أي تتعلق عنايته به ويكون من مقصوده ومطلوبه، والعناية شدة الاهتمام بالشيء وليس المراد أنه يترك ما لا إرادة له ولا عناية بحكم الهوى وطلب النفس بل بحكم الشرع والإسلام، ولهذا جعله من حسن الإسلام، وأكثر ما يراد بترك ما لا يعني حفظ اللسان من لغو الكلام.

قال مورق العجلي: أمرٌ أنا في طلبه منذ كذا وكذا سنة لم أقدر عليه ولست بتارك طلبه أبدًا قالوا: وما هو؟ قال: الكف عما لا يعنيني.

---

(1) رواه الترمذي (2317) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي إلا من هذا الوجه ورواه ابن ماجه (4047) وحسنه النووي وابن عبد البر وقال ابن رجب: الصحيح فيه المرسل وصححه الألباني.

وروى أبو عبيدة عن الحسن قال: من علامة إعراض الله تعالى عن العبد أن يجعل شغله فيما لا يعنيه خذلانًا من الله ﷻ.

وقال سهل بن عبد الله: من تكلم فيما لا يعنيه حُرِمَ الصدق.

وحد الكلام فيما لا يعنيك أن تتكلم بكلام لو سكت عنه لم تأثم ولم تستضر في حال ومال، مثاله أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك وما رأيت فيها من جبال وأنهار وما وقع لك من الوقائع وما استحسنته من الأطعمة والثياب، فهذه أمور لو سَكتَّ عنها لم تأثم ولم تَسْتَضر، إذا بالغت في الجهاد حتى لم تمزج بحكايتك زيادة ولا نقصان ولا تزكية نفس من حيث التفاخر بمشاهدة الأحوال العظيمة ولا اغتياب لشخص ولا مذمة لشيء مما خلقه الله تعالى فأنت مع ذلك كله مضيع زمانك، وأنى تسلم من الآفات التي ذكرناها.

والكلام فيما لا يعني والزيادة فيما يعني على قدر الحاجة نوع فضول، فإن من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره، ومهما تأدى مقصودَه بكلمة واحدة فذكر كلمتين فالثانية فضول، أي فضلٌ عن الحاجة وهو أيضًا مذمومٌ لما سَبق، وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر.

قال عطاء بن أبي رباح: «إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ أو أمرًا بمعروف أو نهيًا عن منكر أو أن تنطقَ بحاجتك في معيشتك التي لابد لك منها،

أتنكرون أن عليكم حافظين كرامًا كاتبين عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، أما يستحي أحدكم إذا نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه».

وفي الأثر: ما أُوتي الرجل شرًا من فضل لسانه.

***

الغيبة

تعريف الغيبة:

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ»؟ قَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ». قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ»[1]. أي: قال عليه ما لم يفعل.

---

(1) رواه مسلم (2589) البر والصلة، ورواه أبي داود (4874) الأدب، والدارمي (2/ 299) قال النووي: تباح الغيبة لغرض شرعي وذلك لستة أسباب:

أحدها: التظلم فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضي وغيرهما ممن له ولاية أو قدرة على إنصافه من ظالمه، فيقول ظلمني فلان أو فعل بي فلان كذا.

الثاني: الاستغاثة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى الصواب فيقول لمن يرجو قدرته فلان يعمل كذا فازجره عنه ونحو ذلك.

الثالث: الاستفتاء بأن يقول للمفتي ظلمني فلان أو أبي أو أخي أو زوجي بكذا فهل له ذلك وما طريقي في الخلاص منه ودفع ظلمه عني ونحو ذلك، فهذا جائز للحاجة والأجود أن يقول في رجل أو زوج أو والد وولد كان من أمره كذا، ومع ذلك فالتعيين جائز لحديث هند وقولها إن أبا سفيان رجل شحيح.

الرابع: تحذير المسلمين من الشر وذلك من وجوه منها: جرح المجروحين من الرواة والشهود والمصنفين وذلك جائز بالإجماع بل واجب صونًا للشريعة، ومنها: الإخبار عند المشاورة في مواصلته، ومنها: إذا رأيت من يشتري شيئًا معيبًا أو عبدًا سارقًا أو زانيًا أو شاربًا أو نحو ذلك تذكره للمشتري إذا لم يعلمه، نصيحة لا بقصد الإيذاء والإفساد، ومنها: إذا رأيت متفقهًا يتردد إلى =

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: 12].

أي لا يتناول بعضكم بعضًا بظهر الغيب بما يسوؤه ثم ضرب الله تعالى للغيبة مثلاً: ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ وبيانه أن ذكرك أخاك الغائب بسوء بمنزلة أكل لحمه وهو ميت ولا يحس بذلك ﴿ فَكَرِهْتُمُوه ﴾ أي فكما كرهتم هذا الأمر فاجتنبوا ذكر إخوانكم بالسوء، وفي ذلك إشارة إلى أن عرض الإنسان كلحمه وهي من الكبائر.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا. قَالَ بعض الرواة: - تَعْنِي قَصِيرَةَ - فَقَالَ: «لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ». قَالَتْ: وَحَكَيْتُ لَهُ

فاسق أو مبتدع يأخذ عنه علمًا وخفت عليه ضرره فعليك نصيحته ببيان حاله قاصدًا النصيحة.

ومنها أن يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها لعدم أهليته أو لفسقه فيذكره لمن له عليه ولاية ليستدل به على حاله فلا يغتر به ويلزم الاستقامة.

الخامس: أن يكون مجاهرًا بفسقه أو بدعته كالخمر، ومصادرة الناس وجباية المكوس وتولي الأمور الباطلة، فيتجوز ذكره بما يجاهر به ولا يجوز بغيره إلا بسبب آخر.

السادس: التعريف فإذا كان معروفًا بلقب كالأعمش والأعرج والأزرق والقصير والأعمى والأقطع ونحوها جاز تعريفه به ويحرم ذكره به تنقصًا ولو أمكن التعريف بغيره كان أولى.

شرح النووي على صحيح مسلم هامش (16/ 142، 143).

إِنْسَانًا فَقَالَ: «مَا أُحِبُّ أَنِّي حَكَيْتُ إِنْسَانًا وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا»[1]. والحديث من أبلغ الزواجر عن الغيبة.

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَعِرْضُهُ وَمَالُهُ»[2].

وعن أبي بكر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يوم النحر بمنىً في حجة الوداع: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ، عليكم كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ أَلا هَلْ بَلَّغْتُ»[3].

قال علي بن الحسين: إياكم والغيبة فإنها إدام كلاب الناس.

فمعنى الغيبة أن تذكر أخاك الغائب بما يكرهه إذا بلغه، سواء كان نقصًا في بدنه أو نسبه أو خلقه أو ثوبه.

وأقبح الغيبة: غيبة المتزهدين المرائين مثل أن يذكر عندهم إنسان فيقولون: الحمد لله الذي لم يبتلينا بالدخول على السلطان والتبذل في طلب الحطام، أو

---

(1) رواه الترمذي (2502) صفة القيامة وقال: هذا حديث حسن صحيح، ورواه أبي داود (4875) الأدب وصححه الألباني.

(2) رواه مسلم (2564) البر والصلة، وأبي داود (4882) الأدب، والترمذي (1927) البر والصلة.

(3) رواه البخاري (1741) الحدود وفي الديات والحج والمغازي والأدب، ورواه مسلم (1679) القسامة.

يقولون: نعوذ بالله من قلة الحياء، أو نسأل الله العافية، فإنهم يجمعون بين ذم المذكور ومدح أنفسهم، وربما قال بعضهم عند ذكر إنسان: ذلك المسكين قد بلي بآفة عظيمة تاب الله علينا وعليه، فهو يظهر الدعاء ويخفي قصده.

واعلم أن المستمع للغيبة شريك فيها، ولا يتخلص من إثم سماعها إلا أن ينكر بلسانه، فإن خاف فبقلبه، وإن قدر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر لزمه ذلك.

الأسباب الباعثة على الغيبة:

(1) تشفي الغيظ بأن يجري من إنسان في حق إنسان آخر سبب يوجب غيظه فكلما هاج غضبه تشفى بغيبة صاحبه.

(2) من البواعث على الغيبة موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم، فإنهم إذا كانوا يتفكهون في الأعراض رأى هذا أنه إذا أنكر عليهم أو قطع كلامهم استثقلوه ونفروا منه، فيساعدهم ويرى ذلك من حسن الصحبة.

(3) إرادة رفع نفسه بتنقيص غيره فيقول: فلان جاهل وفهمه ركيك ونحو ذلك وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه ويريهم أنه أعلم منه، وكذلك الحسد في ثناء الناس على شخص وحبهم له وإكرامهم فيقدح فيه ليقصد زوال ذلك.

(4) اللعب والهزل فيذكر غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة حتى إن بعض الناس يكون كسبه من هذا.

علاج الغيبة:

فليعلم المغتاب أنه بالغيبة متعرض لسخط الله تعالى ومقته وأن حسناته تنتقل إلى من اغتابه، وإن لم يكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه، فمن استحضر ذلك لم يطلق لسانه بالغيبة.

وينبغي إذا عرضت له الغيبة أن يتفكر في عيوب نفسه ويشتغل بإصلاحها ويستحي أن يَعيب وهو مَعيب كما قال بعضهم:

فإِن عِبْتَ قومًا بالذي فِيكَ مثلُهُ ... فكيفَ يعيبُ الناسَ مَنْ هوَ أعْوَرُ

وَإِنْ عِبْتَ قَوْمًا بالَّذِي لَيْسَ فِيهِمُ ... فَذَلِكَ عِنْدَ اللهِ وَالنَّاسِ أَكْبَرُ

فلينظر في السبب الباعث على الغيبة فيجتهد في قطعه فإن علاج العلة يكون بقطع سببها.

كفارة الغيبة:

اعلم أن المغتاب قد جنى جنايتين:

أحدهما: حق الله تعالى إذ فعل ما نهاه عنه فكفارة ذلك التوبة والندم.

والجناية الثانية: على عرض المخلوق، فإن كانت الغيبة قد بلغت الرجل جاء إليه فاستحله وأظهر له الندم على فعله.

وإن كانت الغيبة لم تبلغ الرجل جعل مكان استحلاله الاستغفار له والثناء عليه بما فيه من خير أمام من اغتابه أمامهم لإصلاح قلوبهم.

النميمة

قال الله تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: 11]. قال أهل التفسير: نزلت في الوليد بن المغيرة وقال تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسد: 4]. قيل: إنها نمامة حمالة للحديث.

حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ هَمَّامٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ حُذَيْفَةَ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ رَجُلًا يَرْفَعُ الْحَدِيثَ إِلَى عُثْمَانَ، فَقَالَ لَهُ حُذَيْفَةُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ»[1].

حَدَّثَنَا ابْنُ سَلامٍ: أَخْبَرَنَا عَبِيدَةُ بْنُ حُمَيْدٍ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ بَعْضِ حِيطَانِ الْمَدِينَةِ، فَسَمِعَ صَوْتَ إِنْسَانَيْنِ يُعَذَّبَانِ فِي قُبُورِهِمَا، فَقَالَ: «يُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، وَإِنَّهُ لَكَبِيرٌ، كَانَ أَحَدُهُمَا لا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَكَانَ الآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ». ثُمَّ دَعَا بِجَرِيدَةٍ فَكَسَرَهَا بِكِسْرَتَيْنِ أَوْ ثِنْتَيْنِ، فَجَعَلَ كِسْرَةً فِي قَبْرِ هَذَا، وَكِسْرَةً فِي قَبْرِ هَذَا فَقَالَ: «لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا»[2].

---

(1) رواه البخاري (6056) الأدب، ومسلم (105) الإيمان، والترمذي (2026) البر والصلة، وأبي داود (4871) الأدب.

(2) رواه البخاري (6055) الأدب، ومسلم (292) الطهارة، والترمذي (70) الطهارة، وأبي داود: الطهارة، والنسائي: الطهارة.

وقال ﷺ: «أَلا أُخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ»؟ قالوا: بلى. قال: «الْمَشَّاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ المفرقون بَيْنَ الأَحِبَّةِ، الْبَاغُونَ لِلْبُرَآءِ الْعَنَتَ»(1).

وعن ابن مسعود ﷺ قال: إن محمد ﷺ قال: «أَلا أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ»(2).

معنى النميمة: نقل الكلام بين الناس لقصد الإفساد وإيقاع العداوة والبغضاء، فالنمّ خلق ذميم لأنه باعث للفتن وقاطع للصلات وزارع للحقد ومفرق للجماعات، يجعل الصديقين عدوين والأخوين أجنبيين، فالنمام يصير كالذباب ينقل الجراثيم، والنميمة اسم يطلق على من ينم قول الغير إلى المقول فيه، كما تقول فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا وليست النميمة مختصة به بل حدها كشف ما يكره كشفه سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو كرهه ثالث، وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتاب أو بالرمز أو بالإيماء، فكل ما رآه الإنسان

---

(1) رواه أحمد (6/ 459)، (4/ 227) من حديث أبي مالك الأشعري، والبيهقي في شعب الإيمان، وهو في مشكاة المصابيح (4871)، والعنت أي العيب.

قال الهثمي: فيه شهر بن حوشب وقد وثقه غير واحد وبقية رجال أحد أسانيده رجاله الصحيح (مجمع الزوائد 8/ 93).

(2) رواه مسلم (2606) البر والصلة، والدارمي (2/ 300)، وأحمد (1/ 437) قال ابن الأثير: العَضْهُ والعضيهةُ البهتان والكذب الذي لا حقيقة له، والقالة: كثرة القول وإيقاع الخصومة بين الناس.

من أحوال الناس مما يكره فينبغي أن يسكت عنه إلا ما في حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية.

والباعث على النميمة إما إرادة السوء للمحكي عنه، أو إظهار الحب للمحكي له، أو التفرج بالحديث والخوض في الفضول والباطل.

ومن نقلت إليه النميمة عليه ستة أمور:

(1) ألاَّ يصدق النمام لأن النمام فاسق، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ ﴾[الحجرات: 6].

(2) ينهاه عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعله.

(3) يبغضه في الله فإنه بغيض عند الله.

(4) لا تظن بأخيك الغائب سوءًا لقوله تعالى: ﴿ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ ﴾[الحجرات: 12].

(5) لا يحملك ما حكي لك على التجسس والبحث للتحقق منه لقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾[الحجرات: 12].

(6) لا ترضَ لنفسك ما نهيت النمام عنه، ولا تَحْكِ نميمته فتكون نمامًا ومغتابًا، فليتق الله ذوو الألسنة الحداد، ولا ينطقوا إلا بما فيه الخير لخلق الله، ويكفيهم في هذا قول النبي ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»[1].

---

(1) رواه البخاري (6018) الأدب ومسلم (47) الإيمان.

الآثـار:

قال الحسن: من نم إليك نم عليك.

قال رجل لعمرو بن عبيد: إن الأسواري ما يزال يذكرك في قَصصهِ بِشَرٍّ. فقال له عمرو: يا هذا، ما راعيت حق مجالسة الرجل حيث نقلت إلينا حديثه، ولا أديت حَقِّي حين أعلمتني عن أخي ما أكره ولكن أعلمه:

أن الموتَ يَعُمُّنا، والقبر يَضُمُّنَا، والقيامة تجمعنا، والله تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين.

ويروى أن سليمان بن عبد الملك كان جالسًا وعنده الزهري فجاءه رجل فقال له سليمان: بلغني أنك وقعت فيَّ، وقلت كذا وكذا. فقال الرجل: ما فعلت ولا قلت. فقال سليمان: إن الذي أخبرني صادق، فقال له الزهري: لا يكون النمام صادقًا. فقال سليمان: صدقت ثم قال للرجل: اذهب بسلام.

وقال بعضهم: لو صح ما نقله النمام إليك، لكان هو المجترئ بالشتم عليك، والمنقول عنه أولى بحلمك، لأنه لم يقابلك بشتمك.

ويروى أن عمر بن عبد العزيز دخل عليه رجل فذكر عنده وشاية في رجل آخر فقال عمر: إن شئت حققنا هذا الأمر الذي تقول فيه وننظر فيما نسبته إليه. فإن كنت كاذبًا فأنت من أهل هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ [الحجرات: 6]، وإن كنت صادقًا فأنت من أهل هذه الآية: ﴿ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ﴾ [القلم: 11]، وإن شئت عفونا عنك، فقال: العَفْوَ يا أمير المؤمنين لا أعود إليه أبدًا.

المدح

وله أخطار منها: يتعلق بالمادح ومنها ما يتعلق بالممدوح.

فأما آفات المادح فقد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل للاطلاع عليه مثل أن يقول: ورع وزاهد، وقد يفرط في المدح فينتهي إلى الكذب، وقد يمدح من ينبغي أن يذم.

وأما الممدوح فإنه قد يحدث فيه كبرًا وإعجابًا وهما مهلكان، ولهذا قال النبي ﷺ لما سمع رجلًا يمدح رجلًا: «وَيْحَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ»[1]. وقد يظن الممدوح أنه وصل إلى المقصود فتتقاصر همته ويقل جهده ويفتر عن العمل، ولا ينجو من هذه الآفات إلا بأن يعرف نفسه ويتفكر في أن المادح لو عرف منه ما يعرف من نفسه ما مدحه، وكان عَلِيّ رضي الله عنه إذا أُثنِيّ عليه يقول: «اللهم اغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني خيرًا مما يظنون».

وفي الحديث: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ نَحْثِيَ فِي وُجُوهِ المَدَّاحِينَ التُّرَابَ»[2].

---

(1) رواه البخاري (6061) الأدب، ومسلم (3000) الزهد، وأبي داود (4805) الأدب.

(2) رواه مسلم (3002) الزهد، وأبي داود (4804) الأدب، والترمذي (2393) الزهد.

قال ابن الأثير: المداحون: هم الذين اتخذوا مدح الناس عادة وجعلوه بضاعة، يتأكلون به من الممدوح، فأما من مدح على الفعل الحسن والأمر المحمود ترغيبًا في أمثاله وتحريضًا للناس على الاقتداء به في أشباهه فليس بِمَدَّاحٍ، وإن كان قد صار مادحًا بما تكلم به من جميل القول.

فضول النظر[1]

فضول النظر هو إطلاقه بالنظر إلى الشيء بملء العين، والنظر إلى ما لا يحل له، وهو على العكس من غض البصر، والغض هو النقص، وقد أمر الله به فقال: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ [النور: 30، 31].

والله ﷻ لا يأمر بصرف كل النظر، وإنما يأمر بصرف بعضه، قال تعالى: ﴿ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ ﴾ ولما كان تحريم فضول النظر من تحريم الوسائل فيباح للمصلحة الراجحة ويحرم إذا خيف منه الفساد ولم تعارضه مصلحة أرجح من تلك المفسدة، ولم يأمر الله ﷻ بغضه مطلقًا بل أمر بالغض منه، وأما حفظ الفرج فواجب بكل حال لا يباح إلا بحقه فلذلك أمر بحفظه.

وقد أمر الله ﷻ بغض البصر وصيانة الفرج وقرن بينهما في معرض الأمر، وبدأ بالأمر بالغض لأن العين رائد للقلب كما قيل:

أَلَمْ تَـرَ أَنَّ العَـيْنَ لِلْقَلْـبِ رَائِـدٌ   فَمَا تألفُ العينانِ فَالقَلْـبُ آلِـفٌ

ولأن غض البصر وسيلة إلى حفظ الفرج وصيانته، وهو الباب الأكبر إلى القلب، وأعمر طرق الحواس إليه وبحسب ذلك كثُرَ السقوطُ من جهته ووجب التحذير منه.

---

(1) الجواب الكافي - إغاثة اللهفان.

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: «كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنْ الزِّنَا مُدْرِكٌ ذَلِكَ لا مَحَالَةَ؛ فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الاسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الخُطَى، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ»[1].

وعن جرير ﷺ قال: سألت رسول الله ﷺ عَنْ نَظْرِ الْفَجْأَةِ فَقَالَ: «اصْرِفْ بَصَرَكَ»[2].

الآفة الأولى: فضول النظر معصية ومخالفة لأمر الله ﷻ وليس للعبد في دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامر ربه تبارك وتعالى وما سعد من سعد إلا بامتثال أوامره، وما شقي من شقي إلا بتضييع أوامره.

---

(1) رواه البخاري (6243) الاستئذان، مسلم (2657) القدر، وأبي داود (2152) النكاح، وأحمد (2/ 276).

(2) رواه مسلم (2159) الأدب، والترمذي (2776) الأدب، والدارمي (2/ 278) الاستئذان، وأحمد (4/ 358، 361).

قال النووي: ومعنى نظر الفجأة أن يقع بصره على الأجنبية من غير قصد فلا إثم عليه في أول ذلك، ويجب عليه أن يصرف بصره في الحال، فإن صرفه في الحال فلا إثم عليه، وإن استدام النظر أثم لهذا الحديث، فإن رسول الله ﷺ أمره بصرف بصره مع قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ شرح النووي على صحيح مسلم (14/ 139).

الآفة الثانية: أنه يفرق القلب ويشتته ويبعده عن الله وليس على العبد شيء أضر منه فإنه يوقع الوحشة بين العبد وربه، وغض البصر يورِّث القلب أنسًا بالله وجمعه عليه.

الآفة الثالثة: أنه يكسب القلب ظُلْمة وإذا أظلم القلب أقبلت عليه سحائب البلاء والشر من كل مكان، فما شئت من بدعة وضلالة واتباع هوى واجتناب هدى وإعراض عن أسباب السعادة واشتغال بأسباب الشقاوة، فإن ذلك إنما يكشفه النور الذي في القلب فإذا فقد ذلك النور بقي صاحبه كالأعمى الذي يجوس في حنادس الظلام، وغض البصر لله عز وجل يكسب القلب نورًا وإشراقًا يظهر في العين وفي الوجه وفي الجوارح ولهذا ذكر الله عز وجل آية النور عَقِبَ الأمر بغض البصر فقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: 30، 31]. ثم قال إِثْر ذلك: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ [النور: 35]. أي مثل نوره في قلب عبده المؤمن الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه، وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل جانب.

الآفة الخامسة: فضول النظر يقسي القلب ويسد على العبد باب العلم، وغض البصر يفتح للعبد باب العلم ويسهل عليه أسبابه وذلك بسبب نور القلب، فإنه إذا استنار ظهرت فيه حقائق الأشياء.

الآفة السادسة: أنه يسمح بدخول الشيطان إلى القلب فإنه يدخل مع النظرة وينفذ معها إلى القلب أسرع من نفوذ الهواء في المكان الخالي فيُمثِّل له صورة

المنظور إليه ويزينها ويجعلها صنمًا يعكف عليه القلب، ثم يمنيه ويوقد على القلب نار الشهوة ويلقي عليه حطب المعاصي التي لم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة، فيصير القلب في اللهب قد أحاطت به النيران من كل جانب، فهو وسطها كالشاة وسط التنور، ولهذا كانت عقوبة أصحاب الشهوات بالصور المحرمة أنه جعل لهم في البرزخ تنورًا من نار، وأودعت أرواحهم فيه إلى حشر أجسادهم، وغض البصر يسد على الشيطان مدخله إلى القلب.

الآفة السابعة: إن إطلاق البصر يوقع العبد في الغفلة واتباع الهوى، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: 28]. وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة بحسبه، وغضه لله عز وجل يفرغ القلب للتفكر في مصالحه والاشتغال بها.

الآفة الثامنة: إن النظرة تفعل في القلب ما يفعل السهم في الرمية، فإن لم تقتله جرحته، وهي الشرارة من النار ترمى في الحشيش اليابس فإن لم تحرقه كله أحرقت بعضه كما قيل:

كُلُّ الحَوادثِ مَبْدَاها مِنَ النَّظَرِ ... وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ
كَمْ نَظْرَةٍ فَعَلَتَ فِي قَلْبِ صَاحِبِها ... فِعْلَ السِّهَامِ بِلاَ قَوْسٍ وَلاَ وَتَرِ
والمَرءُ مَا دَامَ ذا عينٍ يُقلِّبُهَا ... فِي أعينِ النَّاسِ مَوقُوفٌ عَلَى خَطَرِ
يَسُرُّ مُقْلَتَهُ مَا ضَرَّ مُهْجَتَهُ ... لاَ مَرْحَبًا بسُرُورٍ عَادَ بالضررِ

والناظر يرمى بسهام غرض[...] ـبه وهو لا يشعر، إنما يرمى قلبه.

يَـا راميًـا بِسـهَام [...] ـحظِ مُجْتَهِـدًا ... أنتَ القتيلُ بمَا تَرْمِـي فَـلا تُصِـبِ

وَبَاعِدُ [...] ـرفِ يَرتـادُ الشـفاءَ لـه ... طَوِّقْـهُ إنـهُ يأتيـكَ بالعطـب

الآفة التاسعة: فضول النظر وإطلاق البصر يورث الحسرات والزفرات والحرقات فيرى العبد ما ليس قادرًا عليه ولا صابرًا عنه كما يقول القائل:

وكنتَ متى أرسلتَ طرفك رائدًا ... لقلبِـكَ يومًـا أتعبتـكَ المنـاظرُ

رأيـتَ الـذي لا كلَّـه أنـت قـادرٌ ... عليهِ ولا عـن بعضـهِ أنـتَ صـابرُ

الآفة العاشرة: إن النظرة تجرح القلب جرحًا فيُتْبِعُهَا جرح على جرح ثم لا يمنعه ألم الجراحة من استدعاء تكرارها، كما يقول القائل:

مـا زلـت تُتْبـعُ نظـرةً في نظـرةٍ ... فِي إثْـرِ كـل مليحـةٍ ومليـحِ

وتظنُّ ذاكَ دواءَ جُرحِـكَ وَهْـوَ فِي ... التحقيـقِ تجـريحٌ عـلَى تجـريحِ

فذبحتَ طرفَكَ باللحاظ وبالبكـا ... فالقلـبُ منـكَ ذبيـحٌ أيُّ ذبيـحِ

الآفة الحادية عشرة: إطلاق البصر يذهب نور البصيرة والجزاء من جنس العمل، وغض البصر يسبب إطلاق نور البصيرة ويورث العبد الفراسة كما قال شاه بن شجاع الكرماني: «من عَمَّرَ ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم، وكف نفسه عن الشهوات، واعتاد الحلال لم تخطئ فراسته». وكان شاه هذا لا تخطئ له فراسة.

الآفة الثانية عشرة: فضول النظر يوقع القلب في ذل اتباع الهوى وضعف القلب ومهانة النفس وحقارتها، وما جعله الله لمن آثر هواه على رضاه، وقد جعل الله سبحانه العز قرين طاعته والذل قرين معصيته فقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر: 10]. أي من كان يريد العزة فليطلبها بطاعة الله وذكره من الكلم الطيب والعمل الصالح، فمن أطاع الله فقد والاه وله من العزة بحسب طاعته، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه وله من الذل بحسب معصيته.

الآفة الثالثة عشرة: فضول النظر يوقع القلب في أسر الشهوة، فإن الأسير هو أسير شهوته وهواه فهو كما قيل: «طليقٌ برأي العين وهو أسير».

ومتى أسرت الشهوة والهوى القلب تمكن منه عدوه وسامه سوءَ العذاب وصار:

كعصفورة في كفِّ طفلٍ يسومُها ... ضَ الرَّدَي والطفلُ يَلْهُو وَيَلْعَبُ

الآفة الرابعة عشرة: فضول النظر يوجب استحكام الغفلة عن الله والدار الآخرة ويوقع في سكرة العشق كما قال تعالى عن عشاق الصور: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر: 72]. فوصفهم بالسكرة التي هي فساد العقل والعمه الذي هو فساد نور البصيرة، فالنظر كأس من خمر والعشق هو سكر ذلك الخمر، وسكران العشق قلما يفيق إلا وهو في عسكر الأموات نادمًا بين الخاسرين.

فضول المخالطة[1]

فضول المخالطة هو الداء العضال الجالب لكل شر، وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة، وكم زرعت من عداوة، وكم غرست في القلب من حزازات تزول الجبال الراسيات وهي في القلوب لا تزول، ففي فضول المخالطة خسارة الدنيا والآخرة، وما تؤثره كثرة المخالطة امتلاء القلب من دخان أنفاس بني آدم حتى يسود، ويوجب له تشتتًا وتفرقًا وهَمًّا وغَمًّا وضعفًا وحملًا لما يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء وإضاعة مصالحه والاشتغال عنها بهم وبأمورهم وتقسم فكره في أودية مطالبهم وإراداتهم فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة، هذا وكم أنزلت خلطة الناس من محنة، وعطلت من منحة، وأحلت من رزية، وأوقعت من بلية! وهل آفة الناس إلا الناس؟!، وهل كان على عم النبي ﷺ أبي طالب عند وفاته أضرَّ من قرناء السوء؟ لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة تُوجب له سعادة الأبد.

وهذه الخلطة التي تكون على نوع مودة في الدنيا وقضاء وطر بعضهم من بعض تنقلب إذا حقت الحقائق عداوة، ويعض المخلط على يديه ندمًا كما قال تعالى:

---

(1) انظر: تفسير المعوذتين لابن القيم - إحياء علوم الدين للغزالي - وتلبيس إبليس لابن الجوزي.

يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴾ [الفرقان: 27، 29].

وقال تعالى: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: 67].

وقال خليله إبراهيم لقومه: ﴿ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: 25]

وهذا شأن كل مشتركين في غرض يتوادون عليه ما داموا متساعدين على حصوله، فإذا انقطع ذلك الغرض أعقب ندامة وحزنًا وألمًا وانقلبت تلك المودة بغضًا ولعنة وذمًا من بعضهم لبعض لما انقلب ذلك الغرض حزنًا، كما نشاهد في هذه الدار من أحوال المشتركين في جريمة إذا أُخذوا وعُوقبوا، فكل متساعدين على باطل متوادين عليه لابد أن تنقلب مودتهما بغضًا وعداوة، والضابط النافع في أمر الخلطة أن يخالط الناس في الخير كالجمعة والجماعة والأعياد والحج وتعلم العلم والجهاد والنصيحة، ويعتزلهم في الشر وفضول المباحات، فإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في الشر ولم يتمكن من اعتزالهم فالحذر الحذر أن يوافقهم، وليصبر على أذاهم فإنهم لابد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر، ولكن أذى يعقبه عز ومحبة له وتعظيم وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين، وموافقتهم يعقبها بغض له ومقت وذم منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين.

فالصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة وأحمد مآلًا ، وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في فضول المباحات فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله إن أمكنه ، ويشجع نفسه ويقوي قلبه ولا يلتفت إلى الوارد الشيطاني القاطع له عن ذلك بأن هذا رياء ومحبة لإظهار علمك وحالك ونحو ذلك ، فيستعن بالله ويؤثر فيهم من الخير ما أمكنه ، فإن أعجزته المقادير عن ذلك فليسلَّ قلبه من بينهم كسلِّ الشعرة من العجين ، وليكن فيهم حاضرًا غائبًا ، قريبًا بعيدًا ، نائمًا يقظانًا ، ينظر إليهم ولا يبصرهم يسمع كلامهم ولا يعيه ، لأنه قد أخذ قلبه من بينهم ورقى به إلى الملأ الأعلى يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية ، وما أصعب هذا وأشقه على النفوس وإنه ليسير على من يسره الله عليه ، فبين العبد وبينه أن يصدقَ الله تبارك وتعالى ويديم اللجوء إليه بالقلب واللسان وتجنب المفسدات ، وينبغي له أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة ، ويجعل الناس فيها أربعة أقسام متى خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يميز بينها دخل عليه الشر.

أحدهما : من مخالطتُه كالغذاء لا يستغنى عنه في اليوم والليلة فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة ثم إذا احتاج إليه خالطه هكذا على الدوام ، وهذا الضرب أعز من الكبريت الأحمر ، وهم العلماء بالله وأمره ومكايد عدوه وأمراض القلوب وأدويتها الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ﷺ ولخلقه ، فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كل الربح.

القسم الثاني: مَنْ مخالطتُه كالدواء يحتاج إليه عند المرض فما دمت صحيحًا فلا حاجة لك في خلطته، وهم من لا يستغنى عن مخالطتهم في مصلحة المعاش وقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها، فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم من القسم الثالث.

القسم الثالث: وهم مخالطتهم كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه، فمنهم من مخالطته كالداء العضال والمرض المزمن وهو من لا تربح عليه في دين ولا دنيا ومع ذلك فلابد أن تخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما، فهذا إن تمكنت منك مخالطته واتصلت فهي مرض الموت المخوف، ومنهم من مخالطته كوجع الضرس يشتد ضربه عليك فإذا فارقك سكن الألم، ومنهم من مخالطته حمى الروح وهو الثقيل البغيض العقل الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك، ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها، بل إن تكلم فكلامه كالعصي تنزل على قلوب السامعين مع إعجابه بكلامه وفرحه به، وإن سكت فأثقل من نصف الرحا العظيمة التي لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض، وبالجملة فمخالطة كل مخالف حمى للروح عرضية ولازمة. ومن نكد الدنيا على العبد أن يبتلى بواحد من هذا الضرب وليس له بد من معاشرته ومخالطته، فليعاشره بالمعروف حتى يجعل الله له من أمره فرجًا ومخرجًا.

القسم الرابع: من مخالطته الهلك «لغة في الهلاك» فمخالطته بمنزلة أكل السم فإن تَيسر لآكله ترياق وإلا فأحسن الله إليه العزاء؛ وما أكثر هذا الضرب من الناس

لا كثَّرَهُمُ الله، وهم أهل البدع والضلالة الصادون عن سنة الرسول ﷺ الداعون إلى خلافها، الذين يصُدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا فيجعلون البدعة سنة والسنة بدعة والمعروف منكرًا والمنكر معروفًا.

إن جردت التوحيد بينهم قالوا: تنقصت جناب الأولياء والصالحين، وإن جردت المتابعة لرسول الله ﷺ قالوا: أهدرت الأئمة المتبوعين، وإن وصفت الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير غلو ولا تقصير قالوا: أنت من المشبهين، وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله من المنكر قالوا: أنت من المفتنين، وإن اتبعت السنة وتركت ما خالفها قالوا: أنت من أهل البدع المضلين.

فهذا الضرب لا ينبغي للعاقل أن يجالسهم، وإن فعل فإما الموت لقلبه أو المرض نسأل الله لنا ولهم العافية.

الآثار:

عن عبد الرزاق عن معمر قال: كان طاووس جالسًا وعنده ابنه فجاء رجل من المعتزلة فتكلم في شيء فأدخل طاووس أصبعيه في أذنيه وقال: يا بني، أدخل أصبعيك في أذنيك حتى لا تسمع من قوله شيئًا فإن القلب ضعيف، ثم قال: أي بني أسدد فما زال يقول: أسدد حتى قام الآخر.

وعن صالح المرِّي قال: دخل رجل على ابن سيرين وأنا شاهد ففتح بابًا من أبواب القدر فتكلم فيه، فقال ابن سيرين: إما أن تقوم وإما أن نقوم.

فضول الطعام[1]

اعلم أنه من أعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن فبها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار إلى دار الذل والافتقار؛ إذ نهيا عن الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتى أكلا منها فبدت لهما سوآتهما، والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات ومنبت الأدواء والآفات، إذ يتبعه شهوة الفرج ثم تتبع شهوة الطعام والنكاح شدة الرغبة في الجاه والمال اللذَيْن هما وسيلتان إلى التوسع في المطعومات، ثم يتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات، وكل ذلك ثمرة إهمال المعدة، وما يتولد منها من بطر الشبع والامتلاء، ولو ذلل العبد نفسه بالجوع وضيق مجاري الشيطان لأذعنت لطاعة الله عز وجل ولم تسلك سبيل البطر والطغيان، عن المقدام بن معد يكرب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ لُقَيمات يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لا مَحَالَةَ؛ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ»[2].

وهذا الحديث أصل جامع لأصول الطب كلها وقد روي أن ابن أبي ماسويه الطبيب لما قرأ هذا الحديث في كتاب أبي خيثمة قال: لو استعمل الناس هذه

---

(1) انظر: إحياء علوم الدين - وتفسير المعوذتين لابن القيم - وجامع العلوم والحكم لابن رجب.

(2) رواه الترمذي (2380) الزهد. وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه (3349) الأطعمة، والحاكم (4/ 121) وصححه ووافقه الذهبي والألباني.

الكلمات لسلموا من الأمراض والأسقام ولتعطلت الماشفيات ودكاكين الصيادلة، وإنما قال هذا لأن أصل كل داء التخم، فهذا من منافع قلة الغذاء وترك التملؤ من الطعام بالنسبة إلى صلاح البدن وصحته، وأما منافعه بالنسبة إلى القلب وصلاحه فإن قلة الغذاء توجب رقة القلب وقوة الفهم وانكسار النفس وضعف الهوى والغضب، وكثرة الغذاء توجب ضد ذلك، وقد ندب النبي ﷺ إلى التقلل من الأكل في حديث المقدام وقال: «بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ لُقَيمات يُقِمْنَ صُلْبَهُ»[1]. وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ»[2]. والمراد أن المؤمن يأكل بآداب الشرع فيأكل في معي واحد والكافر يأكل بمقتضى الشهوة والشره، والنهم فيأكل في سبعة أمعاء، وندب ﷺ مع التقلل من الأكل والاكتفاء ببعض الطعام إلى الإيثار بالباقي منه فقال: «طَعَامُ الوَاحد يَكْفِي الاثنَين، وطَعَامُ الاثْنَيْنِ يَكفِي الثَّلاثَةِ، وَطَعَامُ الثَّلاثَةِ يكفي الأَرْبَعَةِ»[3]. فأحسن ما أكل المؤمن في ثلث بطنه وشرب في ثلث وترك للنفس ثلثًا كما ذكره النبي .

قال بعض السلف: كان شباب يتعبدون في بني إسرائيل فإذا كان فطرهم قام عليهم قائم فقال: لا تأكلوا كثيرًا فتشربوا كثيرًا فتخسروا كثيرًا. وقد كان النبي ﷺ

---

(1) السابق.

(2) رواه البخار (5393،5934) الأطعمة ومسلم (2061) الأشربة.

(3) رواه البخاري (5392) الأطعمة، ومسلم (2059) الأشربة، ومالك (2/ 928/ 20) صفة النبي ﷺ.

وأصحابه يجوعون كثيرًا، وإن كان ذلك لعدم وجود الطعام إلا أن الله لا يختار لرسوله إلا أكمل الأحوال وأفضلها، ولهذا كان ابن عمر يتشبه به في ذلك مع قدرته على الطعام وكذلك أبوه من قبله.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ، مُنْذُ قَدِمَ الْمَدِينَةَ، مِنْ طَعَامِ بُرٍّ ثَلاثَ لَيَالٍ تِبَاعًا، حَتَّى قُبِضَ»(1).

قال إبراهيم بن أدهم: من ضبط بطنه ضبط دينه، ومن ملك جوعه ملك الأخلاق الصالحة، وإن معصية الله بعيدة من الجائع قريبة من الشبعان.

ومن أكبر فوائد الجوع كسر شهوات المعاصي كلها، والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء، فإن منشأ المعاصي كلها الشهوات والقوى، ومادة القوى والشهوات لا محالة الأطعمة فتقليلها يضعف كل شهوة وقوة، وإنما السعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه والشقاوة في أن تملكه نفسه، وكما أنك لا تملك الدابة الجَمُوح إلا بضعف الجوع، فإذا شبعت قويت وشردت وجمحت فكذلك النفس.

ويروى عن لقمان أنه قال لابنه: يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة.

ومن فوائد الجوع كذلك أنه يورث الانكسار والذل وزوال البطر والفرح

---

(1) رواه البخاري (5416)، الأطعمة، وأحمد (2/ 244).

والأشر الذي هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله تعالى ، فلا تنكسر النفس ولا تذل بشيء كما تذل بالجوع ، فعنده تسكن لربها وتخشع له وتقف على عجزها وذلها ، إذا ضاقت حيلتها بلقيمة طعام فاتتها ، وأظلمت عليها الدنيا لشربة ماء تأخرت عنها.

وما لم يشاهد الإنسان ذل نفسه وعجزه لا يرى عزة مولاه ولا قهره ، وإنما سعادته في أن يكون دائمًا مشاهدًا نفسه بعين الذل والعجز ، ومولاه بعين العز والقدرة والقهر ، فليكن دائمًا جائعًا مضطرًا إلى مولاه.

وعى الجملة لا سبيل إلى إهمال النفس في الشهوات المباحة واتباعها بكل حال ، فبقدر ما يستوفي العبد من شهوته يُخشى أن يقال له يوم القيامة أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ، وبقدر ما يجاهد نفسه ويترك شهوته يتمتع في الدار الآخرة.

***

فضول النوم[1]

فضول النوم وكثرته تميت القلب وتثقل البدن وتضيع الوقت وتورث كثرة الغفلة والكسل، ومنه المكروه جدًا، ومنه الضار غير النافع للبدن، وأنفع النوم ما كان عند شدة الحاجة إليه، ونوم أول الليل أنفع من آخره، ونوم وسط النهار أنفع من طرفيه، وكلما قرب النوم من الطرفين قل نفعه وكثر ضرره ولاسيما نوم العصر والنوم أول النهار إلا لسهران، ومن المكروه النوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس، فإنه وقت غنيمة وللسير ذلك الوقت عند السالكين مزية عظيمة حتى لو ساروا طول ليلتهم لم يسمحوا بالقعود عن السير ذلك الوقت حتى تطلع الشمس، فإنه أول النهار ومفتاحه ووقت نزول الأرزاق وحصول القسمة وحلول البركة ومنه ينشأ النهار وينسحب حكم جميعه على حكم تلك الحصة فينبغي أن يكون نومها كنوم المضطر.

وبالجملة فأعدل النوم وأنفعه نوم نصف الليل الأول وسدسه الأخير وهو مقدار ثماني ساعات، وهذا أعدل النوم عند الأطباء وما زاد عليه أو نقص منه أثَّر عندهم في الطبيعة انحرافًا جسيمًا.

ومن النوم الذي لا ينفع أيضًا: النوم أول الليل عقب غروب الشمس، وكان رسول الله ﷺ يكرهه فهو مكروه شرعًا وطَبْعًا.

---

(١) انظر: مدارج السالكين لابن القيم.

وفي كثرة النوم ضياع العمر ، وفوت التهجد وبلادة الطبع وقساوة القلب ، والعمر أنفس الجواهر وهو رأس مال العبد فيه يتجر والنوم موت فتكثيره ينقص العمر ، ثم فضيلة التهجد لا تخفى ، وفي النوم فواتها ، ومهما غلب النوم فإن تهجد لم يجد حلاوة العبادة.

وكما أن كثرة النوم مورثة لهذه الآفات فمدافعته وهجره مورث لآفات أخرى عظام من سوء المزاج ويبسه وانحراف النفس وجفاف الرطوبات المعينة على الفهم والعمل ، ويورث أمراضًا مختلفة لا ينتفع صاحبها بقلبه ولا ببدنه معها ، وما قام الوجود إلا بالعدل ، فمن اعتصم به فقد أخذ بحظه من مجامع الخير والله المستعان.

***

(8) أسباب حياة القلب وأغذيته النافعة

اعلم أن الطاعات لازمة لحياة القلب لزوم الطعام والشراب لحياة الجسد، والمعاصي بمثابة الأطعمة المسمومة التي تفسد القلب ولابد، وكما يأخذ العبد بالأسباب لحياة جسده من المداومة على تناول الأغذية النافعة في أوقات متقاربة وإذا تبين له أنه تناول طعامًا مسمومًا عن طريق الخطأ أسرع في تخليص جسده من الأخلاط الرديئة والسموم الضارة؛ فحياة قلب العبد أولى بالاهتمام من حياة الجسد، فإذا كانت حياة الجسد تؤهله لمعيشة غير منغصة بالمرض في الدنيا فحياة القلب تؤهله لمعيشة طيبة طاهرة في الدنيا وسعادة غير متناهية في الآخرة، كذلك موت الجسد يقطع العبد عن الدنيا وموت القلب يقطع عن الدنيا والآخرة وتبقى آلامه أبد الآباد.

قال بعض الصالحين: يا عجبًا من الناس يبكون على من مات جسده ولا يبكون على من مات قلبه وهو أشد.

فإذن الطاعات كلها لازمة لحياة القلب، ونخص بتفصيل الذكر هنا إن شاء الله تعالى خمسة لضروريتها لقلب العبد وشدة الحاجة إليها وهي، ذكر الله ﷻ وتلاوة القرآن، والاستغفار، والدعاء، والصلاة على النبي ﷺ، وقيام الليل.

***

ذكر الله عز وجل وتلاوة القرآن[1]

الذكر هو المنزلة الكبرى التي منها يتزود العارفون، وفيها يتجرون وإليها دائمًا يترددون، وهو منشور الولاية الذي أعطيه اتصل ومن منعه عزل، وهو قوت قلوب العارفين التي متى فارقتها صارت الأجساد لها قبورًا، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بورًا، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الطريق ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب، والسبب الواصل والعلاقة التي كانت بينهم وبين علام الغيوب.

به يستدفعون الآفات ويستكشفون الكربات وتهون عليهم به المصيبات، إذا أَظَلَّهم البلاء فإليه ملجؤهم، وإذا نزلت بهم النوازل فإليه مفزعهم، فهو رياض جنتهم التي فيها يتقلبون، ورؤس أموال سعادتهم التي بها يتجرون، يدع القلب الحزين ضاحكًا مسرورًا، ويوصل الذاكر إلى المذكور بل يدع الذاكر مذكورًا، وفي كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة (والذكر) عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة، بل هم يؤمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، فكما أن الجنة قيعان وهو غراسها، فكذلك القلوب بور خراب وهو عمارتها وأساسها.

---

(١) انظر: مدارج السالكين لابن القيم، والوابل الصيب له، كذلك التبيان في آداب حملة القرآن للنووي.

وهو جلاء القلوب وصقالتها ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقًا ازداد محبة إلى لقائه للمذكور واشتياقًا، وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شيء، وكان له عوضًا عن كل شيء، به يزول الوقر عن الأسماع والبكم عن الألسنة وتتقشع الظلمة عن الأبصار.

زين الله به ألسنة الذاكرين كما زين بالنور أبصار الناظرين، فاللسان الغافل كالعين العمياء والأذن الصماء واليد الشلاء.

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته.

قال الحسن البصري: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة وفي الذكر وقراءة القرآن، فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق.

فوائد الذكر:

قد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه القيم «الوابل الصيب» للذكر أكثر من سبعين فائدة:

- منها: أنه يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره، ويرضي الرحمن عز وجل، ويزيل الهم والغم والحزن، ويجلب للقلب الفرح والسرور والبسط.
- ومنها: أنه يقوي القلب والبدن، وينور الوجه والقلب ويجلب الرزق.
- ومنها: أنه يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة، ويورثه المحبة التي هي روح الإسلام وقطب رحى الدين ومدار السعادة والنجاة.

ومنها: أنه يورث المراقبة حتى يدخل العبد في باب الإحسان فيعبد الله كأنه يراه، ويورثه الإنابة والقرب، فعلى قدر ذكر العبد لربه يكون قربه منه، وعلى قدر غفلته يكون بعده عنه.

ومنها: أنه يورث ذكر الله ﷻ قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: 152]. وفي الحديث القدسي: «فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُ».

ومنها: أنه يورث حياة القلب كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الذكر للقلب كالماء للسمك فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء؟!.

ومنها: أنه يورث جلاء القلب من صداه، وكل شيء له صدأ، وصدأ القلب الغفلة والهوى، وجلاؤه الذكر والتوبة والاستغفار.

ومنها: أنه يحط الخطايا ويذهبها، فإنه من أعظم الحسنات والحسنات يذهبن السيئات.

قال ﷺ: «مَنْ قَالَ في يومٍ وليلة سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ مِائَةَ مَرَّةٍ؛ حُطَّتْ عنه خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»[1].

---

(1) رواه البخاري (6405) الدعوات، ومسلم (2692) الذكر ومالك في الموطأ (1/ 209) القرآن، والترمذي (3469) الدعوات.

ومنها: أنه سبب لنزول الرحمة والسكينة كما قال ﷺ: «وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ؛ إِلا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلائِكَةُ، وَذَكَرَهُمْ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»[1].

ومنها: أنه سبب لاشتغال اللسان عن الغيبة والنميمة والكذب والفحش والباطل، فمن عوَّد لسانه ذكر الله صانه عن الباطل واللغو، ومن يبس لسانه عن ذكر الله تعالى ترطب بكل باطل ولغو وفحش ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومنها: أنه غراس الجنة كما في حديث جابر عن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ»[2].

ومنها: أن العطاء والفضل الذي ترتب عليه لم يرتب على غيره من الأعمال، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ؛ كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنْ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ؛ إِلا رَجُلٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْهُ»[3].

---

(1) رواه مسلم (2699) الذكر والدعاء، وأبي داود، والترمذي (3378) الدعوات.

(2) تقدم تخريجه.

(3) رواه البخاري (6403) الدعوات، ومسلم (2691) الذكر والدعاء.

❁ ومنها: أن دوام ذكر الرب تعالى يوجب الأمان من نسيانه الذي هو سبب شقاء العبد في معاشه ومعاده، فإن نسيان الرب ﷻ يوجب نسيان نفسه ومصالحها قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر: 19].

وإذا نسي العبد نفسه أعرض عن مصالحها ونسيها واشتغل عنها فهلكت وفسدت، كمن له زرع أو بستان أو ماشية أو غير ذلك مما صلاحه وفلاحه بتعاهده والقيام عليه فأهمله ونسيه واشتغل عنه بغيره فإنه يفسد ولابد.

❁ ومنها: أن الذكر يوجب صلاة الله تعالى وملائكته على الذاكر، ومن صلى الله تعالى عليه وملائكته فقد أفلح كل الفلاح، وفاز كل الفوز، قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: 41-43]

❁ ومنها: أن الله ﷻ يباهي بالذاكرين ملائكته كما في حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عَلَى حَلْقَةٍ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ؟ قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ! قَالَ: آللهَ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلا ذَاكَ؟ قَالُوا: وَاللهَ مَا أَجْلَسَنَا إِلا ذَاكَ. قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: «مَا أَجْلَسَكُمْ»؟ قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلإِسْلامِ وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا. قَالَ: «آللهَ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلا ذَاكَ»؟

قَالُوا: وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلا ذَاكَ. قَالَ: «أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللهَ عز وجل يُبَاهِي بِكُمْ الْمَلائِكَةَ»[1].

ومنها: أن جميع الأعمال إنما شرعت إقامة لذكر الله عز وجل قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِىٓ﴾ [طه: 14]. أي لإقامة ذكرى وقال شيخ الإسلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ [العنكبوت: 45]. الصحيح أن معنى الآية أن ا لصلاة فيها مقصودان عظيمان وأحدهما أعظم من الآخر، فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولما فيها من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

ومنها: أن إدامته تنوب عن الطاعات وتقوم مقامها حيث لا تنوب جميع التطوعات عن ذكر الله عز وجل، وقد جاء ذلك صريحًا في حديث أبي هريرة: أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَلَهُمْ فَضْلُ أَمْوَالهم يَحُجُّونَ بِهَا وَيَعْتَمِرُونَ وَيُجَاهِدُونَ، قَالَ: «أَفَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَمْرٍ تُدْرِكُونَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَتَسْبِقُونَ مَنْ جَاءَ بَعْدَكُمْ وَلا يَأْتِي أَحَدٌ بِمِثْلِ مَا جِئْتُمْ بِهِ إِلا مَنْ جَاءَ بِمِثْلِهِ تُسَبِّحُونَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ عَشْرًا وَتَحْمَدُونَ عَشْرًا وَتُكَبِّرُونَ عَشْرًا»[2].

---

(1) رواه مسلم (2701) الذكر.

(2) رواه البخاري (6329) الدعوات.

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: لأن أسبح الله تعالى تسبيحات أحب إليّ من أن أنفق عددهن دنانير في سبيل الله ﷻ.

❁ ومنها: أن الذكر يعطي الذاكر قوة في قلبه وفي بدنه حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لم يظن فعله بدونه، وقد علّم النبي ﷺ ابنته فَاطِمَةُ وعليًا رضي الله عنهما أن يسبحا كل ليلة إذا أخذا مضاجعهما ثلاثًا وثلاثين ويحمدا ثلاثًا وثلاثين ويكبرا أربعًا وثلاثين لما سألته الخادم وشكت إليه ما تقاسيه من الطحن والسعي والخدمة فعلّمها ذلك وقال: «فَهَذَا خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ»[1]. فقيل من داوم على ذلك وجد قوة في يومه تغنيه عن خادم.

❁ ومنها: أن كثرة الذكر أمان من النفاق فإن المنافقين قليلوا الذكر لله ﷻ، قال الله ﷻ في المنافقين: ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[النساء: 142].

قال كعب رضي الله عنه: من أكثر ذكر الله ﷻ برئ من النفاق ولهذا والله أعلم ختم الله تعالى سورة المنافقين بقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾[المنافقون: 9].

❁ ومنها: أن للذكر من بين الأعمال لذة لا يشبهها شيء فلو لم يكن للعبد من ثوابه إلا اللذة الحاصلة للذاكر والنعيم الذي يحصل لقلبه لكفى به ولهذا سميت مجالس الذكر رياض الجنة.

قال مالك بن دينار: ما تلذذ المتلذذون بمثل ذكر الله ﷻ.

(1) رواه البخاري (6318) الدعوات، ومسلم (2727) الدعوات والترمذي (3408) الدعاء.

- ومنها: أن دوام الذكر تكثير لشهود العبد يوم القيامة.

- ومنها: أن الذكر أفضل من الدعاء: الذكر ثناء على الله ﷻ، والدعاء سؤال العبد حاجته، فأين هذا من هذا، والذكر كذلك يجعل الدعاء مستجابًا، فالدعاء الذي تقدمه الذكر والثناء أفضل وأقرب إلى الإجابة من الدعاء المجرد.

أنواع الذكر:

الأول: ذكر أسماء الله ﷻ وصفاته ومدحه والثناء عليه بها نحو: «سبحان الله»، و«الحمد لله»، و«لا إله إلا الله».

الثاني: الخبر عن الله ﷻ بأحكام أسمائه وصفاته نحو: الله ﷻ يسمع أصوات عباده ويرى حركاتهم.

الثالث: ذكر الأمر والنهي كأن تقول: إن الله ﷻ أمر بكذا ونهى عن كذا.

الرابع: ذكر آلائه وإحسانه.

والذكر يكون بالقلب أو باللسان وأفضل الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان، وذكر القلب أفضل من ذكر اللسان.

فضل تلاوة القرآن وحملته:

أفضل الذكر تلاوة القرآن وذلك لتضمنه لأدوية القلب كما قال الله ﷻ:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: 82].

وقــال تعــالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[يونس: 57].

وقد ورد من الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة ما يُبين فضل هذه العبادة وفضل أهلها، قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾[فاطر: 29، 30].

وعن عثمان بن عفان ﷺقال: قال رسول الله : «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»[1].

وعن عائشة ﷺ قالت: «الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ يتعتع فيه وهو عليه شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ»[2].

وعن عمر بن الخطاب ﷺأن النبي ﷺقال: «إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»[3]. وعن أبي أمامة الباهلي ﷺقال سمعت رسول الله ﷺيقول: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ»[4].

---

(1) رواه البخاري (2027) فضائل القرآن، والترمذي (2907) ثواب القرآن، وأبي داود (1452) الصلاة.

(2) رواه البخاري (4937) التفسير، ومسلم (798) صلاة المسافرين، وأبي داود (1454) الصلاة، والترمذي (2904) ثواب القرآن.

(3) رواه مسلم (817) صلاة المسافرين.

(4) رواه مسلم (804) صلاة المسافرين وبقية الحديث «اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ...»إلخ.

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفاً مِنْ كِتَابِ الله فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لاَ أَقُولُ ﴿الم﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، ولامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ»(1). وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي قال: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا»(2).

الآثار:

قال خباب ﷺ: تقرب إلى الله ما استطعت فإنك لن تتقرب إليه بشيء أحب إليه من كلامه.

وقال عثمان بن عفان ﷺ: لو طَهُرَتْ قلوبكم ما شبعت من كلام ربكم.

وقال ابن مسعود ﷺ: من كان يحب أن يعلم أنه يحب الله فليعرض نفسه على القرآن، فإن أحب القرآن فهو يحب الله، فإنما القرآن كلام الله.

***

(1) رواه الترمذي (2910) ثواب القرآن وصححه الألباني رحمه الله.

(2) رواه الترمذي (2914) ثواب القرآن، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأبي داود (1464) الصلاة، وأحمد (2/ 192) وصححه الألباني.

الاستغفار[1]

الاستغفار هو طلب المغفرة، والمغفرة هي وقاية شر الذنوب مع سترها. أي أن الله ﷻ يستر على العبد فلا يفضحه في الدنيا ويستر عليه في الآخرة فلا يفضحه في عرصاتها ويمحو عنه عقوبة ذنوبه بفضله ورحمته.

وقد كثر ذكر الاستغفار في القرآن، فتارة يؤمر به كقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [المزمل: 20]. وتارة يمدح أهله كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: 17]. وتارة يذكر الله ﷻ أنه يغفر لمن استغفره كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 110]. وكثيرًا ما يقرن الاستغفار بذكر التوبة فيكون الاستغفار حينئذٍ عبارة عن طلب المغفرة باللسان والتوبة عبارة عن الإقلاع عن الذنوب بالقلب والجوارح، وحكم الاستغفار كحكم الدعاء، إن شاء الله أجابه وغفر لصاحبه لاسيما إذا خرج من قلب منكسر بالذنوب أو صادف ساعة من ساعات الإجابة كالأسحار وأدبار الصلوات، وأفضل الاستغفار أن يبدأ بالثناء على ربه ثم يثني بالاعتراف بذنبه ثم يسأل ربه بعد ذلك المغفرة كما في حديث شداد بن أوس عن النبي ﷺ: «اللهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وأنا عَبْدُكَ، وأنا

(1) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب، وإحياء علوم الدين

على عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ ما اسْتَطَعْتُ، أعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ ما صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنبي، فاغْفِرْ لي، فإنَّه لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ أَنْتَ»[1]. وقوله: «أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ» أي أعترف لك و«أَبُوءُ بِذَنبي» أي أعترف وأقر بذنبي، وفي حديث عبد الله بن عمرو أن أبا بكر قال: يا رسول الله، عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلاتِي. قَالَ: «قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَبِيرًا - وقال قُتَيْبَةُ: كَثِيرًا - وَلا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا أَنْتَ. فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»[2].

ومن أفضل الاستغفار أن يقول العبد: «أَسْتَغْفِرُ اللهَ الَّذِي لا إِلَـهَ إِلا هُوَ الْحَيَّ الْقَيُّومَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ» وقد ورد عن النبي ﷺ أن من قاله: «غُفِرَ لَهُ وَإِنْ كَانَ فَرَّ مِنْ الزَّحْفِ»[3].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إِنْ كُنَّا نَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الواحد مِائَةَ مَرَّةٍ يَقُولُ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ»[4].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «وَاللهَّ إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَّ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»[5].

---

(1) رواه البخاري (6306) الدعوات، والترمذي (3393) الدعوات والنسائي (5537) الاستعاذة.

(2) رواه مسلم (2705) الذكر، والترمذي (3531) الدعاء.

(3) صحيح أبي داود (1517) الصلاة.

(4) رواه أحمد (4726)، وأبي داود (1516) الصلاة، وابن ماجه (3882) اللباس، وصححه الألباني (566).

(5) رواه البخاري (6307) الدعوات، ومسلم (2702) بلفظ: «فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ».

وعن النبي ﷺ قال: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»(1).

وقد ورد في حديث أنس أهم الأسباب التي يغفر الله ﷻ بها الذنوب؛ فقال ﷺ: قال الله تعالى: «يَا ابْنَ آدَمَ: إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ: لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ: إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»(2).

وقد تضمن هذا الحديث ثلاثة أسباب من أعظم أسباب المغفرة:

أحدها: الدعاء مع الرجاء فإن الدعاء مأمور به موعود عليه بالإجابة كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60]. فالدعاء سبب مقتض للإجابة مع استكمال شرائطه وانتفاء موانعه، ومن أعظم شرائطه حضور القلب، ورجاء الإجابة من الله تعالى، فمن أعظم أسباب المغفرة أن العبد إذا أذنب ذنبًا لم يرج مغفرته من غير ربه، ويعلم أنه لا يغفر الذنوب ويأخذ بها غيره فقوله: «إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلا أُبَالِي» يعني على كثرة ذنوبك

(1) رواه مسلم (2702) الذكر، وأبي داود (1515) الصلاة قوله: «ليغان»: أي ليغطى ويغشى والمراد به السهو.

(2) رواه الترمذي (3540) الدعاء. الصحيحة (127، 128)، «الروض النضير» (432) و«المشكاة» (2336 - التحقيق الثاني) «التعليق الرغيب» (2/ 268) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه من هذا الوجه.

وخطاياك، ولا يتعاظمني ذلك ولا أستكثره وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلا يَقُلْ: اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ. وَلَكِنْ لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ. وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ. فَإِنَّ اللهَ لا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ»(1). فذنوب العباد وإن عظمت عفو الله ومغفرته أعظم منها، كما قال الإمام الشافعي عن موته:

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وضَاقَتْ مَذَاهِبِي ... جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لعفْوِك سُلَّمَا

تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُه ... بعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا

الثاني: الاستغفار؛ فلو عظمت الذنوب وبلغت مِنْ الكثرة عنان السماء - وهو السحاب، وقيل: ما انتهى إليه البصر - ثم استغفر العبد ربه عز وجل فإن الله يغفرها له.

روي عن لقمان أنه قال لابنه: يا بني عود لسانك اللهم اغفر لي فإن لله ساعات لا يرد فيها سائلًا.

وقال الحسن: أكثروا من الاستغفار في بيوتكم وعلى موائدكم وفي طرقكم وفي أسواقكم وفي مجالسكم وأينما كنتم، فإنكم ما تدرون متى تنزل المغفرة.

الثالث: التوحيد وهو السبب الأعظم ومن فقده حُرِمَ المغفرة ومن أتى به فقد أتى بأعظم أسباب المغفرة.

---

(1) رواه مسلم (2679) الذكر.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: 48]

قال ابن القيم رحمه الله في معنى قوله: «يَا ابْنَ آدَمَ: إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً». يُعْفَى لأهل التوحيد المحض الذي لم يشوبوه بالشرك ما لا يعفى لمن ليس كذلك، فلو لقي الموحد الذي لم يشرك بالله البتة ربه بقراب الأرض خطايا أتاه بقرابها مغفرة، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده، فإن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب لأنه يتضمن من محبة الله وإجلاله وتعظيمه وخوفه ورجائه وحده ما يوجب غسل الذنوب ولو كانت قراب الأرض، فالنجاسة عارضةٌ والدافع لها قوي. ومعنى «قُرابِ الأَرْضِ» ملؤها أو ما يقارب ذلك، ولكن هذا مع مشيئة الله عز وجل فإن شاء غفر بفضله ورحمته وإن شاء عذب بعدله وحكمته، وهو المحمود على كل حال.

قال بعضهم: الموحد لا يلقى في النار كما يلقى الكفار ولا يبقى فيها كما يبقى الكفار. فإن كمل توحيد العبد وإخلاصه لله فيه وقام بشروطه كلها بقلبه ولسانه وجوارحه أو بقلبه ولسانه عند الموت أوجب ذلك مغفرة ما سلف من الذنوب كلها ومنعه من دخول النار بالكلية، فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه أخرجت منه كل ما سوى الله محبة وتعظيمًا وإجلالًا ومهابة وخشية ورجاء وتوكلًا وحينئذٍ تحرق ذنوبه وخطاياه كلها ولو كانت مثل زيد البحر، وربما قلبتها حسنات فإن هذا التوحيد هو الإكسير الأعظم، فلو وضعت ذرة منه على جبال الذنوب والخطايا لقلبتها حسنات.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كما أن الله عز وجل لا يقبل طاعات المشركين فنرجو أن يغفر الله عز وجل ذنوب الموحدين أو معناه.

الآثار في فضل الاستغفار:

قالت عائشة رضي الله عنها: «طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارًا كَثِيرًا»[1].

وقال عَلِيّ رضي الله عنه: ما ألهم الله سبحانه عبدًا الاستغفار وهو يريد أن يعذبه.

وقال قتادة رحمه الله: إن هذا القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم، فأما داؤكم فالذنوب، وأما دواؤكم فالاستغفار.

وسمعوا أعرابيًا وهو متعلق بأستار الكعبة يقول: اللهم إن استغفاري مع إصداري لَلَؤمٌ وإن تركي استغفارَكَ مع علمي بسعة عفوك لعجزٌ فكم تتحبب إليَّ بالنعم مع غناك عني وكم أتبغض إليك بالمعاصي مع فقري إليك، يا من إذا وعد وَفىّ، وإذا أوعد عفا، أدخل عظيم جرمي في عظيم عفوك، يا أرحم الراحمين[2].

***

---

(1) رواه ابن ماجه مرفوعًا عن عبد الله بن بسر (3818) الأدب وصححه الألباني.

(2) قوله: «إذا أوعد عفا، مخالف لعقيدة السلف رحمهم الله فوعد الله عز وجل ووعيده حق كما قال تعالى ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾[ق:28].

❁الدعــــاء

قــال الله تعــالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى ﴾ [البقرة: 186].

وقال تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾

[الأعراف: 55]

وقــال تعــالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: 60].

فسبحان الله العظيم ذي الكرم الفياض والجود المتتابع جعل سؤال عبده لحوائجه وقضاء مآربه عبادة له وطلبه منه وذمه على تركه بأبلغ أنواع الذم فجعله مستكبرًا عليه، وهدده بأشد ألوان التهديد فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: 60].

وعن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ». ثم تلا الآيــــة: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[1] [غافر: 60].

❁ انظر: الجواب الكافي لابن القيم - وجامع العلوم والحكم لابن رجب - وإحياء علوم الدين للغزالي - وشرح حديث الولي للشوكاني.

(1) رواه أبي داود (1479) الصلاة، والترمذي (3247) التفسير وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (3896) الدعاء والحاكم (1/ 490، 491) وصححه ووافقه الذهبي والألباني.

والعبادة هي التذلل والخضوع، والدعاء إظهار فقر وحاجة وتذلل من العبد الفقير الضعيف الذي لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا إلى الله ﷻ القادر على جلب جميع المنافع ودفع جميع المضار، والذي إذا أعطى الأولين والآخرين الإنس والجن جميع مطالبهم وحقق لهم جميع مآربهم لا ينقص ما عنده، كما قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[النحل: 96]. وقال ﷺ: «يَدُ اللهِ مَلأَى لا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ. وَقَالَ: وَالأَرْضَ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ»[1]. أي لم ينقص ما في يمينه، والله ﷻ يحب أن يتفضل على عباده بالنعم، ويحب من العباد أن يعترفوا بفقرهم وذلهم وحاجتهم واضطرارهم إليه ﷻ، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾[الأنعام: 42]. فالله ﷻ يبتلي الناس ليظهر فقرهم إليه؛ ولذا أحب الله ﷻ الدعاء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ، يَغْضَبْ عَلَيْهِ»[2].

رأى أحد العلماء رجلًا يتردد على أحد الملوك فقال له: يا هذا تذهب إلى من يَسُدُّ دونك بابه، ويظهر لك فقره، ويخفي عنك غناه، وتترك من يفتح لك بابه ويظهر لك غناه ويقول: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

---

(1) رواه البخاري (7411) التوحيد، ومسلم (2993) الزكاة.

(2) رواه أحمد (2/ 442) والبخاري في الأدب المفرد (658) والترمذي (3373) الدعوات، وابن ماجه (3895) الدعاء، والحاكم (1/ 491) وصححه الألباني في الصحيحة (3654).

وفي ذلك قيل:

لا تَسْأَلَنَّ بَنِي آدمَ حَاجَةً ... وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لا تُحْجَبُ

اللهُ يَغْضَبُ إنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وإذا سَأَلتَ بُنَيَّ آدمَ يَغْضَبُ

وقال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ [النمل: 62].

والدعاء سبب مقتض للإجابة مع استكمال شرائطه وانتفاء موانعه، فيقطع بقبوله مع توفر شروطه وانتفاء الموانع، والأدلة على ذلك من الكتاب ما تقدم من الآيات، ومن السنة حديث سلمان الفارس عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ، أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ»[1].

ولأنس بن مالك عنه ﷺ قال: «لا تعجزا في الدعاء فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد»[2]. ولأبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَا مِن مُسْلِمٌ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ ليس فيها إِثْمٍ ولا قَطِيعَةِ رَحِمٍ إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا»[3].

---

(1) رواه الترمذي (3556) الدعاء، وأبي داود (1488) الصلاة، وابن حبان (2399 موارد)، والحاكم (1/ 497) وصححه ووافقه الذهبي.

(2) رواه ابن حبان (2398 موارد) الأدعية، والحاكم (1/ 494) وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقال الذهبي: صحيح.

(3) رواه الحاكم (1/ 493) وصححه ووافقه الذهبي ورواه الترمذي بمعناه عن أبي الزبير عن جابر (3381) الدعوات - حسن: «المشكاة» (2228) الدعوات.

والدعاء من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب ولكن قد يتخلف أثره عنه إما لضعفه في نفسه - بأن يكون دعاء لا يحبه الله لما فيه من العدوان - وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء فيكون بمنزلة القوس الرخو جدًا فإن السهم يخرج منه خروجًا ضعيفًا، وإما لحصول المانع من الإجابة: من أكل الحرام ورين الذنوب على القلوب واستيلاء الغفلة والشهوة واللهو وغلبتها عليه.

والدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء يدافعه ويعالجه ويمنع نزوله ويرفعه أو يخففه إذا نزل، فله من البلاء ثلاثة مقامات:

أحدها: أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه.

الثاني: أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء فيصاب به العبد ولكن قد يخففه.

الثالث: أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه.

آداب الدعاء

الأول: أن يجزم بالدعاء ويوقن بالإجابة ويصدق رجاؤه فيه قال ﷺ: «لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ. لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ، فَإِنَّهُ لا مُكْرِهَ لَهُ»[1].

وقال ﷺ: «ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاهٍ»[2].

قال سفيان بن عيينة: لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه فإن الله ﷻ أجاب دعاء شر الخلق إبليس لعنه الله إذ قال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: 36]

الثاني: أن يلح في الدعاء ويكرره ثلاثًا، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ إذا دعا دعا ثلاثًا وإذا سأل سأل ثلاثًا»[3].

---

(1) رواه البخاري (6339) الدعوات، ومسلم (2679) الذكر.

(2) رواه الترمذي (3479) الدعاء، والشيخ الألباني رحمه الله في الصحيحة (596) وأحمد (2/ 177).

قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لا نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. سَمِعْتُ عَبَّاسًا الْعَنْبَرِيَّ يَقُولُ: اكْتُبُوا عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْجُمَحِيِّ فَإِنَّهُ ثِقَةٌ.

(3) رواه أبي داود (1510) الصلاة بلفظ «كان يعجبه أن يدعو ثلاثًا» وحسنه في تحقيق جامع الأصول (4/ 63).

الثالث: لا يعجل ولا يقول دعوت ولم يُستجَبْ لي لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يُسْتَجَابُ لأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ. يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»[1].

قال ابن بطال: المعنى أن يسأم فيترك الدعاء فيكون كالمنان بدعائه أو أنه أتى من الدعاء ما يستحق به الإجابة فيصير كالمبخل للرب الكريم الذي لا تعجزه الإجابة ولا ينقصه العطاء، وفي الحديث أدب من آداب الدعاء وهو أن يلازم الطلب ولا ييأس من الإجابة لما في ذلك من الاستسلام والانقياد وإظهار الافتقار.

الرابع: أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة كيوم عرفة من السنة، ورمضان من الأشهر، ويوم الجمة من الأسبوع، ووقت السحر من ساعات الليل، قال ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ. فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»[2].

قيل: إن يعقوب عليه السلام إنما قال: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: 98]. ليدعو وقت السحر.

---

(1) رواه البخاري (6340) الدعوات، ومسلم (2735) الذكر، رواه الترمذي (3387) الدعاء وقال: حسن صحيح وأبي داود (1484) الصلاة.

(2) رواه البخاري (7494) التوحيد، ومسلم (758) صلاة المسافرين والترمذي (446) الصلاة، وأبي داود (4733) السنة، وابن ماجه (1384) إقامة الصلاة.

الخامس: أن يغتنم الأحوال الشريفة عند زحف الصفوف في سبيل الله ﷻ، وعند نزول الغيث لتسمية الغيث رحمة، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ﴾ [الشورى: 28]. وكذلك حال السجود لحديث أبي هريرة ؓ قال النبي ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ. فَأَكْثِرُوا مِنَ الدُّعَاءِ»(1).

ويرجع شرف الأوقات إلى شرف الأحوال؛ إذ وقت السحر وقت صفاء القلب وإخلاصه وفراغه من المشوشات، ويوم عرفة ويوم الجمعة وقت اجتماع الهمم وتعاون القلوب على استدرار رحمة الله ﷻ.

السادس: خفض الصوت بين المخافتة والجهر والاستكانة والانكسار وإظهار الفقر والحاجة، قالت عائشة ؓ في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ ﴾ [الإسراء: 110]. أي بدعائك، وقال أبو موسى الأشعري : قدمنا مع رسول الله ﷺ فلما دنونا من المدينة كبر وكبر الناس ورفعوا أصواتهم؛ فقال النبي ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ أَرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِبًا، وَلَكِنْ تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا»(2).. وقد أثنى الله تعالى على نبيه زكريا ؑ؛ فقال: ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ [مريم: 3]. وقال تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف: 55].

---

(1) رواه مسلم (482) الصلاة، وأبي داود (875) الصلاة، والنسائي (1136) الصلاة (التطبيق).

(2) رواه البخاري (6610) الدعوات، ومسلم (2704) الذكر.

السابع : أن يفتتح الدعاء بحمد الله تعالى والثناء عليه بأسمائه وصفاته، ثم يصلي على نبيه ﷺ، ويختم بالصلاة والحمد كذلك للحديث: سَمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا يَدْعُو فِي صَلاتِهِ لَمْ يُمَجِّدْ اللهَ تَعَالَى وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَجِلَ هَذَا». ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ اللهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ ثُمَّ لِيُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ لِيَدْعُ بَعْدُ بِمَا شَاءَ»(1).

الثامن : أن يطيب مطعمه لقوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلا طَيِّبًا وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ؛ فَقَالَ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ﴾ [المؤمنون: 51]. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة: 172]. ثم ذَكَرَ «الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ. يَا رَبِّ يَا رَبِّ! وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ»(2).

فمع وجود أربعة شروط لقبول الدعاء وهي قوله: «يُطِيلُ السَّفَرَ» فمتى طال السفر كان أقرب إلى إجابة الدعاء لأنه مظنة حصول انكسار النفس بطول الغربة عن الأوطان، وتحمل المشاق والانكسار من أعظم أسباب الإجابة.

---

(1) رواه الترمذي (3477) الدعوات، وأبي داود (1481) الصلاة، والنسائي (1283) السهو وقال الترمذي: حسن صحيح.

(2) رواه مسلم (1015) الزكاة، الترمذي (11/ 110) التفسير.

الثاني قوله: «أَشْعَثَ أَغْبَرَ» فحصول التبذل في اللباس والهيئة بالشعث والإغبار مظنة الإجابة.

الثالث قوله: «يَمُدُّ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ» فقد تواترت الأخبار على رفع اليدين في الدعاء، وفي حديث سلمان المذكور آنفًا قوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ»[1].

الرابع قوله: «يَا رَبِّ يَا رَبِّ» وهو الإلحاح على الله ﷻ بتكرير ذكر ربوبيته وهو من أعظم ما يطلب به إجابة الدعاء، فمع وجود هذه الشروط التي تقضي الإجابة يقول ﷺ: «فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ» والمانع له من الإجابة مع وجود هذه الشروط أن مَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ.

التاسع: أن يدعو مستقبلًا القبلة ويرفع يديه ولا يتكلف السجع في الدعاء، وإن دعا بالمأثور فهو حسن، ولا يدعو بإثم ولا بقطيعة رحم لحديث أبي سعيد المتقدم.

العاشر: أن يعظم الرغبة في ربه ﷻ لقوله ﷺ: «إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلَا يَقُلِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ وَلَكِنْ لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ فَإِنَّ اللهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ»[2].

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) رواه مسلم (2679) الذكر.

الحادي عشر: وهو أدب الباطن وهو الأصل في الإجابة وهو التوبة ورد المظالم والإقبال على الله ﷻ والاستجابة لله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى﴾ [البقرة: 186].

فالاستجابة لله ﷻ سبب لاستجابة الله ﷻ لدعاء العبد كما قال ﷺ حاكيًا عن ربه ﷻ في حديث الولي الذي يتقرب إلى الله ﷻ بالنوافل حتى يحبه: «وَلَئِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ»[1].

***

(1) حديث الولي رواه البخاري (6502) الرقاق، وأبو نعيم (1/ 4).

الصلاة على النبي ﷺ[1]

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: 56].

قال ابن كثير رحمه الله: المقصود من هذه الآية أن الله تعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه في الملأ الأعلى عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر تعالى العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعًا.

وقال ابن القيم رحمه الله في «جلاء الأفهام»: والمعنى أنه إذا كان الله وملائكته يصلون على رسوله فصلوا أنتم أيضًا عليه، فأنتم أحق بأن تصلوا عليه وتسلموا تسليمًا؛ لما نالكم ببركة رسالته ويُمْنِ سفارته، من خير شرف الدنيا والآخرة.

معنى الصلاة على النبي ﷺ:

قال أبو العالية: صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة وصلاة الملائكة الدعاء[2].

---

(1) انظر: تفسير ابن كثير - وجلاء الأفهام لابن القيم - فضل الصلاة على النبي ﷺ للجهضمي بتحقيق الألباني.

(2) ذكره البخاري تعليقًا بصيغة الجزم.

وقال ابن عباس: يصلون يباركون[1].

قال ابن القيم رحمه الله: الصلاة المأمور بها فيها أي في الآية المتقدمة هي الطلب من الله ما أخبر به عن صلاته وصلاة ملائكته، وهي ثناء عليه وإظهار لفضله وشرفه وإرادة تكريمه وتقريبه.

فضل الصلاة على النبي ﷺ:

عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو ساجد فأطال السجود قال: «مَنْ صَلَّى عَلَيْكَ صَلَّيْتُ عَلَيْهِ وَمَنْ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَسَجَدْتُ للهِ شُكْرًا»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا»[3]. وعن يعقوب بن زيد بن طلحة التيمي قال: قال رسول الله ﷺ: «أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي فَقَالَ: ما مَنْ عبد يُصَلِّي عَلَيْكَ صَلاةً إلا صلى الله عليه بها عَشْرًا».

فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله، أجعل نصف دعائي لك؟ قال: «إِنْ شِئْتَ».

قال: ألا أجعل ثلثي دعائي؟ قال: «إِنْ شِئْتَ».

---

(1) ذكره البخاري تعليقًا بصيغة الجزم.

(2) رواه الحاكم (1/ 550) وأحمد والجهضمي، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقال الألباني: صحيح لطرقه وشواهد.

(3) رواه مسلم (408) الصلاة، والترمذي (485) الصلاة وأبي داود (1530) الصلاة، والنسائي (1296) السهو.

قال: ألا أجعل دعائي كله؟ قال: «إذن يكفيك الله هم الدنيا وهم الآخرة»[1].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانُ. ثُمَّ انْسَلَخَ. قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ عِنْدَهُ أَبَوَاهُ الْكِبَرَ. فَلَمْ يُدْخِلاهُ الْجَنَّةَ»[2].

قال عبد الرحمن: وأظنه قال: (أَوْ أَحَدُهُمَا).

عن عَلِيِّ بن الحسين قال: أخبرني أبي عند جدي أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ وسلموا حَيْثُمَا كُنْتُمْ فسيبلغني سلاكم وَصَلاتُكُمْ»[3].

وعن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ للهِ مَلائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الأَرْضِ، يُبَلِّغُونِي مِنْ أُمَّتِي السَّلامَ»[4].

---

(1) رواه الجهضمي (28، 29) وقال الألباني: هذا مرسل صحيح الإسناد ويشهد له ما بعده.

(2) رواه الترمذي (3545) الدعوات، قال الشيخ الألباني رحمه الله: حسن صحيح: «المشكاة» (927)، والتعليق الترغيب (2/ 283) «فضل الصلاة على النبي ﷺ» (16) ول (م) الجملة الأخيرة منه.

(3) رواه أبي داود (2026) المناسك وأحمد (2/ 367) وحسنه الحافظ وقال الألباني صحيح بطرقه وشواهده

(4) رواه النسائي (1281) السهو، والحاكم (2/ 421) التفسير وصححه ووافقه الذهبي وقال الألباني: إسناده صحيح رجاله رجال الصحيح.

وعن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «الْبَخِيلُ الَّذِي مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ»[1].

وعن محمد بن عليٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «من ذكرت عنده فلم يصل عليَّ خطئ طريق الجنة»[2].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ أو سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حقت عليه شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللهَ فِيهِ وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ ﷺ إلا كَانَ مجلسهم عَلَيْهِمْ تِرَةً يوم القيامة إِنْ شَاءَ عفا عنهم وَإِنْ شَاءَ أخذهم»[4].

كيفية الصلاة على النبي ﷺ:

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: أَتَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَجْلِسِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فَقَالَ لَهُ بَشِيرُ بْنُ سَعْدٍ: أَمَرَنَا الله أَنْ نُصَلِّيَ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى تَمَنَّيْنَا أَنَّهُ لَمْ يَسْأَلْهُ ثُمَّ قَالَ رسول الله ﷺ: «قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ

---

(1) رواه الترمذي (3546) الدعوات تحفة وقال: حسن غريب صحيح والحاكم (1/ 549) الدعاء وقال الألباني: صحيح.

(2) رواه الجهضمي في فضل الصلاة على النبي ﷺ ص(45) وقال الألباني: إسناده مرسل جيد.

(3) رواه مسلم (385) الصلاة، وأبي داود (523) الصلاة والترمذي (3614) المناقب، والنسائي (677) الأذان.

(4) رواه الترمذي (3380) الدعاء وحسنه، وصححه الألباني في الصحيحة ومعنى ترة أي حسرة.

عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، فِي الْعَالَمِينَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَالسَّلَامُ كَمَا قَدْ عَلِمْتُمْ»[1].

الفوائد والثمرات الحاصلة بالصلاة عليه ﷺ:

(1) امتثال أمر الله ﷻ وموافقته سبحانه في الصلاة عليه ﷺ وموافقة ملائكته فيها.

(2) حصول عشر صلوات من الله ﷻ على المصلي بالصلاة مرة واحدة على النبي ﷺ

(3) أنها سبب لشفاعته ﷺ إذا قرنها بسؤال الوسيلة أو أفردها كما تقدم.

(4) أنها سبب لكفاية العبد ما أهمه كما في حديث زيد بن طلحة المتقدم.

(5) أنها ترمي بصاحبها على طريق الجنة وتخطئ بتاركها عن طريقها.

(6) أنها سبب لإبقاء الله سبحانه الثناء الحسن والبركة للمصلي لأن المصلي طالب من الله أن يثني على رسوله ويكرمه ويشرفه ويبارك عليه وعلى آله، وهذا الدعاء مستجاب فلابد أن يحصل للمصلي نوع من ذلك والجزاء من جنس العمل.

(7) أنها سبب لدوام محبة العبد لرسول الله ﷺ، وزيادتها وتضاعفها، وذلك عقد من عقود الإيمان الذي لا يتم إلا به، وهي سبب أيضًا لزيادة محبته للمسلم وعرض اسم المصلي عليه ﷺ، وكفى بالعبد نبلًا أن يذكر اسمه بين يدي رسول الله ﷺ.

---

(1) رواه مسلم (405) الصلاة، ومالك في الموطأ (1/ 165، 166)، الترمذي (12/ 95) التفسير، وأبي داود (967) السهو والنسائي (3/ 45، 46).

مواطن الصلاة على النبي ﷺ:

الموطن الأول : وهو أهمها وآكدها في الصلاة في آخر التشهد وقد أجمع المسلمون على مشروعيته واختلفوا في وجوبه فيها.

الموطن الثاني : صلاة الجنازة بعد التكبيرة الثانية ، عن الزهري قال : سمعت أبا أمامة بن سهل بن حنيف يحدث بها سعيد بن المسيب قال : «إن السنة في صلاة الجنازة أن يقرأ بفاتحة الكتاب ، ويصلي على النبي ﷺ ، ثم يخلص الدعاء للميت حتى يفرغ ، ولا يقرأ إلا مرة واحدة ثم يسلم في نفسه»[1].

الموطن الثالث : عند ذكره ﷺ وقد اختلف في وجوبها كلما ذكر اسمه ﷺ ؛ فقال الطحاوي والحليمي : تجب الصلاة عليه ﷺ كلما ذكر اسمه. وقال غيرهما : ذلك مستحب وليس بفرض يأثم تاركه.

الموطن الرابع : عند دخول المسجد وعند الخروج منه ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَسَنِ، عَنْ أُمِّهِ فَاطِمَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ، عَنْ جَدَّتِهَا فَاطِمَةَ الْكُبْرَى، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ، صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ». وَإِذَا خَرَجَ صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَسَلَّمَ وَقَالَ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ»[2].

---

(1) رواه النسائي مختصرًا (1940) الجنائز، والحاكم بمعناه (1/ 360) الجنائز وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي والألباني.

(2) رواه الترمذي (314) الصلاة، وابن ماجه (778) المساجد، صحيح دون جملة المغفرة، «تخريج فضل الصلاة على النبي ﷺ» (82-84)، «تخريج الكلم الطيب»، «تمام المنة» (290).

الموطن الخامس: عقب سماع الأذان لقوله ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمْ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا ثُمَّ سَلُوا لِيَ الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لا تَنْبَغِي إِلا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ وَمَنْ سَأَلَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ»[1].

الموطن السادس: عند الدعاء لحديث فضالة بن عبيد صاحب رسول الله ﷺ قال: سَمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا يَدْعُو فِي صَلَاتِهِ لَمْ يُمَجِّدْ اللهَ تَعَالَى وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَجِلَ هَذَا». ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَمْجِيدِ رَبِّهِ ﷻ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ يُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ يَدْعُو بِمَا شَاءَ»[2].

الموطن السابع: الصلاة عليه ﷺ يوم الجمعة: لحديث أوس بن أوس أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنْ الصَّلَاةِ فِيهِ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ». قَالَ: قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ تُعْرَضُ صَلَاتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرِمْتَ؟ - يَقُولُونَ: بَلِيتَ؟! - فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ ﷻ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ»[3].

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدم تخريجه.

(3) رواه أبي داود (1047) الصلاة، والنسائي (1373) الجمعة، وابن ماجه (1094، 1658) الصلاة، والحاكم (1/ 278) الجمعة وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي على شرط البخاري وصححه الألباني.

الموطن الثامن : الخطب كخطبة الجمعة والعيدين والاستسقاء وغيرها.

الموطن التاسع : عند القيام من المجلس.

الموطن العاشر : عند خطبة الرجل المرأة في النكاح.

***

قيام الليل[1]

فضيلة قيام الليل:

قال الله ﷻ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[السجدة: 16].

ثم عقب بقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[السجدة: 17].

وقال تعالى في وصف المحسنين: ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[الذاريات: 17، 18].

نقل عن قتادة ومجاهد وغيرهما أن معناه كانوا لا ينامون ليلة حتى الصباح، وعن ابن عباس معناه: لم تكن تمضي عليهم ليلة لا يأخذون منها شيئًا، وقال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾[الزمر: 9].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: القنوت: داوم الطاعة، والمصلي إذا أطال قيامه أو ركوعه أو سجوده فهو قانت.

وقال ﷻ في صفة عباد ٱلرَّحْمَـٰنِ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴾ [الفرقان: 64]

---

(1) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، وإحياء علوم الدين.

قال البخاري: «بَاب فَضْلِ قِيَامِ اللَّيْلِ» ثم أورد بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: كَانَ الرَّجُلُ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا رَأَى رُؤْيَا قَصَّهَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَتَمَنَّيْتُ أَنْ أَرَى رُؤْيَا؛ فَأَقُصَّهَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكُنْتُ غُلامًا شَابًّا، وَكُنْتُ أَنَامُ فِي الْمَسْجِدِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَرَأَيْتُ فِي النَّوْمِ كَأَنَّ مَلَكَيْنِ أَخَذَانِي فَذَهَبَا بِي إِلَى النَّارِ، فَإِذَا هِيَ مَطْوِيَّةٌ كَطَيِّ الْبِئْرِ، وَإِذَا لَهَا قَرْنَانِ، وَإِذَا فِيهَا أُنَاسٌ قَدْ عَرَفْتُهُمْ؛ فَجَعَلْتُ أَقُولُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ النَّارِ. قَالَ: فَلَقِيَنَا مَلَكٌ آخَرُ، فَقَالَ لِي: لَمْ تُرَعْ. فَقَصَصْتُهَا عَلَى حَفْصَةَ؛ فَقَصَّتْهَا حَفْصَةُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَقَالَ: «نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنْ اللَّيْلِ». فَكَانَ بَعْدُ لا يَنَامُ مِنْ اللَّيْلِ إِلا قَلِيلًا[1].

وشاهد الترجمة قوله ﷺ: «نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنْ اللَّيْلِ». فمقتضاه أن من كان يصلي من الليل يوصف بكونه نعم الرجل وفي الحديث كذلك أن قيام الليل يدفع العذاب.

وفي حديث أبي هريرة قوله ﷺ: «أَفْضَلُ الصَّلاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ قِيَامُ اللَّيْلِ»[2].

وعن عَلِيِّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ بِنْتَ النَّبِيِّ عليها السلام لَيْلَةً، فَقَالَ: «أَلا تُصَلِّيَانِ». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ. أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللهِ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا؛

---

(1) رواه البخاري (1122) التهجد وقوله: «فكان بعد...» إلخ من كلام سالم بن عبد الله بن عمر.

(2) رواه مسلم (1163) الصيام، وأبي داود (2412) الصوم، والترمذي (438) الصلاة، والنسائي (161) قيام الليل.

فَانْصَرَفَ حِينَ قُلْنَا ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا. ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُوَلٍّ يَضْرِبُ فَخِذَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[1] [الكهف: 54].

قال ابن بطال: فيه فضيلة قيام الليل وإيقاظ النائمين من الأهل والقرابة لذلك. قال الطبري: لولا ما علم النبي ﷺ من عظم فضل الصلاة في الليل ما كان يزعج ابنته وابن عمه في وقت جعله الله لخلقه سكنًا لكنه اختار لهما إحراز تلك الفضيلة.

كيف كان قيام النبي ﷺ:

(1) طول القيام:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةً، فَلَمْ يَزَلْ قَائِمًا حَتَّى هَمَمْتُ بِأَمْرِ سَوْءٍ، قُلْنَا: وَمَا هَمَمْتَ؟ قَالَ: هَمَمْتُ أَنْ أَقْعُدَ وَأَذَرَ النَّبِيَّ ﷺ»[2].

قال الحافظ: في الحديث دليل على اختيار النبي ﷺ تطويل الصلاة بالليل، وقد كان ابن مسعود قويًا محافظًا على الاقتداء بالنبي ﷺ وما هَمَّ بالقعود إلا بعد طول كثير ما اعتاده، وذهب كثير من الصحابة وغيرهم إلى أن كثرة الركوع

---

(1) رواه البخاري (1127) التهجد، ومسلم (775) صلاة المسافرين وقصرها.

(2) رواه البخاري (1135) التهجد، ومسلم (773) صلاة المسافرين وقصرها، وقال النووي: فيه أنه ينبغي الأدب مع الأئمة والكبار، وأن لا يخالفوا بفعل ولا قول ما لم يكن حرامًا، واتفق العلماء على أنه إذا شق على المقتدي في فريضة أو نافلة القيام وعجز عنه جاز له القعود، وإنما لم يقعد ابن مسعود للتأدب مع النبي ﷺ (شرح النووي على صحيح مسلم 6/ 90).

والسجود أفضل، ولمسلم من حديث ثوبان: «عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لله، فَإِنَّكَ لاَ تَسْجُدُ للهِ سَجْدَةً، إلاَّ رَفَعَكَ الله بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةً»[1]. والذي يظهر أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال.

وروى مسلم من حديث حذيفة ﷺ قال: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ فَقُلْتُ يَرْكَعُ عِنْدَ المِائَةِ. ثُمَّ مَضَى فَقُلْتُ يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ فَمَضَى. فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا. ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا. ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا. يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا. إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ. وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ. وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ. ثُمَّ رَكَعَ فَجَعَلَ يَقُولُ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ». فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ»[2] الحديث.

وهذا إنما يتأتى في نحو من ساعتين فلعله ﷺ أحيا تلك الليلة كلها، أما ما يقتضيه حاله في غير هذه الليلة فإن في أخبار عائشة أنه كان يقوم قدر ثلث الليل.

(2) كيف صلاة النبي ﷺ وكم كان يصلي من الليل؟

عَنْ عبد الله بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال: إِنَّ رَجُلًا قال يا رسول الله، كَيْفَ صَلاةُ اللَّيْلِ؟ قَالَ: «مَثْنَى مَثْنَى، فَإِذَا خفت الصُّبْحَ فَأَوْتِرْ بِوَاحِدَةٍ»[3].

قال الحافظ في الفتح: أما حديث ابن عمر رضي الله عنهما فهو الأفضل في حق الأمة؛ لأنه أجاب به السائل، وقد صح عنه ﷺ الفصل والوصل.

---

(1) رواه مسلم (488) الصلاة، وابن ماجه (1444) الأذان.

(2) رواه مسلم (772) صلاة المسافرين.

(3) رواه البخاري (1137) التهجد، ومسلم (749) الصلاة.

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي مِنْ اللَّيْلِ ثَلاثَ عَشْرَةَ رَكْعَةً مِنْهَا الْوِتْرُ وَرَكْعَتَا الْفَجْرِ»[1].

وفي الصحيحين رضي الله عنها قالت: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي مَا بَيْنَ أَنْ يَفْرُغَ مِنْ صَلاةِ الْعِشَاءِ إِلَى الْفَجْرِ إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، يُسَلِّمُ بَيْنَ كُلِّ رَكْعَتَيْنِ وَيُوتِرُ بِوَاحِدَةٍ»[2].

(3) متى كان رسول الله ﷺ يقوم للصلاة؟

عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُفْطِرُ مِنْ الشَّهْرِ حَتَّى نَظُنَّ أَنْهُ لا يَصُومَ مِنْهُ، وَيَصُومُ حَتَّى نَظُنَّ أَنه لا يُفْطِرَ مِنْهُ شَيْئًا، وَكَانَ لا تَشَاءُ أَنْ تَرَاهُ مِنْ اللَّيْلِ مُصَلِّيًا إِلا رَأَيْتَهُ، وَلا نَائِمًا إِلا رَأَيْتَهُ»[3].

قال الحافظ في الفتح: فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قام في أول الليل وفي وسطه وفي آخره، إلا أنه ﷺ قد أخبر عن أحب القيام إلى الله عز وجل فقال ﷺ في حديث عَبْدِاللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما: «أَحَبُّ الصَّلاةِ إِلَى اللهِ صَلاةُ دَاوُدَ عليه السلام، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللهِ صِيَامُ دَاوُدَ، وَكَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا»[4].

---

(1) رواه البخاري (1140) التهجد، ومسلم (2737) الصلاة.

(2) رواه البخاري (1123) التهجد، ومسلم (2736) الصلاة.

(3) رواه البخاري (1141) التهجد.

(4) رواه البخاري (1131) التهجد.

قال المهلَّب: كان داود عليه السلام يَجِمُّ[1] نفسه بنوم أول الليل، ثم يقوم في الوقت الذي ينادي الله فيه هَل من سائل فأعطيه سؤله، ثم يستدرك بالنوم ما يستريح به من نصب القيام في بقية الليل، وهذا هو النوم عند السحر، وإنما صارت هذه الطريقة أحب من أجل الأخذ بالرفق للنفس التي يخشى منها السآمة، وقد قال ﷺ: «فَإِنَّ اللهَ لا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا»[2]. والله يحب أن يديم فضله ويوالي إحسانه، وإنما كان ذلك أرفق لأن النوم بعد القيام يريح البدن ويذهب ضرر السهر وذبول الجسم، بخلاف السهر إلى الصباح، وفيه من المصلحة أيضًا استقبال صلاة الصبح وأذكار النهار بنشاط وإقبال، وأنه أقرب إلى عدم الرياء، لأن من نام السدس الأخير أصبح ظاهر اللون سليم القوى، فهو أقرب إلى أن يخفي عمله الماضي على من يراه، أشار إلى ذلك ابن دقيق العيد.

حكم قيام الليل:

قال ابن عبد البر: شذ بعض التابعين فأوجب قيام الليل ولو قدر حلب الشاة، والذي عليه جماعة العلماء أنه مندوب إليه، ونقل الترمذي عن إسحاق بن راهويه أنه قال: إنما قيام الليل على أصحاب القرآن، وهذا يخص ما نقل عن الحسن وهو أقرب وليس فيه التصريح بالوجوب أيضًا.

---

(1) جَمَّ الإنسانُ والفرسُ وغيرهما: جَمًّا، وجَمَامًا: استراحَ فعادت إليه قُوَّتُه.

(2) رواه البخاري (1151) التهجد، ومسلم (2785) صلاة المسافرين.

الأسباب التي بها يتيسر قيام الليل:

اعلم أن قيام الليل عسير على الخلق إلا من وفقه الله ﷻ للقيام والأسباب الميسرة له الظاهرة والباطنة سبعة.

فأما الظاهرة فأربعة:

الأول: أن لا يكثر الأكل فيكثر الشرب فيغلبه النوم كما قال بعضهم: لا تأكلوا كثيرًا فتشربوا كثيرًا فترقدوا كثيرًا.

الثاني: أن لا يتعب نفسه بالنهار في الأعمال التي تَعْيَا بِهَا الجوارح وتضعف بها الأعصاب، فإن ذلك أيضًا مجلبة للنوم.

الثالث: أن لا يترك القيلولة بالنهار للاستعانة بها على قيام الليل.

الرابع: أن لا يكثر من الأوزار بالنهار فإن ذلك مما يقسي القلب ويحول بينه وبين أسباب الرحمة.

والملوك لا يسمحون للخلوة بهم ومناجاتهم إلا أهل طاعتهم ووِدادهم والإخلاص لهم.

قالوا لابن مسعود ؓ: لا نستطيع قيام الليل؛ فقال: أبعدتكم الذنوب. وقال رجل للحسن لا أستطيع قيام الليل فصف لي دواء، قال: لا تعصه بالنهار، وهو يقيمك بين يديه بالليل.

وقال الثوري: حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أصبته.

وكان الحسن رحمه الله إذا دخل السوق فسمع لغطهم ولغوهم يقول: أظن أن ليل هؤلاء ليل سوء. فالذنوب كلها تورث قساوة القلب وتمنع من قيام الليل وأخصها بالتأثير تناول الحرام، وتؤثر اللقمة الحلال في تصفية القلب وتحريكه إلى الخير ما لا يؤثر غيرها، ويعرف ذلك أهل المراقبة للقلوب بالتجربة بعد شهادة الشرع له، ولذلك قال بعضهم: كم من أكلة منعت قيام ليلة وكم من نظرة منعت قراءة سورة، وإن العبد ليأكل أكلة أو يفعل فعلة فيحرم بها قيام سنة.

الميسرات الباطنة:

الأول: سلامة القلب عن البدع والحقد على المسلمين وعن فضول هموم الدنيا، فالمستغرق الهم بتدبير الدنيا لا يتيسر له القيام وإن قام فلا يتفكر في صلاته إلا في مهماته ولا يجول إلا في وساوسه وفي مثل ذلك يقال:

يُخَبِّرُنِي الْبَوَّابُ أَنَّكَ نَائِمٌ ... وَأَنْتَ إِذا اسْتَيْقَظْتَ أَيْضًا فَنَائِمٌ

الثاني: خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل؛ فإن العبد إذا تفكر في دركات جهنم وأهوال الآخرة طار نومه.

قال عبد الله بن رواحة: إن عبد الله إذا ذكرت الجنة طال شوقه، وإذا ذكرت النار طار نومه.

قال ابن المبارك رحمه الله:

إِذَا مَا اللَّيْلُ أَظْلَمَ كَابَدُوهُ ... فَيُسْفِرُ عَنْهُمْ وَهُمْ رُكُوعٌ

أَطَارَ الْخَوْفُ نَوْمَهُمْ فَقَامُوا وَأَهْلُ الأَمْنِ فِي الدُّنْيَا هُجُوعٌ

وقال بعضهم :

مَنَعَ الْقُرْآنُ بِوَعْدِهِ وَوَعِيده مُقَلَ الْعُيُونِ فَلَيْلَهَا لاَ تَهْجَعُ

فَهِمُوا عَنِ الْمَلِكِ الْجَلِيلِ كَلاَمَهُ فَهْمًا تَذِلُّ لَهُ الرِّقَابُ وَتَخْضَعُ

الثالث: أن يعرف فضل قيام الليل كما أوردنا من الآيات والأخبار، حتى يستحكم به رجاؤه وشوقه إلى ثوابه فيهيجه الشوق لطلب المزيد والرغبة في درجات الجنات.

الآثار في قيام الليل:

قال ابن المنكدر: ما بقي من لذات الدنيا إلا ثلاث: قيام الليل ولقاء الإخوان وصلاة الجماعة.

وقال أبو سليمان: أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا.

وكان ابن مسعود ﷺ إذا هدأت العيون قام فيسمع له دوي كدوي النحل حتى يصبح.

(9) أحوال النفس ومحاسبتها[1]

اتفق السالكون إلى ربهم عَزَّ وَجَلَّ على اختلاف طرقهم وتباين سلوكهم على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الرب، وأنه لا يدخل عليه سبحانه ولا يوصل إليه إلا بعد إماتتها وتركها بمخالفتها والظفر بها.

فإن الناس على قسمين: قسم ظفرت به نفسه فملكته وأهلكته وصار طوعًا لها تحت أوامرها، وقسم ظفروا بنفوسهم فقروها فصارت طوعًا لهم منقادة لأوامرهم.

قال بعض العارفين: انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بأنفسهم فمن ظفر بنفسه أفلح وأنجح، ومن ظفرت به نفسه خسر وهلك، قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: 37-41].

والنفس تدعو إلى الطغيان وإيثار الحياة الدنيا، والرب يدعو عبده إلى خوفه ونهي النفس عن الهوى، والقلب بين الداعيين يميل إلى هذا الداعي مرة وإلى هذا الداعي مرة، وهذا موضع المحنة والابتلاء، وقد وصف الله سبحانه النفس في القرآن بثلاث صفات: المطمئنة واللوامة والأمارة بالسوء، فاختلف الناس: هل

---

(1) انظر: كتاب «الروح» لابن القيم، وإغاثة اللهفان له كذلك.

النفس واحدة وهذه أوصاف لها، أم للعبد ثلاث أنفس؟ فالأول قول الفقهاء والمفسرين والثاني قول كثير من أهل التصوف والتحقيق أنه لا نزاع بين الفريقين فإنها واحدة باعتبار ذاتها وثلاث باعتبار صفاتها.

النفس المطمئنة:

إذا سكنت النفس إلى الله ﷻ واطمأنت بذكره وأنابت إليه واشتاقت إلى لقائه وأنست بقربه فهي مطمئنة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: المطمئنة المصدقة.

وقال قتادة رحمه الله: هو المؤمن اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله.

وصاحب هذه النفس يطمئن في باب معرفة أسماء الله ﷻ وصفاته إلى خبره الذي أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله ﷺ، ثم يطمئن إلى خبره عما بعد الموت من أمور البرزخ وما بعده من أحوال القيامة حتى كأنه يشاهد ذلك كله عيانًا، ثم يطمئن إلى قدر الله ﷻ فيسلم له ويرضى فلا يسخط ولا يشكو ولا يضطرب إيمانه فلا يأسَ على ما فاته ولا يفرح بما آتاه، لأن المصيبة فيه مقدرة قبل أن تصل إليه وقبل أن يُخلَق، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[التغابن: 11]. قال غير واحد من السلف: هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم.

وأما طمأنينة الإحسان فهي الطمأنينة إلى أمره امتثالًا وإخلاصًا ونصحًا، فلا يقدم على أمره إرادة ولا هوى ولا تقليدًا، ولا يساكن شبهة تعارض خبره ولا

شهوة تعارض أمره، بل إذا مرت به أنزلها منزلة الوساوس التي لأن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يجدها فهذا كما قال النبي ﷺ: «صَرِيحُ الإِيمَانِ»[1]. وكذلك يطمئن من قلق المعصية وانزعاجها إلى سكون التوبة وحلاوتها.

فإذا اطمأن من الشك إلى اليقين، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الخيانة إلى التوبة، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن العجز إلى الكَيْس، ومن صولة العجب إلى ذلة الإخبات، ومن التيه إلى التواضع، فعند ذلك تكون نفسه مطمئنة.

وأصل ذلك كله هي اليقظة التي كشفت عن قلبه سنة الغفلة وأضاءت له قصور الجنة فصاح قائلًا:

أَلاَ يَا نَفْسُ وَيْحَكِ سَاعِدِينِي ... بِسَعْيٍ مِنْكِ فِي ظُلَمِ اللَّيَالِي
لَعَلَّكِ فِي الْقِيَامَةِ أَنْ تَفُوزِي ... بِطِيبِ العَيْشِ فِي تِلْكَ العَلاَلِي

فرأى في ضوء هذه اليقظة ما خلق له وما سيلقاه بين يديه من حين الموت إلى دخول دار القرار، ورأى سرعة انقضاء الدنيا وقلة وفائها لبنيها وقتلها لعشاقها وفعلها بهم أنواع المثلات، فنهض في ذلك الضوء على ساق عزمه قائلًا:

---

(1) رواه مسلم (132) الإيمان ولفظه عن أبي هريرة ﷺ قال: جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلُوهُ إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ. قَالَ: «وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ»؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ».

﴿ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾[الزمر : 56]، فاستقبل بقية عمره مستدركًا ما فات محيًيا ما أمات مستقبلًا ما تقدم له من العثرات منتهزًا فرصة الإمكان التي إن فاتت فاته جميع الخيرات ثم يلحظ في نور تلك اليقظة نعمة ربه عليه ويرى أنه آيس من حصرها وإحصائها عاجز عن أداء حقها، ويرى في تلك اليقظة عيوب نفسه وآفات عمله وما تقدم له من الجنايات والإساءات والتقاعد عن كثير من الحقوق والواجبات، فتذكر نفسه وتخشع جوارحه ويسير إلى الله ناكس الرأس بين مشاهدة نعمه ومطالعة جناياته وعيوب نفسه، ويرى أيضًا في ضوء تلك اليقظة عزة وقته وخطره وأنه رأس مال سعادته فيبخل به فيما لا يقربه إلى ربه، فإن في إضاعته الخسران والحسرة وفي حفظه الربح والسعادة، فهذه آثار اليقظة وموجباتها، وهي أول منازل النفس المطمئنة التي ينشأ منها سفرها إلى الله والدار الآخرة.

النفس اللوامة:

قالت طائفة: هي التي لا تثبت على حال واحدة فهي كثيرة التقلب والتلون، فتذكر وتغفل، وتقبل وتعرض، وتحب وتبغض، وتفرح وتحزن، وترضى وتغضب، وتطيع وتتقي.

وقالت أخرى: هي نفس المؤمن. قال الحسن البصري: إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه دائمًا يقول: ما أردت بهذا؟ لم فعلت هذا؟ كان هذا أولى من هذا أو نحو هذا الكلام.

وقالت أخرى: اللوم يوم القيامة، فإن كل أحد يلوم نفسه إن كان مسيئًا على إساءته وإن كان محسنًا على تقصيره. يقول الإمام ابن القيم: وهذا كله حق.

واللوامة نوعان: لوامة ملومة، ولوامة غير ملومة.

اللوامة الملومة: هي النفس الجاهلة الظالمة التي يلومها الله ﷻ وملائكته.

اللوامة الغير ملومة: وهي التي لا تزال تلوم صاحبها على تقصيره في طاعة الله مع بذله جهده، فهذه غير ملومة، وأشرف النفوس من لامت نفسها في طاعة الله، واحتملت ملام اللوام في مرضاته، فلا تأخذها في الله لومة لائم، فهذه قد تخلصت من لوم الله، وأما من رضيت بأعمالها ولم تلم نفسها ولم تحتمل في الله ملام اللوام؛ فهي التي يلومها الله ﷻ.

النفس الأمارة بالسوء:

وهذه هي النفس المذمومة فإنها تأمر بكل سوء وهذا من طبيعتها، فما تخلص أحد من شرها إلا بتوفيق الله، كما قال تعالى حاكيًا عن امرأة العزيز: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: 53].

وقال ﷻ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: 21]. وكان النبي ﷺ يعلمهم خطبة الحاجة «إِنَّ الْحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ. مَنْ يَهْدِهِ الله فَلاَ مُضِلَّ لَهُ. وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ. وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ. وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَمَّا بَعْدُ»(1). فالشر كامن في النفس وهو يوجب

---

(1) رواه مسلم (868) الجمعة، والنسائي (3277) النكاح.

سيئات الأعمال فإذا خلى الله بين العبد وبين نفسه هلك بين شرها وما تقتضيه من سيئات الأعمال وإن وفقه الله وأعانه نجا من ذلك كله ؛ فنسأل الله العظيم أن يعيذنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.

وخلاصة القول: إن النفس واحدة تكون أمَّارة ثم لوَّامة ثم مطمئنة، وهي غاية كمالها وصلاحها، والنفس المطمئنة قرينها الملك يليها ويسددها ويقذف فيها الحق ويرغبها فيه ويريها حسن صورته، وبالجملة فما كان لله وبالله فهو من عند النفس المطمئنة، وأما النفس الأمارة بالسوء فجعل الشيطانَ قرينها وصاحبها الذي يليها فهو يعدها ويمنيها ويقذف فيها الباطل ويأمرها بالسوء ويزينه لها، ويطيل في الأمل ويريها الباطل في صورة تقبلها وتستحسنها.

فالنفس المطمئنة والملك من الإيمان يقتضيان من النفس المطمئنة التوحيد والإحسان والبر والتقوى والتوكل والتوبة والإنابة والإقبال على الله وقصر الأمل والاستعداد للموت وما بعده، والشيطان وجنده من الكفر يقتضيان من النفس الأمارة ضد ذلك.

وأصعب شيء على النفس المطمئنة تخليص الأعمال من الشيطان ومن الأمارة فلو وصل منها عمل واحد لَنَجَا به العبد، ولكن أبت الأمارة والشيطان أن يَدَعَا عملًا واحدًا يصل إلى الله، كما قال بعض العارفين: «والله لو أعلم أن لي عملًا واحدًا وصل إلى الله لكنت أفرح بالموت من الغائب يقدم على أهله». وقال

عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : «لو أعلم أن الله قبل مني سجدة واحدة لم يكن غائب أحب إِلَيَّ من الموت».

وقد انتصبت الأمارة في مقابلة المطمئنة، فكما جاءت به تلك من خير ضاهتها هذه وجاءت من الشر بما يقابله حتى تفسده عليها، فتريه حقيقة الجهاد في صورة تقتل النفس وتنكح الزوجة ويصير الأولاد يتامى وقسم المال، وتريه حقيقة الزكاة والصدقة في صورة مفارقة المال ونقصه وخلو اليد منه، واحتياجه إلى الناس ومساواته للفقير.

***

محاسبة النفس

وعلاج استيلاء النفس الأمَّارة على القلب المؤمن محاسبتها ومخالفتها.

أخرج الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ، وَإِنَّمَا يَخِفُّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا. وَيُرْوَى عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ، قَالَ: لاَ يَكُونُ الْعَبْدُ تَقِيًّا، حَتَّى يُحَاسِبَ نَفْسَهُ كَمَا يُحَاسِبُ شَرِيكَهُ مِنْ أَيْنَ مَطْعَمُهُ وَمَلْبَسُهُ»[1].

وقال الحسن: «المؤمن قوام على نفسه يحاسب نفسه لله، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة، إن المؤمن يفاجئه الشيء ويعجبه فيقول والله إني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من حيلة إليك، هيهات حيل بيني وبينك، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول ما أردت إلى هذا، مالي ولهذا، والله لا أعود إلى هذا أبدًا، إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن، وحال بين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئًا حتى يلقى الله، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وفي بصره وفي لسانه وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كله».

قال مالك بن دينار: «رحم الله عبدًا قال لنفسه ألست صاحبة كذا، ألست صاحبة كذا، ثم زمها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله ﷻ فكان لها قائدًا».

---

(1) رواه الترمذي (2459م) صفة القيامة.

فحق على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر ألا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها، قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران: 30].

ومحاسبة النفس نوعان نوع قبل العمل ونوع بعده:

أما النوع الأول: فهو أن يقف عند أول همه وإرادته ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه.

قال الحسن رحمه الله: «رحم الله عبدًا وقف عند همه، فإن كان لله أمضاه، وإن كان لغيره تأخر».

وشرح بعضهم هذا فقال: إذا تحركت النفس لعمل من الأعمال وهم به العبد وقف أولًا ونظر هل ذلك العمل مقدور عليه أو غير مقدور عليه ولا مستطاع، فإن لم يكن مقدورًا عليه لم يقدم عليه، وإن كان مقدورًا عليه وقف وقفة أخرى ونظر، هل فعله خير من تركه؟ أو تركه خير له من فعله؟ فإن كان الثاني تركه ولم يقدم عليه، وإن كان الأول وقف وقفة ثالثة هل الباعث عليه إرادة وجه الله عز وجل وثوابه أو إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق؟.

فإن كان الثاني لم يقدم وإن أفضى به إلى مطلوبه، لئلا تعتاد النفس الشرك ويخفف عليها العمل لغير الله، فبقدر ما يخف عليها ذلك يثقل عليها العمل لله

تعالى حتى يصير أثقل شيء عليها ، وإن كان الأول وقف وقفة أخرى ونظر هل هو معان عليه وله أعوان يساعدونه وينصرونه إذا كان العمل محتاجًا إلى ذلك أم لا ؟ فإن لم يكن له أعوان أمسك عنه ، كما أمسك النبي ﷺ عن الجهاد بمكة حتى صارتْ له شوكة وأنصار ، وإن وجده مُعانًا عليه فليقدم عليه فإنه منصور بإذن الله ولا يفوت النجاح إلا من فوت خصلة من هذه الخصال وإلا فمع اجتماعها لا يفوته النجاح ، فهذه أربعة مقامات يحتاج العبد إلى محاسبة نفسه عليها قبل العمل.

وأما النوع الثاني : فمحاسبة النفس بعد العمل وهو ثلاثة أنواع :

أحدها : محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله تعالى فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي ، وحق الله في الطاعة ستة أمور : الإخلاص في العمل ، والنصيحة لله فيه ، ومتابعة الرسول ﷺ وشهود مشهد الإحسان وشهود منة الله ، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله.

فيحاسب نفسه هل وَفَّى هذه المقامات حقها؟ وهل أتى بها في هذه الطاعة؟

الثاني : أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيرًا له من فعله.

الثالث : أن يحاسب نفسه على أمر مباح لِمَ فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة؟ فيكون رابحًا ، أو أراد به الدنيا وعاجلها فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به.

وآخر ما عليه الإهمال وترك المحاسبة والاسترسال وتسهيل الأمور وتمشيتها فإن هذا يؤول به إلى الهلاك ، وهذه حال أهل الغرور يغمض عينيه عن العواقب

ويتكل على العفو فيهمل محاسبة نفسه والنظر في العاقبة وإذا فعل ذلك سهل عليه مُواقعة الذنوب وأنس بها وعسر عليه فطامها ولو حضره رشده لعلم أن الحمية أسهل من الفطام وترك المألوف والمعتاد.

وجماع ذلك: أن يحاسب نفسه أولًا على الفرائض فإن تذكر نقصًا تداركه إما بقضاء أو إصلاح، ثم يحاسبها على المناهي؛ فإن عرف أنه ارتكب منها شيئًا تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية، ثم يحاسب نفسه على الغفلة؛ فإن كان قد غفل عما خلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى، ثم يحاسبها بما تكلم به أو مشته رجلاه أو بطشت يداه أو سمعته أذناه ماذا أرادت بهذا؟ ولِمَ فعلته وعلى أي وجه فعلته، قال الله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: 92، 93].

وقال تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ [الأعراف: 6، 7].

وقال تعالى: ﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ [الأحزاب: 8].

فإذا سُئِلَ الصادقون وحُوسبوا على صدقهم فما الظن بالكاذبين.

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: 8].

قال محمد بن جرير رحمه الله: يقول تعالى ثم ليسألنكم الله عز وجل عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا: ماذا عملتم فيه؟ ومن أين وصلتم إليه؟ وفيم أصبتموه؟ وماذا عملتم به؟.

وقال قتادة: إن الله سائل كل عبد عما استودعه من نعمه وحقه.

والنعيم المسئول عنه نوعان: نوع أخذ من حله وصرف في حقه فيسأل عن شكره، ونوع أخذ بغير حله وصرف في غير حقه فيسأل عن مستخرجه ومصرفه.

فإذا كان العبد مسئولًا ومحاسبًا على كل شيء حتى على سمعه وبصره وقلبه كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: 36]. فهو حقيق أن يحاسب نفسه قبل أن يناقش الحساب.

وقد دل على وجوب محاسبة النفس قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [الحشر: 18].

يقول: لينظر أحدكم ما قدم ليوم القيامة من الأعمال، أَمِنَ الصالحات التي تنجيه، أم من السيئات التي توبقه؟

قال قتادة: مازال ربكم يقرب الساعة حتى جعلها كغد.

والمقصود أن صلاح القلب بمحاسبة النفس وفسادها بإهمالها والاسترسال معها.

***

فوائد محاسبة النفس

من فوائد محاسبة النفس: الاطلاع على عيوبها ومن لم يطلع على عيب نفسه لم يمكنه إزالته، فإذا أطلع على عيبها، مقتها في ذات الله تعالى.

روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء ﷺ عنه قال: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في جنب الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتًا».

قال محمد بن واسع: لو كان للذنوب ريح ما قدر أحد يجلس إلَيَّ.

قال أبو حفص: «من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها إلى مكروهها في سائر أوقاته؛ كان مغرورًا، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها.

وعن عقبة بن صهبان الهنائي قال: سألت عائشة رضي الله عنها عن قول الله ﷻ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر: 32].

فقالت: «يا بني، هؤلاء في الجنة أما السابق فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ وشهد له رسول الله ﷺ بالجنة والرزق، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلك، فجعلت نفسها معنا».

وفي كتاب الزهد للإمام أحمد: «أن رجلًا من بني إسرائيل تعبد ستين سنة في طلب حاجة فلم يظفر بها، فقال في نفسه والله لو كان فيك خير لظفرت بحاجتك،

فأُتِيَ في منامه فقيل له: أرأيت ازدراءك نفسك تلك الساعة فإنه خير من عبادتك تلك السنين». فالنفس داعية إلى المهالك معينة للأعداء طامحة إلى كل قبيح متبعة لكل سوء، فهي تجري بطبعها في ميدان المخالفة.

فالنعمة التي لا خطر لها الخروج منها والتخلص من رقها فإنها أعظم حجاب بين العبد وبين الله تعالى، وأعرف الناس بها أشدهم ازدراءًا عليها ومقتًا لها.

ومقت النفس في ذات الله من صفات الصديقين ويدنو العبد به من الله تعالى في لحظة واحدة أضعاف ما يدنو بالعمل.

ومن فوائد محاسبة النفس أيضًا: أن يعرف العبد بذلك حق الله تعالى ومن لم يعرف حق الله تعالى عليه فإن عبادته لا تكاد تجدي عليه وهي قليلة المنفعة جدًا.

فمن أنفع ما للقلب النظر في حق الله على العباد فإن ذلك يورثه مقت نفسه والإزراء عليها ويخلصه من العجب ورؤية العمل ويفتح له باب الخضوع والذل والانكسار بين يدي ربه واليأس من نفسه وأن النجاة لا تحصل إلا بعفو الله ومغفرته ورحمته، فإن من حقه أن يُطاع ولا يُعصى وأن يُذكر فلا يُنسى وأن يُشكر فلا يُكفر.

فمن نظر في هذا الحق الذي لربه عليه عَلِمَ عِلْمَ اليقين أنه غير مؤدٍ له كما ينبغي، وأنه لا يسعه إلا العفو والمغفرة، وأنه إن أُحيل على عملِهِ هلك.

فهذا محل نظر أهل المعرفة بالله تعالى وبنفوسهم، وهذا الذي أيأسهم من أنفسهم وعلق رجاءهم كله بعفو الله ورحمته.

وإذا تأملت حال أكثر الناس وجدتهم بضد ذلك ينظرون في حقهم على الله ولا ينظرون في حق الله عليهم، ومن هنا انقطعوا عن الله وحجبت قلوبهم عن معرفته ومحبته والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره، وهذا غاية جهل الإنسان بربه وبنفسه.

فمحاسبة النفس هو نظر العبد في حق الله عليه أولًا، ثم نظره هل قام به كما ينبغي، وأفضل الفكر الفكر في ذلك؛ فإنه يسير القلب إلى الله ويطرحه بين يديه ذليلًا خاضعًا منكسرًا كسرًا فيه جبره ومفتقرًا فقرًا فيه غناه وذليلًا ذلًا فيه عزه، ولو عمل من الأعمال ما عساه أن يعمل فإنه إذا فاته هذا فالذي فاته من البر أفضل من الذي ناله.

***

(10) داء الرياء(1)

دلت أدلة الكتاب والسنة والأخبار على تحريم الرياء وذم فاعله.

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ [الماعون: 4-6].

ويقول الله ﷻ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110].

وفي الحديث القدسي يقول الله ﷻ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ. مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي، غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(2).

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ». قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الرِّيَاءُ. يَقُولُ اللهُ ﷻ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً»(3).

---

(1) انظر: إحياء علوم الدين.

(2) رواه مسلم (2985) الزهد وقال النووي: هكذا وقع في بعض الأصول «وشركه» وفي بعضها وشريكه وفي بعضها وشركته، ومعناه أنا غني عن المشاركة وغيرها، فمن عمل شيئًا لي ولغيري لم أقبله بل أتركه لذلك الغير، والمراد أن عمل المرائي باطل الثواب فيه ويأثم به.

(3) رواه أحمد (5/ 428، 429)، والبغوي في شرح السنة (14/ 324) وابن حبان (2499) موارد بمعناه وقال المنذري إسناده جيد وصححه الألباني.

رأى أبو أمامة الباهلي رجلًا في المسجد يبكي في سجوده فقال: أنتَ أنتَ لو كان هذا في بَيْتِكَ.

بيان حقيقة الرياء وجوامع ما يراءى له:

الرياء مشتق من الرؤية، وأصله طلب المنزلة في قلوب الناس بإرائهم خصال الخير، والمراد به كثير ويجمعه خمسة أقسام وهي جوامع ما يتزين به العبد للناس وهي: البدن والزي والقول والعمل والاتباع والأشياء الخارجة.

فأما الرياء في الدين بالبدن فبإظهار النحول والصفار ليوهم بذلك شدة الاجتهاد وعظم الحزن على أمر الدين وغلبة خوف الآخرة.

وأما الرياء بالهيئة والزي فمثل تشعيث الشعر، وإطراق الرأس في المشي، والهدوء في الحركة، وإبقاء أثر السجود على الوجه، كل ذلك يراءَى به.

وأما الرياء بالقول فرياء أهل الدين بالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة والآثار لإظهار شدة العناية بأحوال الصالحين، وتحريك الشفتين بالذكر محضر الناس.

وأما الرياء في العمل فكمراءاة المصلي بطول القيام وطول السجود والركوع وإطراق الرأس وترك الالتفات.

وأما المراءاة بالأصحاب والزائرين كالذي يتكلف أن يستزير عالمًا من العلماء ليقال: إن فلانًا قد زار فلانًا.

بيان المرائي لأجله:

اعلم أن للمرائي مقصودًا لا محالة وإنما يرائي لإدراك حال أو جاه أو غرض من الأغراض، وله درجات.

أحدها: أن يكون مقصوده التمكن من معصيته كالذي يرائي بعبادته ويظهر التقوى والورع وغرضه أن يعرف بالأمانة فيولى منصبًا أو يسلم إليه تفرقة مال ليستأثر بما قدر عليه منه، وهؤلاء أبغض المرائين إلى الله تعالى، لأنهم جعلوا طاعة ربهم سلمًا إلى معصيته.

ثانيها: أن يكون غرضه نيل حظ من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح كالذي يظهر العلم والعبادة ليرغب في تزويجه أو إعطائه، فهذا رياء محظور لأنه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا ولكنه دون الأول.

الثالث: ألاّ يقصد نيل حظ وإدراك مال أو نكاح، ولكنه يظهر عبادته خوفًا من أن ينظر إليه بعين النقص ولا يعد من الخاصة والزهاد، ويُعتقد أنه من جملة العامة.

بيان الرياء الخفي:

الرياء جلي وخفي: فالجلي هو الذي يبعث على العلم ويحمل عليه ولو قصد الثواب وهو أجلاه، وأخفى منه قليلًا الذي لا يحمل على العمل بمجرده إلا أنه يخفف العمل الذي يريد به وجه الله كالذي يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه فإذا نزل عنده ضيف تنشط له وخف عليه، ومن الرياء الخفي كذلك أن يخفي العبد

طاعته ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يقابلوه بالبشاشة والتوقير، وأن يثنوا عليه، وأن ينشطوا في قضاء حوائجه، وأن يسامحوه في البيع والشراء، وأن يوسعوا له المكان فإن قَصَّر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه، ولم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي يجتهدون في إخفاء طاعتهم أعظم مما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم، كل ذلك رجاء أن تخلص أعمالهم الصالحة فيجازيهم اللهُ يوم القيامة بإخلاصهم إذ علموا أنه لا يقبل يوم القيامة إلا الخالص، وعلموا شدة حاجتهم وفاقتهم في القيامة.

بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب منه:

عرفت أن الرياء محبطٌ للأعمال، وسبب للمقت عند الكبير المتعال، وأنه من كبائر المهلكات، وما هذا وصفه فجدير بالتشمير عن ساق الجد في إزالته، وفي علاجه مقامات:

أحدهما: قطع عروقه وأصوله وهي حب لذة المحمدة والفرار من ألم الذم والطمع فيما في أيدي الناس، فهذه الثلاثة هي التي تحرك المرائي إلى الرياء، وعلاجه أن يعلم مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه وما يحرم عليه في الحال من التوفيق وفي الآخرة من المنزلة عند الله تعالى، وما يتعرض له من العقاب والمقت الشديد والخزي الظاهر، فمهما تفكر العبد في هذا الخزي وقابل ما يحصل له من العباد والتزين لهم في الدنيا بما يفوته في الآخرة وبما يحبط عليه من ثواب الأعمال فإنه يسهل عليه قطع الرغبة عنه كمن يعلم أن العسل لذيذ ولكنه إذا بان له أن فيه سمًّا أعرض عنه.

المقام الثاني: دفع العارض منه أثناء العبادة وذلك لابد أيضًا من تعلمه فإن من جاهد نفسه بقطع مغارس الرياء وقطع الطمع واستحقار مدح المخلوقين وذمهم فقد لا يتركه الشيطان في أثناء العبادة بل يعارضه بخطرات الرياء فإذا خطر له معرفة اطلاع الخلق دفع ذلك بأن قال لنفسه مالك وللخلق علموا أو لم يعلموا والله عالم بحالك فأي فائدة في علم غيره، فإذا هاجت الرغبة إلى لذة الحمد ذكر ما رسخ في قلبه من قبل آفة الرياء وتعرضه للمقت الإلهي والخسران الأخروي.

بيان الخطأ في ترك الطاعات خوفًا من الرياء:

من الناس من يترك العمل خوفًا من أن يكون مرائيًا به، وذلك غلط وموافقة للشيطان وجر إلى البطالة وترك الخير، فما دام الباعث على العمل صحيحًا وهو في ذاته موافق للشرع الحنيف فلا يترك العمل لوجود خاطر الرياء، بل على العبد أن يجاهد خاطر الرياء ويلزم قلبه الحياء من الله وأن يستبدل بحمده حمد المخلوقين.

قال الفضيل بن عياض: العمل من أجل الناس شرك، وترك العمل من أجل الناس رياء، والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

وقال غيره: من ترك العمل خوفًا من الإخلاص فقد ترك الإخلاص والعمل.

***

(٦٦) داء الكبر(1)

قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: 146].

وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: 35].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: 23].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60]

وقال ﷺ: «الْعِزُّ إِزَارُهُ. وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ. فَمَنْ يُنَازِعُنِي، عَذَّبْتُهُ»(2).

وقال ﷺ: «لا يَنْظُرُ اللهُ إِلَى مَنْ يَجُرُّ إِزَارَهُ بَطَرًا»(3).

---

(1) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي.

(2) رواه مسلم (2620) البر والصلة بلفظ «العزُّ إزاري»، وأبي داود (4090) بلفظة اللباس، وقال الخطابي: معنى هذا الكلام أن الكبرياء والعظمة صفتان لله سبحانه، واختص بهما لا يشركه أحد فيهما ولا ينبغ لمخلوق أن يتعاطاهما لأن صفة المخلوق التواضع والتذلل، وضرب الرداء والإزار مثلًا في ذلك يقول والله أعلم كما لا يشرك الإنسان في ردائه وإزاره فكذلك لا يشركني في الكبرياء والعظمة مخلوق - عون المعبود (11/ 150).

(3) رواه البخاري (5788) اللباس، ومسلم (2087) اللباس والموطأ (2/ 914) وقال ابن الأثير: الخيلاء: الكبر والعُجب.

وروى مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ». قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ»[1]. ومعنى بطر الحق الاستنكاف عن قبوله ورده والنظر إليه بعين الاستصغار وذلك للترفع والتعاظم، ومعنى غمط الناس: ازدراؤهم واستحقارهم.

بيان ما يتكبر به:

أولاً: العلم: وما أسرع الكبر إلى بعض العلماء فلا يلبث أن يستشعر في نفسه كمال العلم؛ فيستعظم نفسه ويستحقر الناس ويستجهلهم ويستخدم من خالطه منهم وقد يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم.

الثاني: الكبر بالحسب والنسب؛ فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب، وإن كان أرفع منه علمًا وعملًا، وهذا من فعل الجاهلية كما جاء أن أبا ذر رضي الله عنه قَالَ إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا، فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ»[2].

الثالث: الكبر بالمال: وذلك يجري بين الأغنياء في لباسهم وخيولهم ومراكبهم فيستحقر الغني الفقير ويتكبر عليه، وكل ذلك جهل منهم بفضيلة الفقر وآفة الغنى.

---

(1) رواه مسلم (91) الإيمان، وأبي داود (4092) اللباس، والترمذي (1999) البر والصلة.

(2) رواه البخاري (30) الإيمان، ومسلم (1661) الأيمان.

الرابع: التكبر بالأتباع والأنصار والعشيرة، فهذه بعض ما يتكبر به الناس بعضهم على بعض، نسأله تعالى العون بلطفه ورحمته.

واعلم أن التكبر في شمائل الرجل كالتصعير في وجهه والنظر شزرًا وفي أقواله حتى في صوته ونغمته، ويظهر في مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع في بعض، فمنها التكبر بأن يحب قيام الناس له، أو بين يديه، ومنها ألاَّ يمشي إلا ومعه غيره يمشي خلفه، ومنها ألاَّ يتعاطى بيده شغلًا في بيته، والتواضع خلافه.

جاء أن عمر بن العزيز أتاه ليلة ضيوف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ فقال الضيف: أقوم إلى السراج فأصلحه؟ فقال: ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه!. قال: أَفَأُنَبِّهُ الغلام؟ فقال: هي أول نومة نامها، فقام وملأ المصباح زيتًا فقال الضيف قمت أنت يا أمير المؤمنين؟! فقال: ذهبت وأنا عمر، ورجعت وأنا عمر، ما نقص مني شيء وخير الناس من كان عند الله متواضعًا.

وبالجملة فمجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبي ﷺ فينبغي أن يقتدي به. قال ابن أبي سلمة قلت لأبي سعيد الخدري: ما ترى فيما أحدث الناس من الملبس والمشرب والمركب والمطعم؟ فقال: يا ابن أخي كل لله واشرب لله والبس لله، وكل شيء من ذلك دخله زهو أو مباهات أو رياء أو سمعة فهو معصية وسرف، وعالج في بيتك من الخدمة ما كان يعالج رسول الله ﷺ في بيته، كان يحلب الشاة، ويخصف النعلَ، ويرقع الثوب ويأكل مع خادمه، ويشتري الشيء من

السوق لا يمنعه الحياء أن يعلق الإناء بيده، ويصافح الغني والفقير، ويسلم مبتدئًا على كل من استقبله من صغير أو كبير، يجيب إذا دُعي، ولا يحقر ما دُعي إليه، لين الخلق جميل المعاشرة طليق الوجه، شديد في غير عنف، متواضع في غير مذلة جواد من غير سرف، رقيق القلب، زادت عائشة ﵂ وأنه ﷺ لم يمتلئ قط شبعًا ولم يبث إلى أحد شكوى وكان يقول: «الْبَذَاذَةُ مِنَ الإِيمَانِ»[1].

فقال هارون سألت عن معنى البذاذة فقال: هو الدون من اللباس، فمن طلب التواضع فليقتد به ﷺ، ومن لم يرض لنفسه بذلك فما أشد جهله فلقد كان ﷺ أعظم خلق الله في الدنيا والدين، فلا عز ولا رفعة إلا في الاقتداء به.

قال كعب ﵁: ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا ورفع بها درجته في الآخرة.

الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع:

اعلم أن الكبر من المهلكات وإزالته فرض عين، ولا يزول بمجرد التمني بل بالمعالجة، وفي معالجته مقامات.

---

(1) رواه أبي داود (4161) الترجل، وابن ماجه (4193) الزهد، الحاكم (1/ 9) وقال: احتج مسلم بصالح ابن أبي صالح السمان ووافقه الذهبي وصححه الألباني في الصحيحة رقم (341)، و الْبَذَاذَةُ رثاثة الهيئة أراد التواضع في اللباس، وترك التبجح به، ومنه بهيئة بذة أي: سيئة تدل على الفقر - تلخيص الذهبي على المستدرك (1/ 9).

أحدهما: قطع شجرته من مغرسها في القلب.

الثاني: دفع العارض منه بالأسباب التي قد يتكبر بها.

المقام الأول: في استئصال أصله، وعلاجه علميًا وعمليًا، ولا يتم الشفاء إلا بمجموعهما إن شاء الله تعالى.

أما العلمي: فهو أن يعرف نفسه ويعرف صفات ربه تبارك وتعالى ويكفيه ذلك في إزالة الكبر فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة؛ علم أنه لا يليق به إلا التواضع، وإذا علم صفات ربه ﷻ؛ علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا لله ﷻ.

المقام الثاني: يدفع العارض منه بالأسباب التي ذكرناها فمن تكبر بنسبه فليداوي قلبه بمعرفة أن هذا جهل من حيث إنه تعزز بكمال غيره ولذلك قال الشاعر:

لَـئِنْ فَخَـرْتَ بِآبَـاءٍ ذَوِي نَسَـبٍ ... لَقَدْ صَدَقْتَ وَلَكِنْ بِئْسَ مَـا وَلَـدُوا

ومن كان خسيسًا فمن أين يجبر خسته بكمال غيره؟ وبمعرفة نسبه الحقيقي، أعني أباه وجده فإن أباه القريب وجده البعيد تراب ولقد عرف الله تعالى نسبه فقال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: 7، 8].

أما التكبر بالغنى وكثرة المال وفي معناه كثرة الأتباع والأنصار والتكبر بالمناصب والولايات فكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان وهذا أقبح أنواع الكبر، فلو ذهب ماله أو احترقت داره لعاد ذليلًا وكم من اليهود من يزيد عليه في الغنى والثروة والتجمل فأفٍ لشرف يسبقه يهودي أو يأخذه سارق في لحظة فيعود ذليلًا مفلسًا.

أما التكبر بالعلم والعبادة وهو أعظم الآفات بأمرين:

أحدهما: أن يعلم أن حجة الله على أهل العلم آكد وأنه يحتمل من الجاهل ما لا يحتمل عُشْرُهُ من العالم، فإن عصى الله تعالى عن معرفة وعلم فجنايته أفحش وخطره أعظم.

ثانيهما: أن يعرف أن الكبر لا يليق إلا بالله ﷻ وحده، وأنه إذا تكبر صار عند الله ممقوتًا بغيضًا، فهذا مما يزيل التكبر ويبعث على التواضع.

***

(12) العجب[1]

اعلم أن العجب مذموم في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: 25].

وقال ﷻ: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ [الحشر: 2].

وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: 104].

وهذا يرجع أيضًا إلى العجب بالعمل وقال ﷺ: «ثَلاثٌ مُنَجِّيَاتٍ وثَلاثٌ مُهْلِكَاتٌ، فَأَمَّا الْمُنَجِّيَاتُ: فتقوى اللهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلانِيَةِ، والقول بالحق في الرضا والسخط، وَالْقَصْدُ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ: فَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بنفسِهِ، وهي أشدهن»[2].

وقال ﷺ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ، يَمْشِي فِي بُرْدَيْهِ، قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ، فَخَسَفَ الله بِهِ الأَرْضَ؛ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[3].

---

(1) انظر: إحياء علوم الدين.

(2) رواه البزار رقم (80)، وأبو نعيم في الحلية (2/ 343) والبيهقي في شعب الإيمان (2/ 382/ 1) وقال الألباني بعد أن ذكر طرقه وبالجملة فالحديث بمجموع هذه الطرق حسن على أقل الدرجات إن شاء الله وبه جزم المنذري - الصحيحة (1802).

(3) رواه البخاري (5789) اللباس، ومسلم (2088م) اللباس.

قوله: يتجلجل في الأرض أي ساخ فيها.

وقال ابن مسعود ﷺ: الهلاك في اثنتين: القنوط والعجب.

وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالسعي والطلب والجد والتشمير، والقنوط لا يسعى ولا يطلب، والمعجب يعتقد أنه قد سعد وظفر بمراده فلا يسعى، وقال الله تعالى: ﴿ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى ﴾ [البقرة: 264].

والمن نتيجة استعظام العمل وهو العُجب.

بيان خطر داء العجب:

اعلم أن خطر داء العجب عظيم فإن العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه فيتولد من العجب الكبر، ومن الكبر آفات كثيرة لا تخفى هذا مع العباد، وأما مع الله تعالى فالعجب يدعو إلى إهمال الذنوب ونسيانها، فلا يحدث لها توبة ويستعظم أعماله وطاعاته ويمن على الله بفعلها، والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه ويظن أنه عند الله بمكان ولا يسمع نصح ناصح ولا وعظ واعظ، ويمنعه عجبه عن سؤال أهل العلم فهذا وأمثاله من آفات العجب، فلذلك كان من المهلكات، ومن أعظم آفاته أن يفتر في السعي لظنه أنه قد فاز، وأنه قد استغنى، وهو الهلاك الصريح. نسأل الله العظيم حسن التوفيق لطاعته.

بيان علاج العجب على الجملة:

اعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده وعلة العجب الجهل المحض، أي جهل العبد بنفسه وبربه ﷻ؛ فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل، فالعجب إما بالعلم أو المال أو النسب وكل ذلك بفضل الله ﷻ، ومنه ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: 53]. وقال تعالى: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: 79]. والحسنة في الآية هي النعمة والسيئة هي المصيبة وأعظم النعم هي نعمة الهداية والتوفيق للعلم والعمل فمنشأ العجب هو الجهل وكفران نعمة الله ﷻ على العبد، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: 21]. والعبد مهما بلغ في العلم والعمل فإنه لا يدخل به الجنة حتى يتغمده الله ﷻ برحمته كما قال سيد الخلق ﷺ وأفضلهم لأصحابه وهم خير الناس: «لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ». قَالُوا: وَلا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلا أَنَا. إلا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ الله بِرَحْمَةٍ»(1).

قال بعضهم: لا تغتر بكثرة العمل فإنك لا تدري أيقبل منك أم لا، ولا تأمن من الذنوب فإنك لا تدري كُفِّرَت عنك أم لا، إن عملك كله مغيب عنك. أما المال

---

(1) رواه البخاري (6463) الرقاق، ومسلم (2816) صفة القيامة، وأحمد (32/ 451)، والدارمي (2/ 305، 306).

وانظر: شرح الحديث في الفتح (11/ 295، 296) وكذلك كلام شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم.

فليس للعبد فضل فيه بل هو محض فضل من الله ﷻ وقد أخبر الله ﷻ عن الكافر الذي أعجب بماله فقال: ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ [الكهف: 34].

وقال عن قارون: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص: 78]. وأخبر ﷻ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: 13].

وقال ﷺ: «إِنَّ اللهَ ﷻ قدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ - أي كبرها - وَفَخْرَهَا بِالآبَاءِ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ»[1].

***

---

(1) رواه أبي داود (5116) الأدب، والترمذي (3955) المناقب وقال: هذا حديث حسن غريب وحسنه الألباني.

(13) التوبة[1]

التوبة من الذنوب بالرجوع إلى علام الغيوب وغفار الذنوب مبدأ طريق السالكين، ورأس مال الفائزين، وأول إقدام المريدين، ومفاتح استقامة المائلين، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين.

ومنزل التوبة أول المنازل وأوسطها وآخرها، فلا يفارقه العبد السالك ولا يزال فيه إلى الممات وإن ارتحل به واستصحبه معه ونزل به، فالتوبة هي بداية الطريق ونهايته وقد قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: 31].

وهذه الآية في سورة مدنية خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وجهادهم، ثم علق الفلاح بالتوبة وأتى بكلمة ﴿لَعَلَّ﴾ إيذانًا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون - جعلنا الله منهم - وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: 11]. فقسم العباد إلى تائب وظالم وليس ثمَّ قسم ثالث، وأوقع اسم الظلم على من لم يتب، ولا أظلم منه لجهله بربه وبحقه وبعيب نفسه وآفات عمله، وقد قال ﷺ: «وَاللهِ إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»[2]. وهو أعلم الخلق بالله ﷻ.

---

(1) انظر: مدارج السالكين، رياض الصالحين.

(2) رواه البخاري (6307) الدعوات، ومسلم (2702 مائة مرة) الذكر والدعاء.

والتوبة هي رجوع العبد إلى الله ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين.

شرائط التوبة:

إذا كان الذنب في حق الله ﷻ فشرائط التوبة ثلاث: هي الندم، والإقلاع عن الذنب، والعزم على عدم العودة.

فأما الندم: فإنه لا تتحقق التوبة إلا به، إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به وإصراره عليه.

وأما الإقلاع: عن الذنب فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب.

والشرط الثالث: هو العزم على عدم العودة، ويعتمد أساسًا على إخلاص هذا العزم والصدق فيه، وشرط بعض العلماء عدم الذنب، وقال متى عاد إليه تَبَيَّنَّا أن توبته كانت باطلةً غير صحيحة، والأكثرون على أن ذلك ليس بشرط، فكم من محبٍ للصحة ويأكل ما يضره.

أما إذا كان الذنب متضمنًا لحق آدم فعلى التائب أن يصلح ما أفسد، أو يسترضي من أخطأ في حقه لقوله ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأَحَدٍ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ»[1]. فهذا الذنب يتضمن حقين: حق الله، وحق الآدمي، فالتوبة منه بتحلل الأدمي لأجل حقه، والندم فيما بينه وبين الله لأجل حقه.

---

(1) رواه البخاري (2449) المظالم، والترمذي (2419) صفة القيامة بمعناه.

بعض التوبات الخاصة:

❋ إذا كانت المظلمة بقدح في الآدمي بغيبة أو بقذف فهل يشترط إعلامه؟

اشترط أبو حنيفة ومالك وغيرهما الإعلام، واحتجوا بالحديث السابق، والقول الآخر أنه لا يشترط الإعلام بل يكفي توبته بينه وبين الله وأن يذكر المغتاب أو المقذوف في مواضع غيبته أو قذفه بضد ما ذكره به، ويستغفر له وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، واحتج لذلك بأن إعلامه مفسدة محضة لا تتضمن مصلحة وما كان هكذا فإن الشارع لا يبيحه فضلًا عن أن يوجبه أو يأمر به.

❋ أما توبة من اغتصب مالًا فعليه رد هذا المال إلى أصحابه، فإن تعذر عليه رده لجهله بأصحابه أو لانقراضهم أو لغير ذلك فعليه أن يتصدق بتلك الأموال عن أربابها، فإذا كان يوم استيفاء الحقوق كان لهم الخيار بين أن يجيزوا ما فعل وتكون أجورهم لهم، وبين ألاَّ يجيزون ما فعل ويأخذون مِنْ حسناته بقدر أموالهم، ويكون ثواب تلك الصدقة له إذ لا يبطل الله سبحانه ثوابها، فقد رُوي أن ابن مسعود ﷺ اشترى من رجل جارية، ودخل يزن له الثمن، فذهب رب الجارية، فانتظره حتى يئس من عودته، فتصدق بالثمن، وقال اللهم هذا عن رب الجارية، فإن رضي فالأجر له، وإن أبى فالأجر لي، وله من حسناتي بقدره.

❋ وأما توبة من عاوض غيره معاوضة محرمة وقبض العوض كبائع الخمر والمغني وشاهد الزور ثم تاب والعوض بيده، فقالت طائفة يرده إلى مالكه إن هو عين

ماله، ولم يقبضه بإذن الشارع ولا حصل لربه في مقابلته نفع مباح، وقالت طائفة وهو الأصوب بل توبته بالتصدق به وكيف يرد إلى دافعه مالًا استعان به على معاصي الله وهكذا توبة من اختلط ماله الحلال بمال حرام وتعذر عليه تمييزه فعليه أن يقدر الحرام ويتصدق به ويطهر بقية ماله والله أعلم.

مسألة:

إذا تاب العبد من الذنب هل يرجع إلى ما كان عليه قبل الذنب من الدرجة التي حطه عنها الذنب أو لا يرجع إليها؟

قالت طائفة: يرجع إلى درجته لأن التوبة تجب الذنب بالكلية وتصيره كأن لم يكن.

وقالت أخرى: لا يعود إلى درجته وحاله لأنه لم يكن في وقوف وإنما كان في صعود فبالذنب صار في هبوط فإذا تاب نقص منه ذلك القدر الذي كان مستعدًا به للترقي.

قال شيخ الإسلام: والصحيح أن من التائبين من لا يعود إلى درجته ومنهم من يعود إلى أعلى منها فيصير خيرًا مما كان قبل الذنب وكان داود بعد التوبة خيرًا منه قبل الخطيئة.

قال ابن القيم رحمه الله: وهنا مثل مضروب، رجل مسافر سائر على الطريق بطمأنينة وأمن فهو يعدو مرة ويمشي أخرى ويستريح تارة وينام أخرى، فبينما هو كذلك إذ عَرَضَ له في سيره ظل ظليل وماء بارد ومقيل وروضة مزهرة، فدعته نفسه إلى النزول على تلك الأماكن فنزل عليها فوثب عليه منها عدو فأخذه وقيده

ومنعه عن السير فعاين الهلاك وظن أنه منقطع به وأنه رزق الوحوش والسباع ؛ وأنه قد حيل بينه وبين مقصده الذي يؤمه ، فبينما هو على ذلك تتقاذفه الظنون إذ وقف على رأسه والده الشفيق القادر فحل كتافه وقيوده وقال له اركب الطريق واحذر هذا العدو فإنه على منازل الطريق لك بالمرصاد واعلم أنك ما دمت حَذِرًا منه متيقظًا له لا يقدر عليك فإذا غفلت وَثَبَ عليك وأنا متقدمك إلى المنزل وفَرَطَ لك فاتبعني على الأثر ، فإذا كان هذا السائر كَيِّسًا فطنًا لبيبًا حاضر الذهن والعقل استقبل سيره استقبالًا آخر أقوى من الأول وأتم واشتد حذره وتأهب لهذا العدو وأعد له عدته فكان سيره الثاني أقوى من الأول وخيرًا منه ، ووصوله إلى المنزل أسرع وإن غفل عن عدوه وعاد إلى مثل حاله الأول من غير زيادة ولا نقصان ولا قوة حذر ولا استعداد عاد كما كان وهو مُعَرَّضٌ لما عرض له أولاً ، وإن أورثه ذلك توانيًا في سيره وفتورًا وتذكر الطيب وقيله وحسن ذلك الروض وعذوبة مائه لم يعد إلى مثل سيره ونقص عما كان.

التوبة النصوح:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [التحريم : 8]. الآية.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ عز وجل يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ، لِيَتُوبَ

مُسِيءُ النَّهَارِ. وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ، لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ. حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»[1].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، تَابَ الله عَلَيْهِ»[2].

وعن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ، مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»[3]. والغرغرة هي بلوغ الروح الحلقوم.

والنصح في التوبة هو تخليصها من كل غش ونقص وفساد.

قال الحسن البصري: هي أن يكون العبد نادمًا على ما مضى مجمعًا على ألاَّ يعود فيه.

وقال الكلبي: أن يستغفر باللسان ويندم بالقلب ويمسك بالبدن.

وقال سعيد بن المسيب: «تَوْبَةً نَصُوحًا» تنصحون بها أنفسكم.

وقال ابن القيم: النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بحيث لا تدع ذنبًا إلا تناولته.

---

(1) رواه مسلم (2759) التوبة.

(2) رواه مسلم (2703) الذكر والدعاء.

(3) رواه الترمذي (3537) الدعوات، وأحمد (6160) شاكر، وابن ماجه (4329) الزهد، والحاكم (4/ 257) التوبة وصححه ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حسن غريب، وقال العلامة أحمد شاكر: إسناده صحيح وحسنه الألباني.

الثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوم ولا انتظار بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادرًا بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته والرغبة فيما لديه والرهبة مما عنده، لا كمن يتوب لحفظ حاجته وحرمته ومنصبه ورياسته ولحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس أو الهروب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء أو لقضاء نهمته من الدنيا أو لإفلاسه وعجزه ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله ﷻ.

فالأول يتعلق بما يتوب منه، والثاني يتعلق بذات التائب، والثالث يتعلق بمن يتوب إليه، فنصح التوبة الصدق فيها والإخلاص وتعميم الذنوب، ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه وتمحو جميع الذنوب وهي أكمل ما يكون من التوبة.

وتوبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها وتوبة منه بعدها، فتوبته بين توبتين من ربه سابقة ولاحقة، فإنه تاب عليه أولًا إذنًا وتوفيقًا وإلهامًا فتاب العبد، فتاب الله عليه ثانيًا قبولًا وإثابة وذلك لقوله ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 118].

فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم وأنها هي التي جعلتهم تائبين فكانت سببًا مقتضيًا لتوبتهم وهذا القدر من سر اسميه ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ﴾. فهو المعد والممد، ومنه السبب والمسبب، والعبد تواب والرب تواب، فتوبة العبد رجوعه

إلى سيده بعد الإباق وتوبة الرب نوعان: إذن وتوفيق، وقبول وإثابة والتوبة لها مبدأ ومنتهى فمبدؤها الرجوع إلى الله بسلوك الصراط المستقيم الذي أمر بسلوكه بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ونهايتها الرجوع إليه في الميعاد وسلوك صراطه الذي نصبه موصلًا إلى جنته فمن رجع إلى الله في هذه الدار بالتوبة رجع إليه في المعاد بالثواب، قال الله ﷻ: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٧١].

اتهام التوبة:

❋ من اتهام ضعف العزيمة والتفات القلب إلى الذنب الفنية بعد الفينة وتذكر حلاوة مواقعته.

❋ ومنها طمأنينته ووثوقه من نفسه بأنه قد تاب حتى كأنه قد أعطى منشورًا بالأمان فهذا من علامات التهمة.

❋ ومنها جمود العين واستمرار الغفلة وأن لا يستحدث أعمالًا صالحة لم تكن له قبل الخطيئة.

علامات صحة التوبة:

❋ منها: أن يكون بعد التوبة خيرًا مما كان قبلها.

❋ ومنها: ألا يزال الخوف مصاحبًا له لا يأمن مكر الله طرفة عين، فخوفه مستمر

إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: 30]. فهناك يزول خوفه.

❃ ومنها: انخلاع قلبه وتقطعه ندمًا وخوفًا، وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها، وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: 110]. قال: تقطعها بالتوبة، ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه، وهذا هو تقطعه وهذا حقيقة التوبة، لأنه يتقطع قلبه حسرة على ما فرط منه وخوفًا من سوء عاقبته، فمن لم يتقطع قلبه في الدنيا على ما فرط؛ تقطع في الآخرة إذا حقت الحقائق وعاين ثواب المطيعين وعقاب العاصين، فلابد من تقطع القلب إما في الدنيا وإما في الآخرة.

❃ ومنها: كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء ولا تكون لغير المذنب، لا تحصل بجوع ولا رياضة ولا حب مجرد، وإنما هي أمر وراء هذا كله، تكسر القلب بين يدي الرب كسرة عامة قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربه طريحًا ذليلًا خاشعًا، كحال عبد آبق من سيده فأخذ فأحضر بين يديه ولم يجد من ينجيه من سطوته ولم يجد منه بُدًّا ولا عنه غناء ولا منه مهربًا، وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه في رضاه عنه، وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته، هذا مع حبه لسيده وشدة حاجته إليه، وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيده، وذله وعز سيده.

فيجتمع في هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع ما أنفعها للعبد وما أجدى عائدتها عليه وما أعظم جبره بها وما أقربه بها من سيده، فليس شيء أحب إلى سيده من هذه الكسرة والخضوع والتذلل والإخبات والانطراح بين يديه والاستسلام له، فلله ما أحلى قوله في هذه الحال.

❁أسألك بعزك وذلي إلا رحمتني.

❁أسألك بقوتك وضعفي وبغناك عني وفقري إليك.

هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواي كثير وليس لي سيد سواك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته ورغم لك أنفه وفاضت لك عيناه وَذَلَّ لك قلبه.

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُؤَمِّلُه ... وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّا أُحَاذِرُهُ
لاَ يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْماً أَنْتَ كَاسِرُهُ ... وَلاَ يَهِيضُونَ عَظْماً أَنْتَ جَابِرُهُ

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة، فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتهم توبته وليرجع إلى تصحيحها فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة وما أسهلها باللسان والدعوى.

أسرار التوبة ولطائفها:

اعلم أن صاحب البصيرة إذا صدرت منه خطيئة فله نظر إلى ثلاثة أمور:

أحدها: أن ينظر إلى أمر الله ونهيه فيحدث له ذلك الاعتراف بكونها خطيئة والإقرار على النفس بالذنب.

الثاني: أن ينظر إلى الوعد والوعيد فيحدث له ذلك خوفًا وخشية يحمله على التوبة.

الثالث: أن ينظر إلى تمكين الله له منها وتخليته بينه وبينها وتقديرها عليه وأنه لو شاء لعصمه منها ؛ فيحدث له ذلك أنواعًا من المعرفة بالله وأسمائه وصفاته ورحمته ومغفرته وحلمه وكرمه، وتوجب له هذه المعرفة عبودية بهذه الأسماء لا تحصل بدون لوازمها البتة، ويعلم ارتباط الخلق والأمر والجزاء والوعد والوعيد بأسمائه وصفاته وأن ذلك موجب الأسماء والصفات وأثرها في الوجود، وأن كل اسم وصفة مقتض لأثره وموجبه متعلق به لابد منه.

هذا المشهد بأسمائه يطلعه على رياض مُونقه من المعارف والإيمان وأسرار القدر والحكمة يضيق عن التعبير عنها نطاق الكلم.

❊ فمنها: أن يعرف عزة الله في قضائه وهو أنه سبحانه العزيز الذي يقضي بما يشاء وأنه لكمال عزته حكم على العبد وقضى عليه بأن قلب قلبه وصرف إرادته على ما يشاء، وحال بين العبد وقلبه وجعله مريدًا شائيًا لما شاء فيه العزيز الحكيم، وهذا من كمال العزة إذ لا يقدر على ذلك إلا الله، وغاية المخلوق أن يتصرف في بدنك وظاهرك وأما جعلك مريدًا شائيًا لما يشاؤه منك ويريده فلا يقدر عليه إلا ذو العزة الباهرة، فإذا عرف العبد عز سيده ولا حظه بقلبه وتمكن شهوده منه كان الاشتغال به عن ذل المعصية أولى به وأنفع له، لأنه يصير مع الله لا مع نفسه.

ومن معرفة عزته في قضائه: أن يعرف أنه مُدَبَّرٌ مقهور ناصيته بيد غيره لا عصمة له إلا بعصمته ولا توفيق له إلا بمعونته فهو ذليل حقير في قبضة عزيز حميد.

ومن شهود عزته أيضًا في قضائه: أن يشهد أن الكمال والحمد والغناء التام والعزة كلها لله، وأن العبد نفسه أولى بالتقصير والذم والعيب والظلم والحاجة وكلما ازداد شهوده لذله ونقصه وعيبه وفقره ازداد شهوده لعزة الله وكماله وحمده وغناه وكذلك بالعكس فنقص الذنب وذلته يطلعه على مشهد العزة.

* ومنها: أن يعرف بره سبحانه في ستره عليه حال ارتكاب المعصية مع كمال رؤيته له ولو شاء لفضحه بين خلقه، وهذا من كمال بره ومن أسمائه

وهذا البر من سيده كان عن كمال غناه وكمال فقر العبد إليه، فيشتغل بمطالعة هذه المنة ومشاهدة هذا البر والإحسان والكرم، فيذهل عن ذكر الخطيئة فيبقى مع الله سبحانه وذلك أنفع له من الاشتغال بجنايته وشهود ذل معصيته، فإن الاشتغال بالله والغفلة عما سواه هو المطلب الأعلى والمقصد الأسنى.

ولا يوجب هذا نسيان الخطيئة مطلقًا، بل في هذه الحال فإذا فقدها فليرجع إلى مطالعة الخطيئة وذكر الجناية، ولكل وقت ومقام عبودية تليق به.

* ومنها: شهود حلم الله ﷻ في إمهال راكب الخطيئة ولو شاء لعاجله بالعقوبة ولكنه الحليم الذي لا يعجل بالعقوبة فيحدث له ذلك معرفة ربه سبحانه باسمه ﴿ٱلۡحَلِيمُ﴾ ومشاهدة صفة الحلم والتعبد بهذا الاسم والحكمة والمصلحة الحاصلة من ذلك بتوسط الذنب أحب إلى الله وأصلح للعبد وأنفع من فوتها ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع.

❋ومنها: معرفة العبد كرم ربه في قبول العذر منه إذا اعتذر إليه بالتوبة لا بالاحتجاج بالقدر فإنه مخاصمة ومحاجة، فيقبل عذره فيوجب له ذلك اشتغالًا بذكره وشكره ومحبة أخرى لم تكن حاصلة له قبل ذلك، فإن محبتك لمن شكرك على إحسانك وجازاك به ثم غفر لك إساءتك ولم يؤاخذك بها أضعاف محبتك على شكر الإحسان وحده. والواقع شاهد بذلك فعبودية التوبة بعد الذنب لون وهذا لون آخر.

❋ومنها: أن يشهد فضله في مغفرته فإن المغفرة فضل من الله وإلا فلو أخذك بمحض حقه كان عادلًا محمودًا وإنما عفوه بفضله لا باستحقاقك، فيوجب لك ذلك أيضًا شكرًا له ومحبة وإنابة وفرحًا وابتهاجًا به ومعرفة له باسمه ومشاهدة لهذه الصفة وتعبدًا بمقتضاها وهذا أكمل في العبودية والمحبة والمعرفة.

❋ومنها: أن يكمل لعبده مراتب الذل والخضوع والانكسار بين يديه والافتقار إليه، فإن النفس فيها مضاهاة للربوبية، ولو قدرت لقالت مثل قول فرعون، ولكنه قدر فأظهر وغيره عجز فأضمر، إنما يخلصها من هذه المضاهاة ذل العبودية وهو أربع مراتب.

المرتبة الأولى: مشتركة بين الخلق وهي ذل الحاجة والفقر إلى الله، فأهل ٱلسَّمَٰوَٰتِ والأرض جميعًا محتاجون إليه فقراء إليه وهو وحده الغني عنهم.

المرتبة الثانية: ذل الطاعة والعبودية وهو ذل الاختيار وهذا خاص بأهل طاعته.

المرتبة الثالثة : ذل المحبة فإن المحب ذليل بالذات وعلى قدر محبته له يكون ذله كما قيل :

مَسَاكِينُ أَهْلُ الحُبِّ حَتَّى قُبُورُهُمْ   عَلَيْهَا تُرَابُ الذُّلِّ بَيْنَ المَقَابِرِ

المرتبة الرابعة : ذل المعصية والجناية :

فإذا اجتمعت هذه المراتب الأربع كان الذل لله والخضوع له أكمل وأتم إذ يذل له خوفًا وخشية ومحبة وإنابة وطاعة وفقرًا وفاقة.

❋ ومنها : أن أسمائه الحسنى تقتضي آثارها اقتضاء الأسباب التامة لمسبباتها فاسم ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ يقتضي مسموعًا ومبصرًا واسم ﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾ يقتضي مرزوقًا واسم ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ يقتضي مرحومًا ، وكذلك أسماء ﴿ٱلْغَفُور، والعفو، ٱلتَّوَّابُ﴾ يقتضي من يغفر له ويتوب عليه ويعفو عنه ، ويستحيل تعطيل هذه الأسماء والصفات إذ هي أسماء كمال ونعوت جلال ، وقد أشار إلى هذا أعلم الخلق بالله صلوات الله وسلامه عليه حيث يقول : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ»[1].

فإذا فرضت أن المعصية والخطيئة منتفية عن العالم فلمن يغفر وعمن يعفو وعلى من يتوب ويحلم ، وإذا فرضت الفاقات كلها قد سدت والعبيد أغنياء معافون فأين السؤال والتضرع والابتهال والإجابة وشهود الفضل والمنة

---

(1) رواه مسلم (2749) التوبة، والترمذي (3539) الدعوات وانظر: طرق الحديث في الصحيحة رقم 970.

والتخصيص بالإنعام والإكرام، فسبحان من تعرف إلى خلقه بجميع أنواع التعرفات ودلهم عليه ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 42].

❋ ومنها: السر الأعظم الذي لا تقتحمه العبارة، ولا تجسر عليه الإشارة، وينادي عليه منادي الإيمان على رؤوس الأشهاد، بل شهدته قلوب خواص العباد فازدادت به معرفة لربها ومحبة له وطمأنينة به وشوقًا إليه ولهجًا بذكره، وشهودًا للطفه وكرمه وإحسانه ومطالعة لسر العبودية وإشرافًا على حقيقة الإلهية، وهو ما ثبت في الصحيحين من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِيَّةٍ مَهْلَكَةٍ مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ. فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ. ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ. فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ. فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ. فَالله أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ»[1].

وقد بين النبي ﷺ محبة الرب جل وعلا للتوبة فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، فأوجبت هذه المحبة فرحًا كأعظم ما يقدر من الفرح، ولو كان في الفرح

---

(1) رواه مسلم (2744) التوبة واللفظ له، والبخاري مختصرًا (6309) الدعوات ورواه مطولًا من حديث عبد الله بن مسعود (6308) الدعوات.

المشهود في هذا العالم نوع أعظم من فرحة هذا الواجد لمادة حياته وبلاغه في سفره بعد إياسه من أسباب الحياة بفقده راحلته وهذا كشدة محبته لتوبة التائب المحب إذا اشتدت محبته للشيء وغاب عنه ثم وجده وصار طوع يده فلا فرحه أعظم من فرحته به.

فما الظن بمحبوب لك تحبه حبًا شديدًا أسره عدوك وحال بينك وبينه وأنت تعلم أن العدو سيسومه سوء العذاب ويعرضه لأنواع الهلاك، وأنت أولى به منه، وهو غرسك وتربيتك، ثم إنه انفلت من عدوه ووافاك على غير ميعاد، فلم يفجأك إلا وهو على بابك يتملقك ويترضاك ويستعينك ويمرغ خديه على تراب أعتابك، فكيف يكون فرحك به وقد اختصصته لنفسك ورضيته لقربك وآثرته على سواه.

هذا ولست الذي أوجدته وخلقته وأسبغت عليه نعمك والله ﷻ هو الذي أوجد عبده وخلقه وكونه وأسبغ عليه نعمه وهو يحب أن يتمها عليه فيصير مظهرًا لنعمه قابلًا لها شاكرًا لها محبًا لوليها ومطيعًا له عابدًا معاديًا لعدوه ومبغضًا له عاصيًا له، وفي التوبة من ذلك أوفر نصيب، فكانت بذلك التوبة من أحب العبادات إلى الله، نسأل الله أن يرزقنا توبة نصوحًا.

***

(14) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1]

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد، وقد كان الذي خفنا أن يكون، فإنا لله وإنا إليه راجعون، إذ قد اندرس هذا القطب علمه وعمله، فاستولت على القلوب مداهنة الخلق، وانمحت عنها مراقبة الخالق، واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم، وعز على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم، فمن سعى في تلافي هذه الفترة وسد هذه الثلمة، إما متكفلًا بعلمها أو متقلدًا لتنفيذها مجددًا لهذه السنة الدائرة، ناهضًا بأعبائها ومشمرًا في إحيائها، كان مستأثرًا من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها، ومستبدًا بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها.

وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفضيلته:

قال الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: 104].

---

(1) إحياء علوم الدين - جامع العلوم والحكم - رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

ففي الآية بيان الإيجاب ؛ فإن قوله : ﴿ وَلْتَكُن ﴾ أمر ، وظاهر الأمر الإيجاب ، وفيها أن الفلاح منوط به إذ حصر وقال : ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وفيها بيان أنه فرض كفاية لا فرض عين ، وأنه إذا قامت به أمة سقط الفرض عن الآخرين ، إذ لم يقل كونوا كلكم آمرين بالمعروف بل قال : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ ﴾ فإنه مهما قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين ، واختص الفلاح بالقائمين به المباشرين ، وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون عمَّ الحرج كافة القادرين عليه لا محالة.

وقال تعالى : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ۗ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (113) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران : 113، 114].

فلم يشهد الله ﷻ لهم بالصلاح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ [التوبة : 71]. فقد نعت المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ؛ فالذي هجر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين في هذه الآية.

وقال تعالى : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (78) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة : 78، 79].

وهذا غاية التشديد إذ علل استحقاقهم للعنة بتركهم النهي عن المنكر، وقال ﷻ: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: 110]. وهذا دليل على فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ بين أنهم كانوا به خير أمة أخرجت للناس.

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف: 165]. فبين أنهم استفادوا النجاة بالنهي عن السوء.

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ. وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ»(1).

دل هذا الحديث على أن إنكار المنكر يجب بحسب القدرة عليه، أما إنكار القلب فلابد منه فإذا لم ينكر القلب دل على ذهاب الإيمان منه، سمع ابن مسعود رجلًا يقول: هلك من لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر. فقال ابن مسعود: هلك من لم يعرف بقلبه المعروف والمنكر.

---

(1) رواه مسلم (49) الإيمان، والترمذي (2172) الفتن وأبي داود (1140) صلاة العيدين، والنسائي (5024) الإيمان، وابن ماجه (4085) الفتن.

فالإنكار باليد واللسان يكون بحسب الطاقة، أما معرفة المعروف والمنكر بالقلب ففرضٌ لا يسقط عن أحد، فمن لم يعرفه هلك، وعن ابن مسعود ﷺ قال: يوشك من عاش منكم أن يرى منكرًا لا يستطيع له غير أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره.

قوله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا» يدل على أن الإنكار متعلق بالرؤية، فإن كان مستورًا فلم يره ولكن علم به فالراجح أنه لا يتعرض له وأنه لا يفتش عما استراب به، قيل لابن مسعود: إن فلانًا تقطر لحيته خمرًا؛ فقال: نهانا الله عن التجسس، وقوله: «وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ» يدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خصال الإيمان، ويدل على أن من قدر على خصلة من خصال الإيمان وفعلها كان أفضل ممن تركها عجزًا، ويدل على ذلك أيضًا قوله ﷺ في حق النساء: «أَمَّا نُقْصَانِ دينها فإنها تَمْكُثُ الأيام واللَّيَالِيَ لا تُصَلِّي»[1]. يشير إلى أيام الحيض، مع أنها ممنوعة حينئذٍ من الصلاة، وقد جعل ذلك نقصًا في دينها، فدل على أن من قدر على واجب وفعله فهو أفضل ممن عجز عنه وتركه وإن كان معذورًا في تركه.

وعن النبي ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنْ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ الله أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلا يُسْتَجَابُ لَكُمْ»[2].

---

(1) رواه البخاري (304) الحيض بمعناه، ومسلم (79) الإيمان.

(2) رواه الترمذي (2169) الفتن، وقال: هذا حديث حسن، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (1762) وتحقيق المشكاة (5140).

وعنه ﷺ قال: «مَثَلُ المُدْهِنِ فِي حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، مَثَلُ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا سَفِينَةً؛ فَصَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَسْفَلِهَا وَصَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَعْلاهَا، فَكَانَ الَّذِي فِي أَسْفَلِهَا يَمُرُّونَ بِالْمَاءِ عَلَى الَّذِينَ فِي أَعْلاهَا؛ فَتَأَذَّوْا بِهِ، فَأَخَذَ فَأْسًا، فَجَعَلَ يَنْقُرُ أَسْفَلَ السَّفِينَةِ؛ فَأَتَوْهُ فَقَالُوا: مَا لَكَ؟ قَالَ: تَأَذَّيْتُمْ بِي وَلا بُدَّ لِي مِنْ الْمَاءِ!، فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَنْجَوْهُ وَنَجَّوْا أَنْفُسَهُمْ، وَإِنْ تَرَكُوهُ أَهْلَكُوهُ وَأَهْلَكُوا أَنْفُسَهُمْ»[1].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي، إلا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ. ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ. يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ. وَيَفْعَلُونَ مَا لا يُؤْمَرُونَ. فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»[2].

وعن أبي بكر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا، ثُمَّ لا يُغَيِّرُوا إلا يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ»[3].

---

(1) رواه البخاري (2686) الشهادات، والترمذي (2173) الفتن.

(2) رواه مسلم (50) الإيمان.

(3) رواه أبي داود (4338) الملاحم، وابن ماجه (4081) الفتن، وأحمد رقم (1/ 16، 29، 53 شاكر) وصححه الألباني.

من هم الآمرون بالمعروف:

هنا يغلط فريقان من الناس.

فريق ترك ما يجب عليه من الأمر والنهي متأولًا قوله ﷻ: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: 105]. قالت طائفة من الصحابة: لم يأت تأويلها بعد إنما تأويلها في آخر الزمان.

وعن مكحول قال: لم يأت تأويلها بعد، إذ هاب الواعظ، وأنكر الموعوظ، فعليك حينئذٍ بنفسك، لا يضرك من ضل إذا اهتديت.

الفريق الثاني: من يريد أن يأمر وينهى إما بلسانه وإما بيده مطلقًا من غير فقه ولا حلم ولا صبر، ولا نظر فيما يصلح من ذلك وما لا يصلح وما يقدر عليه وما لا يقدر، فيأتي بالأمر والنهي معتقدًا أنه مطيع لله ولرسوله وهو معتد في حدوده، كما نَصَّبَ كثير من أهل البدع والأهواء نفسه للأمر والنهي؛ فكان إفسادهم أعظم من إصلاحهم.

الصراط المستقيم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

العلم: لابد من العلم بالمعروف والمنكر والتمييز بينهما، ولابد من العلم بحال المأمور وحال المنهي، فإن العمل لا يكون صالحًا إن لم يكن بعلم وفقه، كما قال عمر بن عبد العزيز: من عَبَدَ الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح.

وقال معاذ ﷺ: العلم أمام العمل؛ والعمل تابعه، وهذا ظاهر فإن القصد والعمل إن لم يكن بعلم كان جهلًا وضلالًا واتباعًا للهوى.

فإذا علم العبد أن إنكار منكر معين يترتب عليه منكر أكبر منه فإنه يحرم إنكاره، وإذا ترتب عليه إزالة معروف أكبر منه يحرم الإنكار كذلك، كما ترك النبي ﷺ عبد الله بن أبي بن سلول وأمثاله من أئمة النفاق والفجور لما لهم من أعوان، فإزالة منكره بنوع من عقابه مستلزم إزالة معروف أكثر من ذلك بغضب قومه وحميتهم وبنفور الناس إذ سمعوا أن رسول الله ﷺ يقتل أصحابه.

فينبغي قياس المصالح والمفاسد المترتبة قبل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الرفق: لابد من الرفق في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قال ﷺ: «إِنَّ الرِّفْقَ لا يَكُونُ فِي شيءٍ إلا زَانَهُ. وَلا يُنْزَعُ مِنْ شَيءٍ إِلا شَانَهُ»[1].

وقال ﷺ: «إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لاَ يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ»[2].

وعن جرير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ يُحْرَمْ الرِّفْقَ يُحْرَمْ الْخَيْرَ»[3].

قال الإمام أحمد: يأمر بالرفق والخضوع فإن أسمعوه ما يكره لا يغضب فيكون كمن يريد أن ينتصر لنفسه، كان أصحاب ابن مسعود إذا مروا بقوم يرون منهم ما يكرهون يقولون: مهلًا رحمكم الله مهلًا رحمكم الله.

---

(1) رواه مسلم (2594) البر والصلة، وأبي داود (2461) الجهاد وأحمد (6/ 58).

(2) رواه البخاري (6927) الاستتابة، ومسلم (2593) البر والصلة.

(3) رواه مسلم (2592) البر والصلة.

قال سفيان الثوري: لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا من كان فيه ثلاث خصال: رفيق بما يأمر، رفيق بما ينهى، عدل بما يأمر، عدل بما ينهى، عالم بما يأمر، عالم بما ينهى.

الصبر: لابد أيضًا أن يكون الناصح حليمًا صبورًا على الأذى فإنه لابد أن يحصل له أذى كما قال لقمان لابنه: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [لقمان: 17].

ولهذا أمر الله الرسل وهم أئمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالصبر كقوله ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ﴾ [المدثر: 1-7].

فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالأمر بالنذارة وختمه بالأمر بالصبر.

وقال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا ﴾ [الطور: 48].

وقال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴾ [المزمل: 10].

وقال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل: 127]. فلابد من هذه الثلاثة: العلم والرفق والصبر، العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه، والصبر بعده.

وليعلم أن الأمر بهذه الخصال في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما يوجب صعوبته على كثير من النفوس فيظن أنه بذلك يسقط عنه فيدعه، وذلك مما يضر أكثر مما يضره الأمر بدون هذه الخصال أو أقل، فإن ترك الواجب معصية، وفعل

ما نهى الله عنه في الأمر معصية، فالمنتقل من معصية إلى معصية أكبر منها كالمستجير من الرمضاء بالنار، والمنتقل من معصية إلى معصية كالمنتقل من دين باطل إلى دين باطل، قد يكون الثاني شرًا من الأول، وقد يكون دونه، وقد يكونان سواء، فهكذا تجد المقصر في الأمر والنهي والمعتدي فيه، قد يكون ذنب هذا أعظم، وقد يكون ذنب هذا أعظم، وقد يكونان سواء.

الدافع إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

اعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تارة يحمل عليه رجاء ثوابه، وتارة خوف العقاب في تركه، وتارة الغضب لله على انتهاك محارمه، وتارة النصيحة للمؤمنين والرحمة لهم ورجاء إنقاذهم مما أوقعوا أنفسهم فيه من التعرض لعقوبة الله وغضبه في الدنيا والآخر، وتارة يحمل عليه إجلال الله وإعظامه ومحبته، وأنه أهل أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، وأنه يفتدى من انتهاك محارمه بالنفوس والأموال، كما قال بعض السلف: وددت أن الخلق كلهم أطاعوا الله وأن لحمي قرض بالمقارض، وكان عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز يقول لأبيه: وددت أني غَلتْ بي وبك القدور في الله تعالى: من لحظ هذا المقام والذي قبله هان عليه كل ما يلقى من الأذى في الله تعالى وربما دعا لمن آذاه.

***

(15) الجهاد في سبيل الله(1)

الجهاد لغة: معناه بذل الجهد.

وشرعًا: هو بذل الجهد في مقاتلة المشركين والبغاة، ولم يشرع الجهاد إلا بعد الهجرة، فقد كان المسلمون في مكة مأمورين بأن يكفوا أيديهم ويقابلوا أذى المشركين بالعفو والصبر فلما هاجروا إلى المدينة وانضموا إلى إخوانهم الأنصار قويت شوكتهم واشتد جناحهم فأذن لهم حينئذٍ في القتال ممن ظلمهم بمكة، ولكنه لم يفرض عليهم فقال تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج: 39].

ثم فرض عليهم بعد ذلك قتال من قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ [البقرة: 190].

ثم فرض عليهم بعد ذلك قتال المشركين كافة فقال ﷻ: ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ [التوبة: 36]. فهذه هي مراتب مشروعية الجهاد، كان أول الأمر محرمًا ثم صار مأذونًا فيه، ثم مأمورًا به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأمورًا به لجميع المشركين.

---

(1) زاد الميعاد لابن القيم - فتح الباري شرح صحيح البخاري - الترغيب والترهيب للمنذري - السلسلة الصحيحة للألباني

وقال أحد المعاصرين: وقد أجمع أهل العلم مجتهدين ومقلدين، سلفيين وخلفيين، على أن الجهاد فرض كفاية على الأمة الإسلامية لنشر الدعوة، وفرض عين لدفع هجوم الكفار عليها، المسلمون الآن كما تعلم مستذلون لغيرهم محكومون بالكفار قد ديست أرضهم، وانتهكت حرماتهم، وتحكم في شئونهم خصومهم، وتعطلت شعائر دينهم في ديارهم فضلًا عن نشر دعوتهم، فوجب وجوبًا عينيًا لا مناص منه أن يتجهز كل مسلم وأن ينطوي على نية الجهاد وإعداد العدة له حتى تحين الفرصة ويقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

إن الأمة التي تحسن صناعة الموت وتعرف كيف تموت الموتة الشريفة يهب لها الله الحياة العزيزة في الدنيا والنعيم الخالد في الآخرة، وما الوهن الذي أذلنا إلا حب الدنيا وكراهية الموت.

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: قال الله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 41].

وعلق النجاة في النار به ومغفرة الذنب ودخول الجنة فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الصف: 10-12].

وأخبرهم أنهم إذا فعلوا ذلك أعطاهم من النصر والفتح القريب فقال: ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ [الصف: 13].

وأخبر سبحانه أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وأن هذا الوعد قد أودعه أفضل كتبه المنزلة من السماء وهي التوراة والإنجيل والقرآن، ثم أكد ذلك بإعلامهم أنه لا أحد أوفى بعهده منه تبارك وتعالى، ثم أكد ذلك بأن أمرهم بأن يستبشروا ببيعهم الذي عاقدوه، ثم أعلمهم أن ذلك هو الفوز العظيم، فليتأمل العاقد مع ربه عقد هذا التبايع ما أعظم خطره وأجله، فإن الله ﷻ هو المشتري والثمن جنات النعيم والفوز برضاه والتمتع برؤيته هناك، والذي جرى على يده هذا العقد أشرف رسله وأكرمهم عليه في الملائكة والبشر، وأن سلعة هذا شأنها لقد هيأت لأمرٍ عظيمٍ وخطبٍ جسيمٍ.

قَدْ هَيَّئُوكَ لأَمْرٍ لَوْ فَطِنْتَ لَهُ فَارْبَأْ بِنَفْسِكَ أَنْ تَرْعَى مَعَ الهُمَّلِ

مهر المحبة والجنة بذل النفس والمال لمالكهما الذي اشتراهما من المؤمنين، فما للجبان المعرض المفلس وسوم هذه السلعة، بالله ما هزلت فيستامها المفلسون ولا كسدت فيبيعها بالنسيئة المعسرون، لقد أقيمت للعرض في سوق من يريد، فلم يرض ربها لها بثمن دون بذل النفوس، فتأخر البطالون وقام المحبون ينتظرون أيهم يصلح أن تكون نفسه الثمن؛ فدارت السلعة بينهم ووقعت في يد: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: 54].

لما كثر المُدَّعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى، فلو يعطى الناس بدعواهم لادعى الخلي حرفة الشجي، فتنوع المدعون في الشهود، فقيل لا تثبت هذه الدعوى إلا ببينة ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 31]. فتأخر الخلق كلهم وثبت أتباع الرسول ﷺ في أفعاله وأقواله وهديه وأخلاقه، فطولبوا بعدالة البينة؛ وقيل لا تقبل العدالة إلا بتزكية ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: 54].

فتأخر أكثر المدعين للمحبة وقام المجاهدون، فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم فسلموا ما وقع عليه العقد؛ فإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وعقد التبايع يوجب التسليم من الجانبين، فلما رأى التجار عظمة المشتري وقدر الثمن وجلالة قدر من جرى عقد التبايع على يديه ومقدار الكتاب الذي أثبت فيه هذا العقد عرفوا أن للسلعة قدرًا وشأنًا ليس لغيرها من السلع، فرأوا من الخسران البين والغبن الفاحش أن يبيعوها بثمن بخس دراهم معدودة تذهب شهوتها وتبقى تبعتها وحسرتها، فإن فاعل ذلك معدود في جملة السفهاء فعقدوا مع المشتري بيعة الرضوان رضاء واختيارًا من غير ثبوت خيار، وقالوا والله لا نقيلك، ولا نستقيلك؛ فلما تم العقد وسلموا المبيع قيل لهم: قد صارت أنفسكم وأموالكم لنا والآن فقد رددناها عليكم أوفر ما كانت وأضعاف أموالكم معها: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: 169]. لم نبتغ منكم بنفوسكم وأموالكم طلبًا للربح عليكم بل ليظهر أثر الجود والكرم في قبول المعيب والإعطاء عليه أَجَلّ الأثمان، ثم جمعنا لكم بين الثمن والمثمن.

فَحَيَّهَلاً إن كُنْتَ ذَا هِمَّةٍ فَقَد ... حَدَا بِكَ حَادِي الشوق فَاطوِ

وَقُلْ لِمُنَادِي حُبِّهِمْ وَرِضَاهُم ... إذا مَا دَعَا لَبَّيْكَ ألفًا كَوَامِلَا

وَلاَ تَنْظُرِ الأَطْلاَلَ مِن دُونِهِم فَإِن ... نَظَرتَ إِلَى الأَطلالِ عُدْنَ حَوَائِلَا

وَلا تَنتَظِر بالسَّيْرِ رِفْقَةَ قَاعِدٍ ... وَدَعْهُ فَإِنَّ الشَّوقَ يَكْفِيكَ حَامِلَا

فَمَا هِيَ إِلاَّ سَاعة ثُمَّ تَنقَضِي ... وَيُصْبِحُ ذُو الأَحْزَانِ فَرحَان جَازِلَا

فضل الجهاد في سبيل الله:

الآيات:

قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًۭٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًۭٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: 169].

وقال تعالى: ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: 41].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ [التوبة: 111]

وقال تعالى: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةًۭ ۚ وَكُلًّۭا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًۭا ﴿٩٥﴾ دَرَجَـٰتٍۢ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةًۭ وَرَحْمَةًۭ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًۭا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: 95، 96].

الأحاديث:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا يَعْدِلُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ؟ قَالَ: «لاَ تَسْتَطِيعُونَهُ». قَالَ: فَأَعَادُوا عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ: «لاَ تَسْتَطِيعُونَهُ». وَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ: «مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ بِآيَاتِ اللهِ لاَ يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ وَلاَ صَلاَةٍ حَتَّى يَرْجِعَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى». قَالَ: وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ؟

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: إِنَّ فَرَسَ الْمُجَاهِدِ لَيَسْتَنُّ فِي طِوَلِهِ فَيُكْتَبُ لَهُ حَسَنَاتٍ[1].

وعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: «رَجُلٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ». قَالُوا: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «مُؤْمِنٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ. يَعْبُدُ اللهَ رَبَّهُ وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ»[2].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ رَوْحَةٌ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[3].

عَنْ سَلْمَانَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَفْضَلُ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَمَنْ مَاتَ فِيهِ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ وَأَمِنَ الْفَتَّانَ وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ»[4].

---

(1) رواه البخاري (2785) الجهاد، ومسلم (1878) الإمارة.

(2) رواه البخاري (2786) الجهاد، ومسلم (1888) الإمارة.

(3) رواه البخاري (2792) الجهاد، ومسلم (1880) الإمارة.

(4) رواه مسلم (1889) الإمارة، والترمذي (1665) فضائل الجهاد، والنسائي (3168) الجهاد، =

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ. وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ. مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ»(1).

وعن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ، والله أَعْلَمُ بِمَنْ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ، كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ، وَتَوَكَّلَ الله لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ بِأَنْ يَتَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ سَالِمًا مَعَ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ»(2).

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ، سَلَّطَ الله عَلَيْكُمْ ذُلا لا يَنْزِعُهُ، حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»(3).

و«الْفَتَّانَ»: منكر ونكير.

(1) رواه مسلم (1910) الإمارة، وأبي داود (2502) الجهاد، والنسائي (3097) الجهاد، وقال مسلم: قَالَ ابْنُ سَهْمٍ: قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: فَنُرَى أَنَّ ذَلِكَ كَانَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

قال النووي: وهذا الذي قاله ابن المبارك محتمل وقد قال غيره إنه عام، والمراد أن من فعل هذا أشبه المنافقين المتخلفين عن الجهاد في هذا الوصف فإن ترك الجهاد أحد شعب النفاق.

(2) رواه البخاري (2787) الجهاد، ومسلم بمعناه أطول منه (1787) الإمارة، ومالك في الموطأ (1/ 443، 444) الجهاد والنسائي (3124) الجهاد.

(3) رواه أبي داود (3462) البيوع وقال الألباني: صحيح لمجموع طرقه وانظر: الصحيحة رقم (11).

قال الرافعي: وبيع العينة هو أن يبيع شيئًا من غيره بثمن مؤجل ويسلمه المشتري ثم يشتريه قبل قبض الثمن نقدًا أقل من ذلك القدر (عون المعبود 7/ 336، 337).

قال الألباني: فذكر أن تسليط الذل ليس هو لمجرد الزرع والحرث بل لما اقترن به من الإخلاد إليه والانشغال به عن الجهاد في سبيل الله فهذا هو المراد بالحديث وأما الزرع الذي لا يقترن به شيء من ذلك فهو المراد بالأحاديث المرغبة في الحرث فلا تعارض بينها ولا إشكال.

الآثـــار:

روى الذهبي أن ابن المبارك لما كان مرابطًا بطرطوس سنة سبع وسبعين ومائة أرسل إلى الفضيل بن عياض رسالة فيها هذه الأبيات:

يَـا عَابِـدَ الحَـرَمَيْنِ لَـوْ أَبْصَـرْتَنَا ... لَعَلِمْـتَ أنـكَ في العِبَـادِةِ تَلْعَـبُ
مَـنْ كَـانَ يُخْضِـبُ خَـدَّه بِدُمُوعِـهِ ... فَنُحُورُنَـا بِـدِمَائِنَا تَتَخضَّـبُ
أَوْ كَـانَ يُتْعِـبُ خَيْلَـهُ فِي بَاطِـلٍ ... فَخُيُولُنَـا يَـوْمَ الصَّـبِيحَةِ تَتْعَـبُ
رِيحُ العَبِـيرِ لَكُـمْ وَنَحْـنُ عَبِيرُنَـا ... وَهجُ السَّنَابِكِ وَالْغُبَارُ الأَطْيَـبُ
ولَقَـدْ أَتَانَـا مِـنْ مَقَـالِ نَبِيِّنَـا ... قَـوْلٌ صَحِيحٌ صَـادِقٌ لاَ يَكْـذِبُ
لاَ يَسْـتَوِي غُبَـارَ خَيْـلِ اللهِ فِي ... أَنْـفِ امـرِئٍ وَغُبَـارُ نَـارٍ تَلْهَـبُ
هَـذَا كِتَـابُ اللهِ يَنْطِـقُ بَيْنَنَـا ... لَـيْسَ الشَّـهِيدُ بِمَيِّـتٍ لا يَكْـذِبُ

فلما قرأها الفُضيل ذرفت عيناه ثم قال: صدق أبو عبد الرَّحمَٰن ونصح؛ ثم قال للرسول أتكتب الحديث قال: نعم. قال: فاكتب هذا الحديث كراء حملك كتاب أبي عبد الرَّحمَٰن إلينا ثم أملاه بسنده رواية لحديث أبي هريرة المذكور آنفًا في فضل الجهاد.

فضل الشهادة في سبيل الله:

عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا، وَلَهُ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ إِلا الشَّهِيدُ، يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ؛ لِمَا يَرَى مِنْ الْكَرَامَةِ»(1).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أن رَسُولُ اللهَ ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلا أَنَّ رِجَالًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، لاَ تَطِيبُ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَلاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ، مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهَ ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ»(2).

عَنْ عَبْدِ اللهَ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهَ ﷺ قَالَ: «يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلا الدَّيْنَ»(3).

---

(1) رواه البخاري (2817) الجهاد، ومسلم (1877) الإمارة، والترمذي (1640) فضائل الجهاد.

(2) رواه البخاري (2797) الجهاد، ومسلم (1876) الإمارة.

(3) رواه مسلم (1885) الإمارة ويشترط لتكفير الخطايا أن يكون المجاهد صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر، لما رواه مسلم كذلك أن رجلًا قال: يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللهَ تُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهَ ﷺ «نَعَمْ إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ». وفي قوله: «فِي سَبِيلِ اللهِ» اشتراط الإخلاص - وهذا فيما عدا حقوق الآدميين كما دل عليه قول: «إِلا الدَّيْنَ» نسأل الله شهادة في سبيله مقبلين غير مدبرين.

عَنْ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنْ الْجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنْ الْفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، الْيَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنْ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ»[1].

وعَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا بَالُ الْمُؤْمِنِينَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ إِلا الشَّهِيدَ؟ قَالَ: «كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً»[2].

صور من جهاد أصحاب رسول الله ﷺ:

۞ أَخْبَرَنَا حَسَّانُ بْنُ حَسَّانَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ طَلْحَةَ، حَدَّثَنَا حُمَيْدٌ، عَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ عَمَّهُ غَابَ عَنْ بَدْرٍ، فَقَالَ: غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالِ النَّبِيِّ ﷺ، لَئِنْ أَشْهَدَنِي اللهُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَيَرَيَنَّ اللهُ مَا أُجِدُّ. فَلَقِيَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَهُزِمَ النَّاسُ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاَءِ، يَعْنِي الْمُسْلِمِينَ، وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَتَقَدَّمَ بِسَيْفِهِ فَلَقِيَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ ﷺ، فَقَالَ: أَيْنَ يَا سَعْدُ، إِنِّي أَجِدُ رِيحَ الْجَنَّةِ دُونَ أُحُدٍ، فَمَضَى فَقُتِلَ، فَمَا عُرِفَ حَتَّى عَرَفَتْهُ أُخْتُهُ بِشَامَةٍ، أَوْ بِبَنَانِهِ وَبِهِ بِضْعٌ وَثَمَانُونَ، مِنْ طَعْنَةٍ وَضَرْبَةٍ وَرَمْيَةٍ

---

(1) رواه الترمذي (1663) فضائل الجهاد واللفظ له، وابن ماجه (2849) الجهاد، وأحمد (4/ 131) وصححه الألباني (3213).

(2) رواه النسائي (2052) الجنائز، وقال الألباني في أحكام الجنائز ص (36): وسنده صحيح.

بِسَهْمٍ. قَالَ أَنَسٌ: كُنَّا نُرَى أَوْ نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ»(1). ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: 23].

۞ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بُسَيْسَةَ، عَيْنًا يَنْظُرُ مَا صَنَعَتْ عِيرُ أَبِي سُفْيَانَ. فَجَاءَ وَمَا فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ «قَالَ: لاَ أَدْرِي مَا اسْتَثْنَى بَعْضَ نِسَائِهِ». قَالَ فَحَدَّثَهُ الْحَدِيثَ. قَالَ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَتَكَلَّمَ. فَقَالَ: «إِنَّ لَنَا طَلِبَةً. فَمَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا»، فَجَعَلَ رِجَالٌ يَسْتَأْذِنُونَهُ فِي ظُهْرَانِهِمْ فِي عُلْوِ الْمَدِينَةِ فَقَالَ: «لاَ. إِلاَّ مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا». فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى سَبَقُوا الْمُشْرِكِينَ إِلَى بَدْرٍ. وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لاَ يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ». فَدَنَا الْمُشْرِكُونَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ»، قَالَ: يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللهِ! جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: بَخٍ بَخٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ». قَالَ: لاَ. وَاللهِ! يَا رَسُولَ اللهِ! إِلاَّ رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا. قَالَ: «فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا». فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ. ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ، إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ. قَالَ فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ»(2).

---

(1) رواه البخاري (4048) المغازي، ومسلم (1903) الإمارة، والترمذي: التفسير.

(2) رواه مسلم (1901) الإمارة.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كُنَّا بِمَدِينَةِ الرُّومِ؛ فَأَخْرَجُوا إِلَيْنَا صَفًّا عَظِيمًا مِنَ الرُّومِ؛ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلُهُمْ أَوْ أَكْثَرُ، وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، وَعَلَى الْجَمَاعَةِ فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ؛ فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صَفِّ الرُّومِ، حَتَّى دَخَلَ فِيهِمْ؛ فَصَاحَ النَّاسُ، وَقَالُوا: سُبْحَانَ اللهِ! يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ؟! فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ الأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّكُمْ تَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الآيَةَ هَذَا التَّأْوِيلَ، وَإِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةَ فِينَا - مَعْشَرَ - الأَنْصَارِ. لَمَّا أَعَزَّ اللهُ الإِسْلامَ، وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سِرًّا دُونَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ، وَإِنَّ اللهَ قَدْ أَعَزَّ الإِسْلامَ، وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَلَوْ أَقَمْنَا فِي أَمْوَالِنَا، فَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنْهَا! فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا قُلْنَاه ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:195]. فَكَانَتِ التَّهْلُكَةُ الإِقَامَةَ عَلَى الأَمْوَالِ وَإِصْلاحِهَا، وَتَرْكَنَا الْغَزْوَ. فَمَا زَالَ أَبُو أَيُّوبَ شَاخِصًا فِي سَبِيلِ اللهِ، حَتَّى دُفِنَ بِأَرْضِ الرُّومِ»(1).

***

(1) رواه الترمذي (2972). التفسير وقال: صحيح، الصحيحة (13).

(16) الزهد[1]

الزهد هو انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه، وأما العلم المورث لهذه الحال فهو العلم بكون المتروك حقيرًا بالإضافة إلى المأخوذ، فمن عرف أن ما عند الله باق، وأن الآخرة خيرٌ وأبقى من الدنيا كما أن الجوهر خير وأبقى من الثلج، فالدنيا كقطعة الثلج الموضوعة في الشمس لا تزال في الذوبان حتى تنتهي، والآخرة كالجوهر غالية الثمن لا تذوب ولا تنتهي، وبقدر اليقين بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة، في البيع، وقد مدح الله تعالى الزهد في الدنيا وذم الرغبة فيها في غير موضع فقال تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الأعلى: 16، 17].

وقال تعالى: ﴿ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ ﴾ [الرعد: 26]

وقال تعالى: ﴿ وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: 64].

وقال تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾ [القيامة: 20، 21].

وقال تعالى: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾ [الأنفال: 67]

قال تعالى حاكيًا عن مؤمن آل فرعون أنه قال: ﴿ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ [غافر: 39].

---

(1) عدة الصابرين لابن القيم - إحياء علوم الدين للغزالي، جامع العلوم والحكم لابن رجب - رياض الصالحين للنووي.

وقد بين رسول الله ﷺ حقارة الدنيا فعن جابر ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ، دَاخِلًا مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ، وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ. فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ. فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ. ثُمَّ قَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟». فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ. وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: «أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟». قَالُوا: وَاللهِ! لَوْ كَانَ حَيًّا، كَانَ عَيْبًا فِيهِ، لِأَنَّهُ أَسَكُّ. فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ فَقَالَ: «فَوَاللهِ! لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ، مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ»(1).

وعن المستورد بن شداد ﷺ قال: قال رَسُولَ اللهِ ﷺ: «وَاللهِ! مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ - وَأَشَارَ يَحْيَى بِالسَّبَّابَةِ - فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ»(2).

وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»(3).

وقد حذر المعصوم ﷺ من فتنة الدنيا فعن أبي سعيد الخدري ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ. وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا. فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ. فَاتَّقُوا الدُّنْيَا. وَاتَّقُوا النِّسَاءَ. فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»(4).

---

(1) رواه مسلم (2957) الزهد، وأبي داود (186) الطهارة وقوله: «وَالنَّاسُ كَنَفَتَيه» أي حَوْلَه. وقوله: «أسك» أي صغير الأذنين.

(2) رواه مسلم (2858) الجنة وصفة نعيمها، والترمذي (2323) الزهد، وابن ماجه (4183) الزهد.

(3) رواه الترمذي (2320) الزهد، صحيح: «الصحيحة» (940).

(4) رواه مسلم (2742) الرقاق: قال النووي: ومعنى الدنيا خضرة يحتمل أن المراد بها شيئان أحدهما: حسنها للنفوس، ونضارتها، ولذتها كالفاكهة الخضراء الحلوة، فإن النفوس تطلبها طلبًا حثيثًا فكذا =

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «أَلا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلا ذِكْرُ اللهِ، وَمَا وَالاهُ، وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ»[1].

والمراد بالدنيا: «كل ما يشغل عن الله تعالى ويبعد عنه» أفاده الألباني.

كيف كانت حياة النبي ﷺ:

لقد كان من حال النبي ﷺ ما يدفع إلى الزهد في الدنيا والتقلل من أعراضها فإن قال قائل لعل هذا من قلة الشيء عنده ﷺ؛ فالرد عليه أن الله ﷻ لا يختار لنبيه ﷺ أحب الخلق إليه وأكرمهم عنده إلا أفضل الأحوال، ولذا كان ابن عمر رضي الله عنهما يقتدي به ﷺ بعد أن فتح الله ﷻ البلاد بالإسلام وسيقت الأموال إلى جزيرة العرب، وكذا كان أبوه من قبله رضي الله عنه.

طعام النبي ﷺ:

عن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رضي الله عنهما قال: ذَكَرَ عُمَرُ بن الخطاب رضي الله عنه مَا أَصَابَ النَّاسُ مِنْ الدُّنْيَا فَقَالَ: «لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَظَلُّ الْيَوْمَ يَلْتَوِي، مَا يَجِدُ دَقَلًا يَمْلأُ بِهِ بَطْنَهُ»[2]. الدَّقَلِ رديء التمر.

الدنيا، والثاني: سرعة فنائها كالشيء الأخضر في هذين الوصفين.

(1) رواه الترمذي (2322) الزهد وقال: حسن غريب، وابن ماجه (4187) الزهد وحسنه الألباني.

(2) رواه مسلم (2979) الزهد، والترمذي (2372) الزهد.

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ يَوْمَيْنِ مِنْ خُبْزِ بُرٍّ، إِلاَّ وَأَحَدُهُمَا تَمْرٌ»[1].

وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: «لَمْ يَأْكُلِ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى خِوَانٍ حَتَّى مَاتَ، وَمَا أَكَلَ خُبْزًا مُرَقَّقًا حَتَّى مَاتَ»[2]. والخوان ما نسميه في زماننا بالمنضدة.

وَعَنْ عُرْوَةَ بن الزبير رضي الله عنه عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالت لِعُرْوَةَ: ابْنَ أُخْتِي، إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهِلالِ ثَلاثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَتْ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَارٌ، فقلت: ما كَانَ يُعَيِّشُكُمْ؟ قَالَتْ: الأَسْوَدَانِ: التَّمْرُ وَالْمَاءُ. إلا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ جِيرَانٌ مِنْ الأَنْصَارِ وَكَانَ لَهُمْ مَنَائِحُ، وكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَبْيَاتِهِمْ فَيَسْقِينَاهُ»[3].

منائح: جمع منيحة وهي الناقة ذات اللبن.

---

(1) رواه البخاري (6454) الرقاق، ومسلم (2971) الزهد.

(2) رواه البخاري (6450) الرقاق، والترمذي (2363) الزهد، وابن ماجه (3356) الأطعمة، قال ابن بطال: تركه عليه الصلاة والسلام الأكل على الخوان وأكل المرقق إنما هو لدفع طيبات الدنيا اختيارًا لطيبات الحياة الدائمة، والمال إنما يرغب فيه ليستعان به على الآخرة؛ فلم يحتج النبي ﷺ إلى المال من هذا الوجه وحاصله أن الخبر لا يدل على تفضيل الفقر على الغنى بل يدل على فضل القناعة والكفاف وعدم التبسط في ملاذ الدنيا.

(3) رواه البخاري (6459) الرقاق، ومسلم (2972) الزهد.

ثياب النبي ﷺ:

عَنْ أَبِي بُرْدَةَ ؓ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ ؓ فَأَخْرَجَتْ إِلَيْنَا إِزَارًا غَلِيظًا مِمَّا يُصْنَعُ بِالْيَمَنِ. وَكِسَاءً مِنَ الَّتِي يُسَمُّونَهَا الْمُلَبَّدَةَ قَالَ: فَأَقْسَمَتْ بِاللهِ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قُبِضَ فِي هَذَيْنِ الثَّوْبَيْنِ[1]. ملبدًا: أي مرقعًا.

فراش النبي ﷺ:

عَنْ عَائِشَةَ ؓ قَالَتْ: «كَانَ فِرَاشُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَدَمٍ، وَحَشْوُهُ مِنْ لِيفٍ»[2].

كيف كانت حياة الصحابة ؓ:

وقد كان من أحوال الصحابة ؓ خير هذه الأمة التي هي خير الأمم وأفضلها ما يدل على فضل الزهد في حطامها، والتقلل من أعراضها.

عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا صَلَّى بِالنَّاسِ يَخِرُّ رِجَالٌ مِنْ قَامَتِهِمْ فِي الصَّلاةِ مِنَ الْخَصَاصَةِ - وَهُمْ أَصْحَابُ الصُّفَّةِ - حَتَّى يَقُولَ الأَعْرَابُ هَؤُلاءِ مَجَانِينُ - أَوْ مَجَانُونَ - فَإِذَا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ انْصَرَفَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا لَكُمْ عِنْدَ اللهِ؛ لأَحْبَبْتُمْ أَنْ تَزْدَادُوا فَاقَةً وَحَاجَةً»[3]. والخصاصة: هي الفاقة والجوع.

---

(1) رواه البخاري (318) فرض الخمس، ومسلم (2080) اللباس والزينة.

(2) رواه البخاري (6456) الرقاق، ومسلم (2082) اللباس.

(3) رواه الترمذي (2368) الزهد، صحيح: «الترهيب والترغيب» (4/ 120).

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ وَعَلَيْهِ ثَوْبَانِ مُمَشَّقَانِ مِنْ كَتَّانٍ، فَتَمَخَّطَ. فَقَالَ: بَخْ بَخْ، أَبُو هُرَيْرَةَ يَتَمَخَّطُ فِي الْكَتَّانِ، لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَإِنِّي لأَخِرُّ فِيمَا بَيْنَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ رضي الله عنها مَغْشِيًّا عَلَيَّ، فَيَجِيءُ الْجَائِي فَيَضَعُ رِجْلَهُ عَلَى عُنُقِي وَيُرَى أَنِّي مَجْنُونٌ، وَمَا بِي مِنْ جُنُونٍ، مَا بِي إِلاَّ الْجُوعُ[1].

درجات الزهد:

الدرجة الأولى:

أن يزهد في الدنيا وهو لها مشته، وقلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتفتة ولكن يجاهدها ويكفها وهذا يسمى متزهدًا.

الدرجة الثانية:

أن يترك الدنيا طوعًا لاستحقاره إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه، ولكنه يرى زهده ويلتفت إليه كالذي يترك درهمًا لأجل درهمين.

الدرجة الثالثة:

أن يزهد في الدنيا طوعًا ويزهد في زهده فلا يرى أنه ترك شيئًا، فيكون كمن ترك قطعةً مِنَ الخَزَفِ وأخذ جوهرة، ويمثل صاحب هذه الدرجة بمن منعه من الدخول على الملك كَلب على بابه، فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بها ودخل

---

(1) رواه البخاري (7324) الاعتصام بالكتاب والسنة، الترمذي (2367) الزهد.

على الملك ونال القرب منه ، فالشيطان كلب على باب الله ﷻ يمنع الناس من الدخول ، مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع ، والدنيا كلقمة فمن تركها لينال عز الملك فكيف يلتفت إليها..

روايات عن السلف في تفسير الزهد:

قال الحسن: الزاهد الذي إذا رأى أحدًا قال: هو أزهد مِنّي.

قال إبراهيم بن أدهم: الزهد ثلاثة أقسام فزهد فرض، وزهد فضل، وزهد سلامة، فأما الزهد الفرض: فالزهد في الحرام، وأما الزهد الفضل فالزهد في الحلال، وأما الزهد السلامة فالزهد في الشبهات.

قال يونس بن ميسرة: ليستْ الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، إنما الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن يكون حالك في المصيبة وحالك إذا لم تصب بها سواء، وأن يكون مادحك وذامك في الحق سواء.

ففسر الزهد بثلاثة أشياء كلها من أعمال القلوب، لا من أعمال الجوارح، لذا كان أبو سليمان يقول: لا تشهد لأحد بالزهد.

أحدها: «أن يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يد نفسه» وهذا ينشأ من صحة اليقين وقوته، قيل لأبي حازم الزاهد: مَا مَالُك؟ قال: لي مالان لا أخشى معهما الفقر: الثقة بالله، واليأس مما في أيدي الناس. وقيل له أما تخاف الفقر؟ فقال: أنا

أخاف الفقر ومولاي له ما في ٱلسَّمَٰوَٰت وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى؟!.

قال الفضيل: أصل الزهد الرضا عن الله ﷻ وقال: القَنُوع هو الزاهد وهو الغني، فمن حقق اليقين وثق بالله في أموره كلها ورضي بتدبيره له وانقطع عن التعلق بالمخلوقين رجاءً وخوفًا منعه ذلك من طلب الدنيا بالأسباب المكروهة، ومن كان كذلك كان زاهدًا، وكان من أغنى الناس وإن لم يكن له شيء في الدنيا كما قال عمار رضي الله عنه: كفى بالموت واعظًا وكفى باليقين غنًا وكفى بالعبادة شغلًا.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: اليقين ألاّ تُرضي الناس بسخط الله ولا تحسد أحدًا على رزق الله ولا تلم أحدًا على ما لم يؤتك الله فإن رزق الله لا يسوقه حرص حريص ولا يرده كراهة كاره، إن الله بقسطه وعلمه وحكمته جعل الروح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في السخط والشك.

الثاني: أن يكون العبد إذا أُصيب بمصيبة في دنياه من ذهاب مال أو ولد أو غير ذلك أرغب في ثواب ذلك مما ذهب منه في الدنيا أن يبقى له، وهذا أيضًا ينشأ من كمال اليقين، قال عَلِيّ كرم الله وجهه: من زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات. وقال بعض السلف: لولا المصائب لوردنا الآخرة من المفاليس.

الثالث: أن يستوي عند العبد حامده وذامه في الحق، فإذا عظمت الدنيا في قلب العبد اختار المدح وكره الذم، وربما حمله ذلك على ترك كثير من الحق خشية الذم، وعلى فعل كثير من الباطل رجاء المدح، فمن استوي عنده حامده وذامه في

الحق دل على سقوط منزلة المخلوقين من قلبه وامتلائه من محبة الحق وما فيه من رضى مولاه كما قال ابن مسعود ﷺ: «اليقين أن لا تُرضي الناس بسخط الله».

ومن باع الآخرة بالدنيا فهو زاهد في الآخرة، ومن باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا، ولكن العادة جارية على تخصيص اسم الزهد على الزهد في الدنيا، قال رجل لأحد الصالحين: ما رأيت أزهد منك، قال أنت أزهد مني لقد زهد في دنيا لإبقاء لها ولا وفاء وأنت زهدت في الآخرة فمن أزهد منك.

والزهد يكون في شيء مقدور عليه قيل لابن المبارك: يا زاهد. قال: الزاهد هو عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها، وأما أنا ففي ماذا زهدت.

قال الحسن البصري: أدركت أقوامًا وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل، ولا يأسفون على شيء منها أدبر، ولهي كانت في أعينهم أهون من التراب، كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة لم يُطْوَ لَهُ ثوب ولم ينصب له قدر، ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئًا، ولا أمر من في بيته بصنعة طعام قط، فإذا كان الليل فقيام على أقدامهم يفترشون وجوههم، تجري دموعهم على خدودهم يناجون ربهم في فكاك رقابهم، كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها، وسألوا الله أن يقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم، وسألوا الله أن يغفرها، فلم يزالوا على ذلك، ووالله مَا سَلِموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة، رحمة الله عليهم ورضوانه.

قال رجل للتابعين: لأنتم أكثر عملًا من أصحاب رسول الله ﷺ ولكنهم كانوا خيرًا منكم كانوا أزهد في الدنيا.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: لئن حلفتم لي على رجل أنه أزهدكم لأحلفن لكم أنه خيركم.

فإن قال قائل: ما هو المذموم من الدنيا الذي ينبغي على العباد الزهد فيه، هل هو الزمان الذي يعيشونه؟ أم الأرض وما عليها من جبال وأشجار ومتاع؟ أم أفعال العباد التي تجانب الصواب غالبًا؟.

فالجواب:

إن الذم الوارد في الكتاب والسنة ليس راجعًا إلى زمان الدنيا وهو الليل والنهار المتعاقبان إلى يوم القيامة، فإن الله عز وجل: ﴿ جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ﴾ [الفرقان: 62]. وفي الأثر: إن هذا الليل والنهار خزانتان فانظروا ما تضعون فيهما.

قال مجاهد: ما من يوم إلا يقول: ابن آدم قد دخلت عليك اليوم ولن أرجع إليك بعد اليوم؛ فانظر ماذا تعمل فِيَّ فإذا انقضى طوي ثم يختم عليه فلا يفك حتى يكون الله هو الذي يقضيه يوم القيامة.

وأنشد بعضهم:

إِنَّمَا الدُّنْيَا إِلَى الجَنَّةِ وَالنَّارِ طَرِيقٌ وَاللَّيَالِي مَتْجَرُ الإِنْسَانِ وَالأَيَّامُ سُوقٌ

فالوقت هو رأس مال العبد الذي فيه يتاجر مع ربه ﷻ قال ﷺ: «مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ»[1]. فانظر إلى مُضَيِّع الساعات كم يفوته من النخيل.

كان أحد الصالحين إذا أثقل الناس في الجلوس عنده يقول: أما تريدون أن تقوموا إن مَلك الشمس يجرها لا يفتر.

وقال رجل لأحد العلماء: قف أكلمك. قال: «أوقف الشمس».

وكذلك ليس الذم راجعًا إلى مكان الدنيا وهو الأرض وما أودع فيها من جبال وبحار وأنهار ومعادن فإن ذلك كله من نعم الله على عباده، لما لهم فيها من المنافع والاعتبار والاستدلال على وحدانية الصانع سبحانه وقدرته وعظمته.

وإنما الذم راجع إلى أفعال بني آدم الواقعة في الدنيا لأن غالبها واقع على غير الوجه الذي تحمد عاقبته كما قال الله ﷻ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد: 20].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر].

وانقسم بنو آدم في الدنيا قسمين: أحدهما من أنكر أن للعباد دارًا بعد الدنيا للثواب والعقاب، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ

---

(1) تقدم تخريجه.

لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝ أُولَٰئِكَ مَأْوَىٰهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس: 7، 8].

وهؤلاء هَمهم التمتع في الدنيا واغتنام لذاتها قبل الموت كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَٰمُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد: 12].

القسم الثاني: من يقر بدار بعد الموت للثواب والعقاب، وهو المنتسبون إلى المرسلين، وهم منقسمون إلى ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذن الله، والظالم لنفسه هم الأكثرون وأكثرهم واقف مع زهرة الدنيا وزينتها، فأخذها من غير وجهها واستعملها في غير وجهها، وصارت الدنيا أكبر همه، بها يرضى ولها يغضب، ولها يوالي وعليها يعادي، وهؤلاء أهل اللعب واللهو والزينة، وإن كانوا يؤمنون بالآخرة إيمانًا مجملًا فهم لم يعرفوا المقصود من الدنيا ولا أنها منزلة يتزود فيها لما بعدها من دار الإقامة.

والمقتصد من أخذ الدنيا من وجهها المباح وأدى واجبها وأمسك لنفسه الزائد على الواجب يتوسع به في التمتع بشهوات الدنيا وهؤلاء لا عقاب عليهم في ذلك إلا أنه ينقص من درجاتهم، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ: لولا أن تنقص من حسناتي لخالطتكم في لين عيشكم، ولكني سمعت الله عَيَّرَ قومًا فقال: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ [الأحقاف: 20].

أما السابق بالخيرات بإذن الله فهم الذين فهموا المراد من الدنيا، وعملوا بمقتضى ذلك، فعلموا أن الله إنما أسكن عباده في هذه الدار ليبلوهم أيهم أحسن

عملًا كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: 7]. يعني أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة، ثم قال تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف: 8].

فاكتفى السابقون منها بما يكفي المسافر من الزاد كما قال النبي ﷺ: «مَا لِي وِلِلدُّنْيَا إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَرَاكِبٍ قَالَ فِي ظَلِّ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»[1].

ووصى ابن عمر رضي الله عنهما فقال: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»[2].

ومتى نوى من تناول شهواته المباحة التَّقَوِّي على طاعة الله كانت شهواته له طاعة يثاب عليها، كما قال معاذ رضي الله عنه: «إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي».

قال سعيد بن جبير: متاع الغرور ما يلهيك عن طلب الآخرة، وما لم يلهك فليس بمتاع غرور، لكنه متاع بلاغ إلى ما هو خير منه.

وقال يحيى بن معاذ: كيف لا أحب دنيا قدر لي فيها قوت أكتسب به حياة أدرك بها طاعة أنال بها الجنة.

---

(1) رواه الترمذي (2377) الزهد وقال: حسن صحيح، والحاكم (4/ 301) الرقاق وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وأحمد (1/ 391) وصححه الألباني في الصحيحة بشاهده رقم (439).

(2) رواه البخاري (6416) الرقاق، وأحمد (2/ 24)، والترمذي (2333) الزهد، وأبو نعيم (3/ 301) الحلية. [وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ].

وسئل أبو صفوان الرعيني: ما هي الدنيا التي ذمها الله في القرآن والتي ينبغي للعاقل أن يتجنبها؟ فقال: كل ما أصبت من الدنيا تريد به الدنيا فهو مذموم، وكل ما أصبت منها تريد به الآخرة فليس منها.

وقال الحسن: نعمت الدار كانت للمؤمن وذلك أنه عمل قليلًا وأخذ زاده منها للجنة، وبئست الدار كانت للكافر والمنافق وذلك أنه ضيع لياليه وكان زاده منها إلى النار.

قال عون بن عبد الله: الدنيا والآخرة في القلب ككفتي الميزان ما ترجح أحدهما تخف الأخرى.

وقال وهب: إنما الدنيا والآخرة كرجل له امرأتان، إذا أرضى إحداهما أسخط الأخرى.

أضرار حب الدنيا:

حب الدنيا هو الذي عَمَّرَ النار بأهلها، والزهد في الدنيا هو الذي عَمَّرَ الجنة بأهلها، والسكر بحب الدنيا أعظم من السكر بالخمر فصاحبه لا يفيق إلا في ظلمة اللحد، قال يحيى بن معاذ: «الدنيا خمر الشيطان من سكر منها فلا يفيق إلا في عسكر الموتى نادمًا بين الخاسرين، وأقل ما فيها أنه يلهي عن حب الله وذكره ومن ألهاه ماله فهو من الخاسرين، وإذا لهى القلب عن ذكر الله سكنه الشيطان وصرفه حيث أراد، ومن فقهه في الشر أنه يرضيه ببعض أعمال الخير ليريه أنه يفعل الخير.

يقول ابن مسعود ﷺ: ما أصبح أحدٌ في الدنيا إلا ضيف وما له عارية فالضيف مرتحل والعارية مؤداة.

قالوا وإنما كان حب الدنيا رأس الخطايا ومفسدًا للدين من وجوه:

أحدها: أن حبها يقتضي تعظيمها وهي حقيرة عند الله ومن أكبر الذنوب تعظيم ما حقر الله ﷻ.

ثانيها: أن الله لعنها ومقتها وأبغضها إلا ما كان له فيها، ومن أحب ما لعنه الله ومقته وأبغضه فقد تعرض للفتنة ومقته وغضبه.

ثالثها: أنه إذا أحبها صيرها غايته، وتوسل إليها بالأعمال التي جعلها الله وسائل إليه وإلى الدار الآخرة، فعكس الأمر وقلب الحكمة فها هنا أمران: أحدهما جعل الوسيلة غاية، والثاني التوسل بأعمال الآخرة إلى الدنيا، وهذا شر معكوس من كل وجه، وقلب منكوس غاية الانتكاس وهذا هو الذي انطبق عليه حَذْوَ القُذَّةِ بالقذة، قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [هود: 15، 16].

والأحاديث كثيرة منها حديث أبي هريرة في الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار الغازي والمتصدق والقارئ الذين أرادوا بذلك الدنيا والصيِّت.

فانظر محبة الدنيا كيف حرمت هؤلاء من الأجر وأفسدت عليهم عملهم وجعلتهم أول الداخلين إلى النار.

رابعًا: إن محبتها تعترض بين العبد وبين فعل ما يعود عليه نفعه في الآخرة باشتغاله عنه بمحبوبه، والناس هاهنا مراتب فمنهم من يشغله محبوبه عن الإيمان

وشرائعه، ومنهم من يشغله حبها عن كثير من الواجبات، ومنهم من يشغله عن القيام بالواجب في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي، فيفرط في وقته وفي حقوقه، ومنهم من يشغله عن الواجب الذي يعارض تحصيلها وإن قام بغيره، ومنهم من يشغله عن عبودية قلبه في الواجب وتفريغه لله عند أدائه فيؤديه ظاهرًا لا باطنًا، وأين هذا من عشاق الدنيا ومحبيها وهذا من أندرهم، وأقل درجات حبها أن يشغل عن سعادة العبد، وهو تفريغ القلب لحب الله ولسانه لذكره وجمع قلبه على لسانه، وجمع لسانه وقلبه على ربه فعشقها ومحبتها تضر بالآخرة ولابد كما أن محبة الآخرة تضر بالدنيا.

خامسها: أن محبتها تجعلها أكبر هم العبد فقد روى الترمذي من حديث أنس ابن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَتْ الآخِرَةُ هَمَّهُ، جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ، جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إلا مَا قُدِّرَ لَهُ»[1].

سادسها: أن محبها أشد الناس عذابًا بها وهو معذب في دوره الثلاث: يعذب في الدنيا بتحصيلها والسعي فيها ومنازعة أهلها، وفي دار البرزخ بفواتها والحسرة عليها وكونه قد حيل بينه وبين محبوبه على وجه لا يرجو اجتماعه به أبدًا ولم يحصل له هناك محبوب يعوضه عنه، فهذا أشد الناس عذابًا في قبره يعمل الهم

---

(1) رواه الترمذي (2465) صفة القيامة، صحيح: الصحيحة (949-950).

والغم والحزن والحسرة في روحه ما تعمل الديدان وهوام الأرض في جسمه.

والمقصود أن محب الدنيا يعذب في قبره، ويعذب يوم لقاء ربه قال تعالى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: 55].

قال بعض السلف: يعذبون بجمعها وتزهق أنفسهم بحبها وهم كافرون بمنع حق الله فيها.

وسابعها: أن عاشقها ومحبها الذي يؤثرها على الآخرة من أسْفَهِ الخلق وأقلهم عقلاً، إذ آثر الخيال على الحقيقة، والمنام على اليقظة، والظل الزائل على النعيم الدائم، والدار الفانية على الدار الباقية، وباع حياة الأبد في أرغد عيش بحياة إنما هي أحلام نوم أو كظلٍ زائلٍ إن اللبيب بمثلها لا يخدع، وكان بعض السلف يتمثل هذا البيت:

يَا أهلَ لَذَّاتِ دُنْيَا لاَ بَقَاءَ لَهَا   إِنَّ اغْـتِرَارًا بِظِلٍّ زَائِلٍ حُمُقٌ

قال يونس بن عبد الأعلى: ما شبهت الدنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه ما يكرهه وما يحبه، فبينما هو كذلك انتبه.

أشبه الأشياء بالدنيا ظل تحسب أن له حقيقة ثابتة وهو في تقلص وانقباض فتتبعه لتدركه فلا تلحقه، وأشبه الأشياء بها السراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب، وأشبه

الأشياء بها عجوز شوهاء قبيحة المنظر والمخبر غدارة بالأزواج تزينت للخُطّاب بكل زينة وسترت كل قبيح، فاغتر بها من لم يجاوز بصره ظاهرها فطلب النكاح، فقالت: لا مهر إلا فقد الآخرة فإننا ضرتان واجتماعنا غير مأذون فيه ولا مستباح، فآثر الخُطّابُ العاجلة وقالوا: ما على مَنْ وَاصَلَ حبيبته من جناح، فلما كشف قناعها وحل إزارها إذا كل آفة وبلية، فمنهم من طلق واستراح ومنهم من اختار المقام فما استتمت ليلة عرسه إلا بالعويل والصياح.

تالله لقد أذن مؤذنها على رؤوس الخلائق بحيَّ على غير الفلاح، فقام المجتهدون والمصلون لها فواصلوا في طلبها الغُدُوَّ بالرواح، وسروا ليلهم فلم يحمد القوم السرى عند الصباح، طاروا في صيدها فما رجع أحد منهم إلا وهو مكسور الجناح، فوقعوا في شبكتها فأسلمتهم للذباح.

كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز في ذم الدنيا كتابًا طويلًا قال فيه: أما بعد فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار مقام، وإنما أنزل إليها آدم عقوبة فاحذرها يا أمير المؤمنين، فإن الزاد منها تركها، والغنى فيها فقرها، تذل من أعزها وتفقر من جمعها، كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه، فاحذر هذه الدار الغرارة الختالة الخداعة، وكن أسَرَّ ما تكن فيها، أحذر ما تكون لها، سرورها مشوب بالحزن وصفوها مشوب بالكدر، فلو كان الخالق لم يخبر عنها خبرًا ولم يضرب لها مثلًا لكانت قد أيقظت النائم ونبهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله ﷻ عنها زاجر، وفيها واعظ، فما لها عند الله سبحانه قدر ولا وزن، وما نظر إليها منذ خلقها، ولقد عرضت على نبينَا ﷺ مفاتيح خزائنها، فأبى أن يقبلها وكره أن يحب ما

أبغضه خالقه أو يرفع ما وضعه مليكه، زواها الله عن الصالحين اختيارًا، وبسطها لأعدائه اغترارًا، أفيظن المغرور بها أنه أكرم بها ونسي ما صنع الله بمحمد ﷺ حين شد على بطنه الحجر والله ما أحد من الناس بسط له في الدنيا فلم يخف أن يكون مكرًا إلا كان قد نقص عقله وعجز رأيه وما أمسك عن عبد فلم يظنه خيرًا له فيها إلا نقص عقله وعجز رأيه.

***

(17) الصبر والشكر[1]

الحمد لله أهل الحمد والثناء المتفرد برداء الكبرياء، المتوحد بصفات المجد والعلاء، المؤيد صفوة الأولياء؛ بقوة الصبر على السراء والضراء، والشكر على البلاء والنعماء، والصلاة على محمد سيد الأنبياء وعلى أصحابه سادة الأصفياء وعلى آله قادة البررة الأتقياء صلاة محروسة بالدوام من الفناء ومصونة بالتعاقب عن التصرم والانقضاء.

فلما كان الإيمان نصفين؛ فنصف صبر ونصف شكر، كان حقيقًا على من نصح نفسه وأحب نجاتها وآثر سعادتها أن لا يهمل هذين الأصلين العظيمين، وأن يجعل سيره إلى الله ﷻ في هذين الطريقين القاصدين ليجعله الله يوم القيامة مع خير الفريقين.

الصبر

إن الله سبحانه جعل الصبر جوادًا لا يكبو وصارمًا لا ينبو وجندًا غالبًا لا يهزم وحصنًا حصينًا لا يهدم فهو والنصر أخوان شقيقان وقد مدح الله ﷻ في كتاب الصابرين وأخبر أنه يوفيهم أجرهم بغير حساب فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر: 10].

(1) عدة الصابرين - إحياء علوم الدين - رياض الصالحين.

وأخبر أنه معهم بهدايته ونصره العزيز وفتحه المبين فقال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: 46]. فظفر الصابرون بهذه المعية بخير الدنيا والآخرة وفازوا بها بنعمه الباطنة والظاهرة، وجعل سبحانه الإمامة في الدين منوطة بالصبر واليقين، فقال تعالى وبقوله اهتدى المهتدون: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: 24].

وأخبر تعالى أن الصبر خيرٌ لأهله مؤكدًا باليمين فقال تعالى: ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ [النحل: 126].

وأخبر أنه مع الصبر والتقوى لا يضر كيد العدو ولو كان ذا تسليط فقال تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران: 120].

وعلق الفلاح بالصبر والتقوى فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: 200].

وأخبر عن محبته لأهله وفي ذلك أعظم ترغيب للراغبين فقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: 146]. وبشر الصابرين بثلاث كل منها خير مما عليه أهل الدنيا يتحاسدون فقال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: 155-157].

وجعل الفوز بالجنة والنجاة من النار لا يحظى به إلا الصابرون فقال الله ﷻ: ﴿ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [المؤمنون: 111].

وخص في الانتفاع بآياته أهل الصبر وأهل الشكر تمييزًا لهم بهذا الحظ الموفور فقال في أربع آيات في كتابه: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ سور [الشورى: 33]، [سبأ: 19]، [إبراهيم: 5]، [لقمان: 31].

والصبر آخية المؤمن التي يجول ثم يرجع إليها، وساق إيمانه التي لا اعتماد له إلا عليها، فلا إيمان لمن لا صبر له، وإن كان فإيمان قليل في غاية الضعف وصاحبه ممن يعبد الله على حرف، فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة، ولم يحظ منهما إلا بالصفقة الخاسرة، فخير عيش أدركه السعداء بصبرهم، وترقوا إلى أعلى المنازل بشكرهم، فساروا بين جناحي الصبر والشكر إلى جنات النعيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

معنى الصبر وحقيقته:

الصبر لغة: هو المنع والحبس.

وشرعًا: هو حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكي، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ونحو ذلك.

وقيل: هو خُلق فاضل من أخلاق النفس يُمْتَنَعُ به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها.

وقال بعضهم: هو التباعد عن المخالفات، والسكون عند تجرع غصص البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة.

وقال آخر: هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب.

وقال آخر: هو الغنى في البلوى بلا ظهور شكوى.

وقال آخر: تجرع المرارة من غير تعبس.

والشكوى إلى الخلق تنافي الصبر وتضاده، وقد سمع أحد الصالحين رجلًا يشتكي إلى أخيه فقال له: يا هذا والله ما زدت على أن شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك، وفي ذلك قيل:

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما ... تشكي الرحيم إلى الذي لا يرحم

أما الشكوى إلى الله ﷻ فلا تنافي الصبر لقول يعقوب ﷺ: ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [يوسف: 86]. مع قوله: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف: 83].

وكذلك قول أيوب ﷺ: ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأنبياء: 83]

وقال ﷻ: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: 44].

وساحة العافية أوسع للعبد من ساحة الصبر ولا ينافي هذا قوله ﷺ: «وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً أَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ»[1]. فإن هذا بعد نزول البلاء أما قبل نزوله فميدان

---

(1) رواه البخاري (1469) الزكاة، ومسلم (1053) الزكاة.

العافية أوسع الميادين، ولا يَنْبَغِي لأحد أن يتمنى البلاء ويطلبه من الله ﷻ، بل يطلب العفو والعافية في الدنيا والآخرة، أما بعد حلول البلاء فساحة الصبر أوسع الساحات.

والنفس مطية العبد التي يسير عليها إلى الجنة أو النار، والصبر لها بمنزلة الخطام والزمام للمطية، فإن لم يكن للمطية خطام ولا زمام شردت في كل مذهب.

قال بعضهم: «اقدعوا هذه النفوس فإنها طلعة إلى كل سوء فرحم الله امرءًا جعل لنفسه خطامًا وزمامًا، فقادها إلى طاعة الله، وصرفها بزمامها عن معاصي الله، فإن الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذابه».

والنفس لها قوتان: قوة إقدام وقوة إحجام، فحقيقة الصبر أن يجعل قوة الإقدام مصروفة إلى ما ينفعه، وقوة الإحجام إمساكًا عما يضره، ومن الناس من يصبر على قيام الليل ومشقة الصيام ولا يصبر على نظرة محرمة، ومنهم من يصبر على النظر والالتفات إلى الصور ولا صبر له على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد.

وقيل: الصبر شجاعة النفس ومن هنا أخذ القائل قوله: الشجاعة صبر ساعة، والصبر والجزع ضدان كما أخبر تعالى عن أهل النار: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: 21].

الأخبار في فضيلة الصبر:

❁ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ الله وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»[1].

❁ وعن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ أن رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ يُرِدْ الله بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ»[2].

❁ وعن عطاء بن أَبِي رَبَاحٍ ﷺ قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَلاَ أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: هَذِهِ الْمَرْأَةُ السَّوْدَاءُ، أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللهَ لِي، قَالَ: «إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ». فَقَالَتْ: أَصْبِرُ فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللهَ لِي أَنْ لاَ أَتَكَشَّفَ، فَدَعَا لَهَا[3].

❁ وعن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ، أَوْ سَافَرَ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا»[4].

❁ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ الله إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ اللَّهُمَّ! أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إلا أَخْلَفَ الله لَهُ خَيْرًا مِنْهَا» قَالَتْ: فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُ: أَيُّ

---

(1) انظر: التخريج السابق (ص 247).

(2) رواه البخاري (5645) المرضى، ومالك في الموطأ (2/ 9541) في العين.

(3) رواه البخاري (5652) المرضى، ومسلم (2576) البر والصلة.

(4) رواه البخاري (2996) الجهاد، وأبي داود (3091) الجنائز.

المُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ؟ أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ثُمَّ إِنِّي قُلْتُهَا. فَأَخْلَفَ اللهُ لِي رَسُولَه ﷺ»[1].

۞ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ مُصِيبَةٍ تُصِيبُ المُسْلِمَ إِلا كَفَّرَ اللهُ بِهَا عَنْهُ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا»[2].

الآثــــار:

۞ قال سفيان بن عيينة في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: 24].

لما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رؤوسًا.

۞ وعن سعيد بن جبير قال: الصبر اعتراف العبد لله بما أصابه منه، واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر.

قال إبراهيم رحمه الله: فقوله اعتراف العبد لله بما أصابه منه كأنه تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ فيعترف أنه ملك لله يتصرف فيه مالكه بما يريد، وقوله: «راجيًا به ما عند الله» كأنه تفسير لقوله: ﴿ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ أي نرد إليه فيجزينا على

---

(1) رواه مسلم (918) الجنائز، ومالك في الموطأ (1/ 236) الجنائز، وأبي داود (3115) الجنائز بمعناه، وابن ماجه (1621) الجنائز.

(2) رواه البخاري (5640) المرضى، ومسلم (2572م) البر والصلة.

صبرنا ولا يضيع أجر المصيبة، وقوله: «وقد يجزع الرجل وهو يتجلد» أي ليس الصبر بالتجلد وإنما هو حبس القلب عن التسخط على المقدور، ورد اللسان عن الشكوى فمن تجلد وقلبه ساخط على القدر فليس بصابر.

ولما أرادوا قطع رجل عروة بن الزبير قالوا له: لو سقيناك شيئًا كيلا تشعر بالوجع. فقال: إنما ابتلاني ليرى صبري أفأعارض أمره.

وكان عمر ﷺ يقول: نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين، يعني بالعدلين الصلاة والرحمة، وبالعلاوة الهدى، والعلاوة ما يحمل فوق العدلين على البعير وأشار به إلى قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾[البقرة: 155-157].

أقسام الصبر:

ينقسم الصبر باعتبار مُتَعلَّقِهِ إلى ثلاثة أقسام: صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها، وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها، وهذه الأنواع الثلاثة هي التي قيل فيها: «لابد للعبد من أمر يفعله، ونهي يجتنبه، وقدر يصبر عليه».

وينقسم باعتبار الأحكام الخمسة إلى واجب ومندوب ومحظور ومكروه ومباح.

فالواجب: الصبر على المحرمات، والصبر على أداء الواجبات، والصبر على المصائب.

والمندوب: الصبر عن المكروهات، والصبر على المستحبات، والصبر على مقابلة الجاني بمثل فعله.

والمحظور: الصبر على الطعام والشراب حتى يموت، والصبر عن الميتة والدم ولحم الخنزير عند الاضطرار إذا خاف بتركه الموت، ومن الصبر المحظور صبر الإنسان على ما يقصد هلاكه من سبع أو حية أو حريق أو كافر يريد قتله، بخلاف استلامه، وصبره في الفتنة وقتال المسلمين فإنه مباح له بل يستحب كما دلت عليه النصوص الكثيرة.

والمكروه: صبره على المكروه وصبره عن فعل المستحب، وكذلك الصبر على الطعام والشراب واللبس وجماع أهله حتى يتضرر بذلك بدنه.

والمباح: هو الصبر عن كل فعل مستوي الطرفين، خير بين فعله وتركه والصبر عليه.

بيان أن الإنسان لا يستغني عن الصبر في حال من الأحوال:

العبد بين أمر يجب عليه امتثاله وتنفيذه، ونهي يجب عليه اجتنابه وتركه، وقدر يجري عليه اتفاقًا، فالصبر لازم إلى الممات، وكل ما يلقى العبد في هذه الدار لا يخلو من نوعين:

أحدهما: يوافق هواه ومراده.

والآخر: يخالفه وهو محتاج إلى الصبر في كل منهما.

أما النوع الموافق لغرضه فكالصحة والسلامة والجاه والمال وأنواع الملاذ المباحة وهو أحوج شيء إلى الصبر فيها وجوه:

أحدها: أن لا يركن إليها ولا يغتر بها، ولا تحمله على البطر والأشر والفرح المذموم الذي لا يحب الله أهله.

الثاني: أن لا ينهمك في نيلها ويبالغ في استقصائها؛ فإنها تنقلب إلى أضدادها، فمن بالغ في الأكل والشرب والجماع انقلب ذلك إلى ضده وحرم الأكل والشرب والجماع.

الثالث: أن يصبر على أداء حق الله فيها ولا يضيعه فيسلبها.

الرابع: أن يصبر عن صرفها في الحرام.

قال بعض السلف: البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر، ولا يصبر على العافية إلا الصديقون، وقال عبد الرحمن بن عوف: ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر؛ ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال والأزواج والأولاد فقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن: 14].

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما وَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن: 14]. قَالَ: هَؤُلاءِ رِجَالٌ أَسْلَمُوا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، وَأَرَادُوا أَنْ يَأْتُوا النَّبِيَّ ﷺ، فَأَبَى أَزْوَاجُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ أَنْ يَدَعُوهُمْ أَنْ يَأْتُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ؛ فَلَمَّا أَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ، رَأَوْا النَّاسَ قَدْ فَقِهُوا فِي الدِّينِ، هَمُّوا أَنْ يُعَاقِبُوهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن: 14][1].

---

(1) رواه الترمذي (3317) التفسير وقال: هذا حديث حسن صحيح، وقال المباركفوري في التحفة =

وما أكثر ما فات العبد من الكمال والفلاح بسبب زوجته وولده.

وأما النوع الثاني المخالف للهوى فلا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي أو لا يرتبط باختياره كالمصائب أو يرتبط أوله باختياره ولكن لا اختيار له في إزالته بعد الدخول فيه فها هنا ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

ما يرتبط باختياره وهو جميع أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية.

فأما الطاعة فالعبد محتاج إلى الصبر عليها؛ لأن النفس بطبعها تنفر عن كثير من العبودية.

أما في الصلاة فلما في طبعها من الكسل وإيثار الراحة لاسيما إذا اتفق مع ذلك قسوة القلب، ورين الذنب، والميل إلى الشهوات، ومخالطة أهل الغفلة؛ فلا يكاد العبد مع هذه الأمور وغيرها أن يفعلها، وإن فعلها مع ذلك كان متكلفًا غائب القلب ذاهلًا عنها طالبًا لفراقها.

وأما الزكاة فلما في طبع النفس من الشح والبخل، وكذلك الحج والجهاد للأمرين جميعًا، ويحتاج العبد ها هنا إلى الصبر في ثلاثة أحوال:

وأخرجه ابن حاتم وابن جرير الطبراني.

أحدها: قبل الشروع فيها بتصحيح النية والإخلاص وتجنب دواعي الرياء والسمعة.

الحالة الثانية: الصبر حال العمل فيلازم العبد الصبر عن دواعي التقصير فيه والتفريط ويلازم الصبر على استصحاب النية وعلى حضور القلب بين يدي المعبود، وأن لا ينساه في أمره فليس الشأن في فعل المأمور؛ بل الشأن كل الشأن أن لا ينسى الآمر حال الإتيان بأمره، بل يكون مستصحبًا لذكره في أمره.

الحالة الثالثة: الصبر بعد الفراغ من العمل وذلك من وجوه:

أحدها: أن يصبر نفسه عن الإتيان بما يبطل عمله، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: 264].

الثاني: أن يصبر عن رؤيتها والعجب بها والتكبر والتعظم بها فإن هذا أضر عليه من كثير من المعاصي الظاهرة.

الثالث: أن يصبر عن نقلها من ديوان السر إلى ديوان العلانية، فإن العبد يعمل العمل سرًا بينه وبين الله سبحانه؛ فيكتب في ديوان السر، فإن تحدث به نقل إلى ديوان العلانية، فلا يظن أن بساط الصبر قد انطوى بالفراغ من العمل.

وأما الصبر عن المعاصي فأمره ظاهر وأعظم ما يعين عليه قطع المألوفات ومفارقة الأعوان عليها في المجالسة والمحادثة، وقطع العوائد فإن العادة طبيعة خاصة فإذا انضافت الشهوة إلى العادة تظاهر جندان من جند الشيطان، فلا يقوى باعث الدين على قهرهما في الغالب.

القسم الثاني:

ما لا يدخل تحت الاختيار وليس للعبد حيلة في دفعه كالمصائب التي لا صنع للعبد فيها كموت من يعز عليه وسرقة ماله ومرضه ونحو ذلك وهذا نوعان.

أحدهما: ما لا صنع للعبد الآدمي فيه، والثاني ما أصابه من جهة آدمي كالسب والضرب وغيرهما.

فالنوع الأول للعبد فيه أربعة مقامات:

أحدها: مقام العجز وهو مقام الجزع والشكوى والسخط، وهذا ما يفعله إلا أقل الناس عقلًا ودينًا.

المقام الثاني: مقام الصبر.

المقام الثالث: مقام الرضا، وهو أعلى من مقام الصبر وفي وجوبه نزاع، والصبر متفق على وجوبه.

المقام الرابع: مقام الشكر، وهو أن يشهد البلية نعمة فيشكر المبتلى عليها.

الثاني: وهو ما أصابه من قبل الناس فله فيه هذه المقامات ويضاف إليها أربعة أخر: مقام العفو والصفح، والثاني: مقام سلامة القلب من إرادة التشفي والانتقام وفراغه من ألم مطالعة الجناية كل وقت وضيقه بها.

الثالث: مقام شهود القدر وأنه وإن كان ظالمًا بإيصال هذا الأذى إليك فالذي قدره عليك وأجراه على يد هذا الظالم ليس بظالم.

المقام الرابع: مقام الإحسان إلى المسيء ومقابلة إساءته بإحسانك، وفي هذا المقام من الفوائد والمصالح مالا يعلمه إلا الله، فإن فات العبد هذا المقام العالي فلا يرضى لنفسه بأخس المقامات وأسفلها.

القسم الثالث:

ما يكون وروده باختياره فإذا تمكن منه لم يكن له اختيار ولا حيلة في دفعه، وهذا كالعشق أوله اختيار وآخره اضطرار، وكالتعرض لأسباب الأمراض والآلام التي لا حيلة في دفعها بعد مباشرة أسبابها كما لا حيلة في دفع السُكر بعد تناول المُسكر.

***

الشكــــر

الشكر هو الثناء على المنعم بما أولاه من معروف.

وشكر العبد يدور على ثلاثة أركان لا يكون شكرًا إلا بمجموعها وهي الاعتراف بالنعمة باطنًا، والتحدث بها ظاهرًا، والاستعانة بها على طاعة الله، فالشكر يتعلق بالقلب واللسان والجوارح، فالقلب للمعرفة والمحبة، واللسان للثناء والحمد، والجوارح لاستعمالها في طاعة المشكور وكفها عن معصيته.

وقد قرن الله ﷻ الشكر بالإيمان، وأخبر أنه لا غرض له في عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا فقال: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾[النساء: 147].
أي إن وفيتم ما خلقتم له وهو الشكر والإيمان فما أصنع بعذابكم.

وأخبر سبحانه أن أهل الشكر المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[الأنعام: 53].

وقسم الناس إلى شكور وكفور فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله فقال تعالى ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: 3]. وقال تعالى على لسان نبيه سليمان عليه السلام: ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾[النمل: 40].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾[إبراهيم: 7].

فعلق سبحانه المزيد بالشكر، والمزيد منه لا نهاية له كما لا نهاية لشكره.

وقد وقف سبحانه كثيرًا من الجزاء على المشيئة كقوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ﴾ [التوبة: 28].

وقال في الإجابة: ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ ﴾ [الأنعام: 41].

وقال في الرزق: ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة: 212].

وقال في التوبة: ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ﴾ [التوبة: 15]. وأطلق جزاء الشكر إطلاقًا حيث ذكر كقوله: ﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: 145]. وقال: ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: 144].

ولما عرف عدو الله إبليس قدر مقام الشكر، وأنه من أجَلّ المقامات وأعلاها جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه فقال: ﴿ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: 17].

ووصف سبحانه الشاكرين بأنهم قليل من عباده فقال تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ: 13].

وقد أثنى الله ﷻ على أول رسول بعثه إلى الأرض بالشكر فقال: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء: 3].

وفي تخصيص نوح ها هنا بالذكر وخطاب العباد بأنهم ذريته إشارة إلى الاقتداء به، فإنه أبوهم الثاني فإن الله تعالى لم يجعل للخلق بعد الغرق نسلًا إلا من

ذريته كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ [الصافات: 77]. فأمر الذرية أن يتشبهوا بأبيهم في الشكر فإنه كان عبدًا شكورًا. وقد أخبر سبحانه إنما يعبده من شكره فمن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته فقال: ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة: 172].

وأخبر أن رضاه في شكره فقال تعالى: ﴿ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر: 7]. وأثنى سبحانه على خليله إبراهيم بشكر نعمه فقال ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: 120، 121].

وأخبر عنه سبحانه بأنه أمة أي قدوة يؤتم به في الخير، وأنه كان قانتًا لله، والقانت هو المطيع المقيم على طاعته، والحنيف هو المقبل على الله المعرض عما سواه، ثم ختم له هذه الصفات بأنه شاكر لأنعمه، فجعل الشكر غاية خليله.

وأخبر سبحانه أن الشكر هو الغاية من خلقه بل هو الغاية التي خلق عبيده لأجلها: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: 78].

وقد ثبت في الصحيحين أَنَّا النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى حَتَّى انْتَفَخَتْ قَدَمَاهُ. فَقِيلَ لَهُ: أَتَكَلَّفُ هَذَا؟ وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ. فَقَالَ: «أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»[1].

---

(1) رواه البخاري (1130) التهجد، ومسلم (2819) صفات المنافقين والترمذي (412) الصلاة، والنسائي (1643) قيام الليل.

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ وَقَالَ: «يَا مُعَاذُ! وَاللهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ، وَاللهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ». فَقَالَ: «أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لاَ تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ، تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»(1).

وفي صحيح مسلم عنه ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنْ الْعَبْدِ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا. أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»(2).

فكان هذا الجزاء العظيم الذي هو أكبر أنواع الجزاء كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[التوبة: 72]. في مقابلة شكره بالحمد.

والشكر قيد النعم وسبب المزيد، كما قال عمر بن عبد العزيز: قيدوا نعم الله بشكر الله، وذكر ابن أبي الدنيا عن عَلِيِّ بن أبي طالب ﷺ أنه قال لرجل من همذان: إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر يتعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد.

وقال الحسن: أكثروا من ذكر هذه النعم فإن ذكرها شكر، وقد أمر الله نبيه أن يحدث بنعمة ربه فقال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[الضحى: 11]. والله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده فإن ذلك شكرها بلسان الحال.

---

(1) رواه أبي داود (1522) الصلاة وقال النووي: إسناده صحيح (4/ 385) عون المعبود. وانظر: تحفة الأشراف (8/ 406).

(2) رواه مسلم (2734) الذكر والدعاء، والترمذي (1816) الأطعمة.

وكان أبو المغيرة إذا قيل له كيف أصبحت يا أبا محمد؟ قال: أصبحنا مغرقين في النعم عاجزين عن الشكر، يتحبب إلينا ربنا وهو غني عنا، ونتمقت إليه ونحن محتاجون.

وقال شريح: ما أصيب عبد بمصيبة إلا كان لله عليه فيها ثلاث نعم، ألا تكون كانت في دينه، وألا تكون أعظم مما كانت، وأنها لابد كائنة فقد كانت.

وعن سفيان في قوله: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم: 44]. قال: يسبغ عليهم النعم ويمنعهم الشكر.

وقال غيره: كلما أحدثوا ذنبًا أحدث لهم نعمة.

قال رجل لأبي حازم: ما شكر العينين يا أبا حازم؟ فقال: إن رأيت بهما خيرًا أعلنته، وإن رأيت بهما شرًا سترته، قال فما شكر الأذنين؟ قال: إن سمعت بهما خيرًا وعيته، وإن سمعت بهما شرًا دفعته، قال: فما شكر اليدين؟ قال: لا تأخذ بهما ما ليس لهما، ولا تمنع حقًا لله هو فيهما، قال: ما شكر البطن؟ قال: أن يكون أسفله طعامًا وأعلاه علمًا، قال: فما شكر الفرج؟ قال: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المعارج: 29-31]. قال: فما شكر الرجلين؟ قال: إن علمتَ ميّتًا تغبطه استعملتَ بهما عمله، وإن مَقَتَّهُ رغبتَ عن عمله وأنت شاكر لله، وأما من شكر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه فمثله كمثل

رجل له كساء فأخذ بطرفه ولم يلبسه فما نفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر.

وكتب بعض العلماء إلى أخ له: أما بعد فقد أصبح بنا من نعم الله ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه، فمَا ندري أيهما نشكر أجميل ما يَسَّرَ؟ أم قبيح ما سَتَرَ؟

وقال يونس بن عبيد: قال رجل لأبي تميمة: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت بين نعمتين لا أدري أيتهما أفضل: ذنوب سترها الله علَيَّ فلا يستطيع أن يعيرني بها أحد، ومودة قذفها الله في قلوب العباد لا يبلغها عملي.

وقال الحسن: ما أنعم الله على عبد نعمة فقال: الحمد لله إلا كان ما أعطى أكثر مما أخذ.

قال ابن القيم رحمه الله: قوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ نعمة من نعم الله، والنعمة التي حمد الله عليها أيضًا من نعم الله، وبعض النعم أجَل من بعض، فنعمة الشكر أجل من نعمة المال والجاه والولد والزوجة ونحوها والله أعلم.

(18) الخوف والرجاء[1]

الحمد لله المَرْجُو لُطْفُهُ وثَوَابُهُ، المَخُوف مَكْرُهُ وعِقَابُهُ، الذي عمر قلوب أوليائه بروح رجائه حتى ساقهم بلطائف آلائه إلى النزول بفنائه والعدول عن دار بلائه التي هي مستقر أعدائه، وضرب بسياط التخويف وزجره العنيف وجوه المعرضين عن حضرته إلى دار ثوابه وكرامته وصدهم عن التعرض لأئمته والتهدف لسخطه ونقمته، قودًا لأصناف الخلق بسلاسل القهر والعنف وأَزِمَّةِ الرفق واللطف إلى جنته، والصلاة والسلام على محمد سيد أنبيائه وخير خليقته وعلى آله وأصحابه وعترته.

أما بعد: فإن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود، فلا يقود إلى قرب ٱلرَّحْمَٰن وروح الجنان مع كونه بعيد الأرجاء ثقيل الأعباء محفوفًا بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء إلا أَزِمَّةُ الرجاء، ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الأليم مع كونه محفوفًا بلطائف الشهوات وعجائب اللذات إلا سياط التخويف وسطوات التعنيف فلابد إذًا من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسبل التوصل إلى الجمع بينهما، والله الموفق للخيرات الهادي لأعلى الدرجات.

---

(١) إحياء علوم الدين - مدارج السالكين - رياض الصالحين - الجواب الكافي.

الخــوف

الخوف سوط الله يسوق به عباده إلى العلم والعمل لينالوا بهما القرب من الله تعالى، وهو عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال، والخوف هو الذي يكف الجوارح عن المعاصي ويقيدها بالطاعات، والخوف القاصر يدعو إلى الغفلة والجراءة على الذنب والإفراط في الخوف يدعو إلى القنوط واليأس، والخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع، وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي، وتارة يكون بهما جميعًا، وبحسب معرفته بعيوب نفسه ومعرفته بجلال الله تعالى واستغنائه وأنه لا يُسْأل عما يفعل وهم يُسْألُون تكون قوة خوفه، فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه، ولذلك قال ﷺ: «فَوَاللهِ إِنِّي لأَعْلَمُهُمْ بِاللهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً»(1).

وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾[فاطر: 28].

قال ابن مسعود ﷺ: كفى بخشية الله علمًا وكفى بالاغترار جهلًا.

(1) رواه البخاري (6101) الأدب، ومسلم (2356) الفضائل وأحمد (6/ 45،181).

درجات الخوف:

الخوف له قصور وله إفراط وله اعتدال والمحمود هو الاعتدال والوسط، فأما القاصر منه فهو الذي يجري مجرى رقة النساء، يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع، وكذلك عند مشاهدة سبب هائل فإذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب إلى الغفلة، فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع، وهو كالقضيب الضعيف الذي تضرب به دابة قوية لا يؤلمها ألمًا مُبَرِّحًا فلا يسوقها إلى المقصد ولا يصلح لرياضتها، وهكذا خوف الناس إلا العلماء العارفين.

قال الفضيل بن عياض: إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت فإنك إن قلت: لكفرت، وإن قلت: نعم كذبت.

وأشار به إلى الخوف الذي هو يكف الجوارح عن المعاصي ويقيدها بالطاعات.

وقيل: كذلك ليس الخائف من يبكي ويمسح عينه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه.

وقال بعضهم: من خاف شيئًا هرب منه، ومن خاف الله هرب إليه.

وقيل لبعضهم: متى يكون العبد خائفًا؟ قال: إذا نزل نفسه منزلة السقيم الذي يحتمي مخافة طول السقام.

والخوف يحرق الشهوات المحرمة فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروهًا عن من يشتهيه إذا عرف أن فيه سمًا، فتحرق الشهوات بالخوف، وتتأدب الجوارح، ويحصل في القلب الخشوع والذلة والاستكانة. ويفارقه الكبر والحقد

والحسد، بل يصير مستوعب الهم بخوفه، والنظر في خطر عاقبته، فلا يتفرغ لغيره ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالأنفاس واللحظات ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات، ويكون حاله حال من وقع في مخلب سبع ضار لا يدري أنه يغفل عنه فيفلت أو يهجم عليه فيهلك فيكون ظاهره وباطنه مشغولًا بما هو فيه خائفًا منه لا متسع فيه لغيره فهذا حال من غلبه الخوف.

والإفراط في الخوف هو الذي يجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط، وهو مذموم أيضًا لأنه يمنع من العمل.

فضيلة الخوف:

جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهي مجامع مقامات أهل الجنات قال الله تعالى: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف: 154]. وقال ﷻ: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاؤُا ﴾ [فاطر: 28].

وقال تعالى: ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ [البينة: 8]. وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف، لأن الخوف ثمرة العلم، وقال ﷻ: ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: 175]. فأمر بالخوف وأوجبه وشرطه في الإيمان فلذلك لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف، ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه. وقال ﷻ: ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ [البقرة: 40]. أي خافون خوفًا معه تحرز فيما تأتون وتذرون وفي الآية أن ا لمؤمن لا يخاف أحدًا إلا الله.

وقال تعالى حاكيًا عن أهل الجنة: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الطور: 25-28].

فقوله: ﴿ مُشْفِقِينَ ﴾ أي خائفين من عصيان الله تعالى معتنين بطاعته.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك: 12].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون: 57-61].

روى الترمذي في جامعه عن عائشة رضي الله عنها قالت: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ فقلت: أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ: «لا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ! وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ، وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لا يُقْبَلَ مِنْهُمْ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [المؤمنون: 61]»[1].

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ رَجُلًا حَضَرَهُ الْمَوْتُ، فَلَمَّا يَئِسَ مِنَ الْحَيَاةِ أَوْصَى أَهْلَهُ، إِذَا أَنَا مُتُّ فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا كَثِيرًا، وَأَوْقِدُوا فِيهِ نَارًا، حَتَّى إِذَا أَكَلَتْ لَحْمِي وَخَلَصَتْ إِلَى

---

(1) رواه الترمذي (3175) التفسير والحاكم (2/ 394) التفسير وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وفي سنده انقطاع وله شاهد عند ابن جرير يقويه. وانظر: هامش جامع الأصول (2/ 254).

عَظْمِي فَامْتُحِشَتْ، فَخُذُوهَا فَاطْحَنُوهَا، ثُمَّ انْظُرُوا يَوْمًا رَاحًا فَاذْرُوهُ فِي الْيَمِّ؛ فَفَعَلُوا فَجَمَعَهُ اللهُ فَقَالَ لَهُ: لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ؟ قَالَ: مِنْ خَشْيَتِكَ، فَغَفَرَ اللهُ لَهُ»[1].

وعن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعت رَسُولَ اللهِ ﷺ يقول: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الْجَنَّةُ»[2].

قوله: «أَدْلَجَ» أي سار من أول الليل، والمعنى أن من خاف ألزمه الخوف السلوك إلى الآخرة والمبادرة بالأعمال الصالحة خوفًا من القواطع والعوائق.

قال الحسن البصري رحمه الله: إن المؤمنين قوم ذلت منهم والله الأسماع والأبصار والجوارح حتى يحسبهم الجاهل مرضى وإنهم والله الأصحاء، ولكن دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة، فقالوا: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، أما والله ما أحزنهم ما أحزن الناس، ولا تعاظم في قلوبهم شيء طلبوا به الجنة، إنه من لم يتعز بعزاء الله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، ومَنْ لم ير لله عليه نعمة في غير مطعم أو مشرب فقد قل علمه وحضر عذابه.

---

(1) رواه البخاري (3452) أحاديث الأنبياء، ومسلم (1560) والنسائي (2078) الجنائز، وابن ماجه (3432) الزهد وأحمد (2/ 269).

(2) رواه الترمذي (2450) صفة القيامة وقال: هذا حديث حسن غريب، والحاكم (4/ 308) الرقاق، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي والألباني في الصحيحة (954،2335).

الأخبار في الخوف:

قال الله ﷻ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: 6].

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ [هود: 102-106].

عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خُطْبَةً مَا سَمِعْتُ مِثْلَهَا قَطُّ. قَالَ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا». فَغَطَّى أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وُجُوهَهُمْ لَهُمْ خَنِينٌ[1].

وفي رواية، بَلَغَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ أَصْحَابِهِ شَيْءٌ فَخَطَبَ فَقَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا». قَالَ: فَمَا أَتَى عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمٌ أَشَدُّ مِنْهُ. غَطَّوْا رُءُوسَهُمْ وَلَهُمْ خَنِينٌ.

والخنين: هو البكاء مع غنة بانتشار الصوت من الأنف.

---

(1) رواه البخاري (4621) التفسير، ومسلم (2359) الفضائل.

وعن عبد الله بْنِ الشِّخِّيرِ أن رسول الله ﷺ كان إذا دخل في الصلاة يسمع لصدره أزيزٌ كأزيزِ الْمِرْجَلِ[1]؛ فهذا خوف النبي ﷺ، أما خوف الملائكة فقد قال الله ﷻ: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل: 50].

وقال تعالى: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾ [الرعد: 13].

ومن تأمل أحوال الصحابة ﭫ ومن بعدهم من الصالحين وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن، فكلما ازداد علم العبد بالله ﷻ وبنفسه ازداد خوفه وعمله، وكلما ازداد جهله بربه وبنفسه ازداد أمنه وتفريطه، فهذا الصديق ﭬ يقول: وددت أني شعرة في جَنْب عبد مؤمن، وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عود من خشية الله ﷻ.

هذا عمر بن الخطاب ﭬ قرأ سورة الطور حتى بلغ: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾ [الطور: 7]. بكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه وقال لابنه وهو يموت: ويحك

(1) رواه مسلم (2359) الفضائل، وأبي داود (890) الصلاة بلفظ «الرَّحى»، والنسائي (2313)، وأحمد (4/ 25،26).

قال السيوطي: «أزيز» أي خنين من الجوف وهو صوت البكاء وهو أن يجيش جوفه ويغلي بالبكاء «كأزيز المرجل» وهو بالكسر الإناء الذي يغلي فيه الماء سواء كان من حديد أو صفر أو حجارة أو خزف هامش (3/ 13)، النسائي، وقال في المرقاة: وفي الحديث دليل على أن البكاء لا يبطل الصلاة سواء ظهر منه حرفان أم لا. واستدل على جواز البكاء في الصلاة بقوله تعالى: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [مريم: 58]. عون المعبود (3/ 173).

ضع خدي على الأرض، عساه يرحمني ثم قال: ويل أمي إن لم يغفر لي ثلاثًا ثم قضى، وكان يمر بالآية في ورده بالليل تخيفه فيبقى في البيت أيامًا يعاد يحسبونه مريضًا، وكان في وجهه خطان أسودان من كثرة البكاء، وقال له ابن عباس: مَصَّرَ الله بك الأمصار، وفتح بك الفتوح وفعل فقال: وددت أني أنجو لا أجر ولا وزر.

وهذا عثمان بن عفان ﷺ: كان إذا وقف على القبر يبكي حتى يبل لحيته، قال لو أنني بين الجنة والنار ولا أدري أيتهما أصير لاخترت أن أكون رمادًا قبل أن أعلم أيتهما أصير.

وهذا عَلِيّ ﷺ وقد سلم من صلاة الفجر وقد علاه كآبة وهو يقلب يده ويقول: لقد رأيت أصحاب رسول الله ﷺ فلم أر اليوم شيئًا يشبههم، لقد كانوا يصبحون شُعْثًا صفرًا غُبْرًا بين أعينهم أمثال رُكَبِ المِعْزَى، قد باتوا سجدًا وقيامًا يتلون كتاب الله، يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا ذكروا الله، تمادوا كما يميد الشجر في يوم الريح وهملت أعيونهم بالدموع، حتى تبل ثيابهم، والله فكأني بالقوم باتوا غافلين، فما رؤى بعد ذلك ضاحكًا حتى ضربه ابن مُلْجِمْ.

وكان ابن عباس ﷺ أسفل عينيه مثل الشِرَاك البالي من كثرة الدموع.

وكان أبو ذر ﷺ يقول: لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعامًا على شهوة، ولا شربتم شرابًا على شهوة، ولا دخلتم بيتًا تستظلون به، ولخرجتم إلى الصعيد تضربون صدروكم وتبكون على أنفسكم، ولوددت أني شجرة تعضد ثم تؤكل.

قوله تعضد: أي تقطع.

وروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه قال: ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا، فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته وصلى حتى ينكسر صلبه.

قال موسى بن مسعود: كنا إذا جلسنا إلى سفيان كأن النار قد أحاطت بنا لما نرى من خوفه وجزعه.

ووصف أحدهم الحسن فقال: كان إذا أقبل فكأنما أقبل من دفن حميمه، وإذا جلس فكأنه أسير أمر بقطع رقبته، وإذ ذكرت النار فكأنها لم تخلق إلا له.

وروى أن زرارة بن أبي أوفى قاضي البصرة صلى بالناس الفجر بسورة المدثر فلما قرأ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [المدثر: 8، 9]. أخذته شهقة فمات.

الرجـــاء

الرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده، وإذا كانت الأسباب غير موجودة فاسم الغرور والحمق عليه أصدق، وإذا كان الأمر مقطوعًا به فلا يسمى رجاءً، إذ لا يقال أرجو طلوع الشمس، ولكن يمكن أن يقال أرجو نزول المطر.

وقد علم علماء القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض والإيمان كالبذر فيها والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها، والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التي لا

ينمو فيها البذر، ويوم القيامة يوم الحصاد، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا ينمو إلا من بذر الإيمان وقلما ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه، وكما لا ينمو بذر في أرض سبخة فينبغي أن يقاس رجاء المغفرة برجاء صاحب الزرع، فكل من طلب أرضًا طيبة وألقى فيها بذرًا طيبًا غير عَفِنٍ ولا مسوس، ثم أمده بما يحتاج إليه في أوقاته ثم نقى الشوك والحشيش وكل ما يمنع نبات البذرة أو يفسده، ثم جلس منتظرًا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته، سمي انتظاره رجاء، وإن بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا يصل إليها الماء، ولم يشتغل بتعهد البذر أصلاً، ثم انتظر الحصاد منه سمي انتظاره حمقًا وغرورًا لا رجاء.

فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع المفسدات، فالعبد إذا بث بذر الإيمان وسقاه بماء الطاعات، وطهره من شوك الأخلاق الرديئة، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة، كان انتظاره رجاءًا حقيقيًا.

الفرق بين الرجاء والغرور:

الفرق بين الرجاء والغرور أن الرجاء إن حمل على العمل وحث عليه وساق إليه فهو صحيح، وإن دعا إلى البطالة والانهماك في المعاصي فهو غرور، فمن كان رجاؤه هاديًا إلى الطاعة وزاجرًا له عن المعصية فهو رجاء صحيح، ومن كانت

بطالته رجاء ورجاؤه تفريطًا فهو المغرور، ولو أن رجلًا كانت له أرض يؤمل أن يعود عليه منها ما ينفعه فأهملها ولم يبذرها ولم يحرثها وحسن ظنه بأنه يأتي منها ما يأتي من حرث وبذر وسقي وتعاهد الأرض لعده الناس من أسفه السفهاء، وكذلك لو حسن ظنه وقوي رجاه بأن يجيئه ولد من غير جماع أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب للعلم وحرص تام عليه وأمثال ذلك، فكذلك من حسن ظنه وقوى رجاؤه في الفوز بالدرجات العلا والنعيم المقيم من غير تقرب إلى الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

وكثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه فضيعوا أمره ونهيه ونسوا أنه شديد العقاب وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين، ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاند.

قال معروف: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق.

وقال بعض العلماء: من قطع عضوًا منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم لا تأمن أن تكون عقوبته في الآخرة على نحو هذا.

وقال رجل للحسن: أراك طويل البكاء. فقال: أخاف أن يطرحني ولا يبالي.

وكان يقول: إن قومًا ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة، يقول أحدهم لأني أحسن الظن بربي وكذب لو أحسن الظن لأحسن العمل.

وسر المسألة: أن الرجاء إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكـ ـة

الله في شرعه وقدره فيأتي العبد بها ثم يحسن ظنه بربه ويرجوه أن لا يكله إليها ، وأن يجعلها موصلة إلى ما ينفعه ويعرض عما يعارضها ويبطل أثرها ، ومما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئًا استلزم ثلاثة أمور :

أحدها : محبة ما يرجوه.

الثاني : خوفه من فواته.

الثالث : سعيه في تحصيله بحسب الإمكان.

أما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني والرجاء شيء والأماني شيء آخر ، فكل راج خائف والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات.

وفي حديث أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الجَنَّةُ»[1].

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : 218]. يعني أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله ، وما أراد به تخصيص وجود الرجاء لأن غيرهم أيضًا قد يرجوا ، ولكن خصهم باستحقاق الرجاء.

---

(1) رواه الترمذي (2450) صفة القيامة وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث أبي النضر والحاكم (4/ 307) ، وصححه ووافقه الذهبي والألباني في الصحيحة (954، 2335).

فضل الرجـاء:

قال الله تعالى مخبرًا عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ [غافر: 44:45]. لما حسن ظنه بالله ﷻ وقال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ﴾ أي: أسلمه إلى الله ليعصمني من كل سوء كان الجواب من الله ﷻ: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾.

وقال تعالى: في الحديث القدسي: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»[1].

قال ابن الجوزي: أي في الرجاء وأمل العفو.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلاثَةِ أَيَّامٍ يَقُولُ: «لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَّ»[2].

قال العلماء: معنى إحسان الظن بالله أن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه، وفي حالة الصحة يكون خائفًا راجيًا، وإذا دنت أمارات الموت غلب الرجاء أو محضه؛ لأن مقصود الخوف الانكفاف عن المعاصي والقبائح والحرص على إكثار الطاعة وصالح العمل وقد تعذر ذلك أو معظمه في هذه الحال فاستحب إحسان الظن المتضمن للافتقار إلى الله تعالى والإذعان له.

---

(1) رواه البخاري (7405) التوحيد، ومسلم (2675) الذكر والدعاء، والترمذي (2388) الزهد.

(2) رواه مسلم (2877) صفة الجنة، وأبي داود (3113) الجنائز.

قال القرطبي: نهوا أن يموتوا على غير حالة حسن الظن وذلك ليس بمقدورهم بل المراد الأمر بتحسين الظن ليوافي في الموت وهو عليه.اهـ.

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102].

وعن أنس ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: قَالَ اللهُ - تبارك وتعالى -: «يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي، غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ، وَلا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ! لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي، غَفَرْتُ لَكَ، وَلا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»[1].

قوله: «عَنَانَ السَّمَاءِ» أي ما عَنَّ لك منها أي ظهر.

وقوله: «قُرَابِ الأَرْضِ» أي ما يقارب ملئها.

وعن فقير بن مسكين قال: دخلت على الشافعي أعوده في مرض موته فقلت له: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ قال: أصبحت من الدنيا راحلاً، ولإخواني مفارقًا، ولكأس المنية شاربًا، ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنيها، أم إلى النار فأعزيها. وأنشأ يقول:

---

(1) رواه الترمذي (3540) الدعوات الصحيحة (127، 128)، «الروض النضير» (432)، المشكاة (2336 - التحقيق الثاني) «التعليق الرغيب» (2/ 268) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلَّمَا
تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَ

الأخبار في الرجاء:

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: 53].

وهذا في حق التائبين لقوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: 48].

ففي الآية الأولى أطلق وعمم، أطلق المغفرة وعَمَّ بها كل الذنوب وفي الثانية قيد وخصص، قيد المغفرة وخصصها بما دون الشرك؛ فحمل العلماء الأولى على التائب، والثانية في حق غير التائب.

وقال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: 156].

قال البيضاوي: وهذا في الدنيا وأما في الآخرة فقال تعالى: ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: 156].

وقال تعالى: ﴿ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ [سبأ: 17].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [طه: 48].

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِسَبْيٍ؛ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تسعى إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ فَقَالَ لَنَا

رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟». قُلْنَا: لاَ وَاللهِ! وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لاَ تَطْرَحَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا»(1).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ فِي كِتَابٍ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي»(2).

وفي رواية «غلبت غضبي». وفي رواية: «سبقت غضبي».

وعنه رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ. فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ. وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا. فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاحَمُ الْخَلاَئِقُ. حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا، خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ»(3).

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ»(4).

عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟». قَالَ: فَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: «أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟». قَالَ: فَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: «إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَسَأُخْبِرُكُمْ عَنْ ذَلِكَ. مَا الْمُسْلِمُونَ فِي الْكُفَّارِ

---

(1) رواه البخاري (5999) الأدب، ومسلم (2754) التوبة.

(2) رواه البخاري (3194) التوحيد، ومسلم (2751) التوبة والترمذي (3543) الدعوات.

(3) رواه البخاري (6000) الأدب، ومسلم (2752) التوبة والترمذي (3541) الدعوات.

(4) تقدم تخريجه.

إِلاَّ كَشَعْرَةٍ بَيْضَاءَ فِي ثَوْرٍ أَسْوَدَ. أَوْ كَشَعْرَةٍ سَوْدَاءَ فِي ثَوْرٍ أَبْيَضَ»[1].

قال العلماء: كل رجاء عن الله أو عن النبي ﷺ فهو كائن البتة، وإنما أتى فيه بصيغة الرجاء دون صيغة الجزم على عادة الملوك في وعد ما يقطعون بفعله.

عَنْ أَبِي مُوسَى الأشعري ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، دَفَعَ الله ﷻ إِلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا. فَيَقُولُ: هَذَا فِكَاكُكَ مِنْ النَّارِ»[2].

قال النووي رحمه الله: معناه ما جاء في حديث أبي هريرة ﷺ: لكل أحد منزل في الجنة ومنزل في النار، فالمؤمن إذا دخل الجنة خلفه الكافر في النار؛ لأنه مستحق ذلك بكفره، ومعنى فكاكك أنك كنت مُعَرَّضًا لدخول النار. وهذا فكاكك لأن الله تعالى قدر النار عددًا يملؤها، فإذا دخلها الكفار بذنوبهم وكفرهم صاروا في معنى الفكاك للمسلمين والله أعلم.

قال عمر بن عبد العزيز والشافعي: هذا الحديث أرجى حديث للمسلمين.

قال النووي: وهو كما قالا لما فيه من التصريح بفداء كل مسلم وتعميم الفداء ولله الحمد.

عن ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا. أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ

---

(1) رواه البخاري (6528) الرقاق، ومسلم (221) الإيمان واللفظ له، والترمذي (2547) صفة الجنة، وابن ماجه (4359) الزهد.

(2) رواه مسلم (2767) التوبة.

رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ»(1).

عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ. قَالَ: وَحَضَرَتْ الصَّلاَةُ فَصَلَّى مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَمَّا قَضَى الصَّلاَةَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْ فِيَّ كِتَابَ اللهِ. قَالَ: «هَلْ حَضَرْتَ الصَّلاَةَ مَعَنَا؟». قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «قَدْ غُفِرَ لَكَ»(2).

قال النووي رحمه الله: قوله: «أصبت حدًا» معناه معصية توجب التعزير وليس المراد الحد الشرعي الحقيقي كحد الزنا والخمر وغيرهما، فإن هذه الحدود لا تسقط بالصلاة ولا يجوز للإمام تركها.

الجمع بين الخوف والرجاء:

اعلم أن المختار للعبد في حال صحته أن يكون خائفًا راجيًا وأن يكون خوفه ورجاؤه سواء، وفي حال المرض يتمحض الرجاء، وقواعد الشرع من نصوص الكتاب والسنة وغير ذلك متضافرة على ذلك.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: 167].

وقال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: 49، 50].

---

(1) رواه البخاري (2441) المظالم، ومسلم (2768) التوبة وكنفه: أي ستره وعفوه.

(2) رواه مسلم (2764) التوبة.

والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًا فيجتمع الخوف والرجاء في آية أو آيتين متتاليتين أو آيات متتالية.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «...فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْأَسْ مِنَ الْجَنَّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ»[1].

قال صاحب المدارج:

القلب في سيره إلى الله ﷻ بمنزلة الطائر فالمحبة رأسه والخوف والرجاء جناحاه فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر، ولكن السلف استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف.

قال أبو سليمان وغيره: ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإن غلب عليه الرجاء فسد.

وقال غيره: أكمل الأحوال اعتدال الرجاء والخوف وغلبة المحبة، والمحبة هي المركب والرجاء حاد والخوف سائق والله الموصل بمنه وكرمه.

---

(١) رواه البخاري (٦٤٦٩) الرقاق، ومسلم (٢٧٥٥) التوبة، والترمذي (٣٥٤٢) الدعوات وأحمد (٢/ ٣٣٤،٣٩٧،٤٨٤).

(19) التوكل[1]

التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله ﷻ في استجلاب المصالح ودفع المضار في أمر الدنيا والآخرة، وقد جعل الله ﷻ لكل عمل من أعمال البر ومقام من مقاماته جزاءً معلومًا وجعل نفسه جزاء المتوكل عليه وكفايته، فقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾[الطلاق: 2] الآية.

ثم قال في التوكل: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[النساء: 69] الآية.

ثم قال في التوكل: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[الطلاق: 3].

فانظر إلى هذا الجزاء الذي حصل للمتوكل ولم يجعله لغيره، وهذا يدل على أن التوكل من أقوى السبل عنده وأحبها إليه وقال الله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾[الزمر: 36]. فطالب الكفاية من غيره هو التارك للتوكل.

وقال ﷻ: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[الأحزاب: 3].

وإذا كان كفى به وكيلًا فهذا مختص به سبحانه، ليس غيره من الموجودات كفي به وكيلًا، فإنه من يتخذ من المخلوقين وكيلًا غايته أن يفعل بعض الأمور وهو لا يفعلها إلا بإعانة الله له وهو عاجز عن أكثر المطالب، فإذا كان سبحانه وصف

(1) إحياء علوم الدين - جامع العلوم والحكم - رسالة التوكل لابن تيمية رحمه الله

نفسه بأنه كفى به وكيلًا علم أنه يفعل بالمتوكل عليه ما لا يحتاج معه إلى غيره في جلب المنافع ودفع المضار، إذ لو تبقى شر لم يكن كفى به وكيلاً، وهذا يقتضي بطلان ظن أن المتوكل لا يحصل له بتوكله عليه جلب منفعة ولا دفع مضرة بل يجري كما لو لم يتوكل عليه.

وينبغي أن يعلم أن التوكل من أعمال القلوب وليس من أعمال الجوارح، فليست هناك منافاة بين التوكل والأخذ بالأسباب، فالنبي ﷺ أعظم المتوكلين على الله ﷻ فهذا حاله، والكسب سنته، فمن عمل على حاله فلا يتركن سنته.

وقيل: عدم الأخذ بالأسباب طعن في التشريع، والاعتقاد في الأسباب طعن في التوحيد.

والذين يقولون بترك الأسباب جملة ادَّعَوا لأنفسهم حالًا أكمل من حال رسول الله ﷺ وأصحابه ﷸ، إذ لم يكن فيهم أحد قط يفعل ذلك ولا أخل بشيء من الأسباب، وقد ظاهر رسول الله ﷺ بين درعين يوم أحد ولم يحضر الصف قط عريانًا كما يفعله من لا علم عنده ولا معرفة، واستأجر دليلًا مشركًا على دين قومه يدله على طريق الهجرة وقد هدى الله به العالمين وعصمه من الناس أجمعين، وكان يدخر لأهله قوت سنة وهو سيد المتوكلين، وكان إذا سافر في جهاد أو حج أو عمرة حمل الزاد والمزاد وجميع أصحابه وهم أهل التوكل حقًا وأكمل المتوكلين بعدهم هو من اشتم رائحة توكلهم أو لحق أثرًا من غبارهم، فحال النبي ﷺ وحال أصحابه محك الأحوال وميزانها بها يعلم صحيحها من

سقيمها، فإن هممهم في التوكل أعلى من همم من بعدهم فإن توكلهم كان في فتح بصائر القلوب، وأن يعبد الله في جميع البلاد، وأن يوحده كل العباد، وأن تشرق شموس الدين الحق على قلوب العباد، فملؤا بذلك التوكل القلوب هدىً وإيمانًا، وفتحوا بلاد الكفر وجعلوها دار إيمان، وهبت رياح روح نسمات التوكل على قلوب أتباعهم فملأتها يقينًا وإيمانًا، فكانت همم الصحابة ﷺ أعلى وأجل من أن يصرف أحدهم قوة توكله واعتماده على الله في شيء يحصل بأدنى حيلة وسعي فيجعله نصب عينيه ويحمل عليه قوى توكله، فحقيقة التوكل اعتماد القلب على الله وحده، والثقة به وحده والسكون إليه وحده، والطمأنينة به وحده، لعلمه أن حاجته وفاقته وضروراته وجميع مصالحه كلها بيده وحده لا بيد غيره، فأين يجد قلبه مناصًا من التوكل بعد هذا.

الأعمال التي يعلمها العباد ثلاثة أقسام:

أحدها: الطاعات التي أمر الله بها عباده وجعلها سببًا للنجاة من النار ودخول الجنة فهذا لابد من فعله مع التوكل على الله ﷻ فيه والاستعانة به عليه، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فمن قصر في شيء مما وجب عليه من ذلك استحق العقوبة في الدنيا والآخرة شرعًا وقدرًا.

قال يوسف بن أسباط: يقال: اعمل عملَ رجل لا ينجيه إلا عمله وتَوَكَّلْ توكلَ رجل لا يصيبه إلا ما كتب له.

القسم الثاني: ما أجرى الله به العادة في الدنيا وأمر عباده بتعاطيه كالأكل عند الجوع، والشرب عند العطش، والاستظلال من الحر، والتدفؤ من البرد ونحو ذلك، فهذا أيضًا واجب على المرء تعاطي أسبابه، ومن قصر فيه حتى تضرر بتركه مع القدرة على استعماله فهو مفرط يستحق العقوبة.

القسم الثالث: ما أجرى الله العادة به في الدنيا في الأعم الأغلب، وقد يخرق العادة في ذلك لمن شاء من عباده، وهي أنواع كالأدوية مثلًا، وقد اختلف العلماء هل الأفضل لمن أصابه المرض التداوي أم تركه لمن حقق التوكل على الله؟ فيه قولان مشهوران، وظاهر كلام الإمام أحمد أن التوكل لمن قوى عليه أفضل لقوله ﷺ «يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي الْجَنَّةَ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ». قَالُوا: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قال: «هُمُ الَّذِينَ لا يَكْتَوُونَ وَلا يَسْتَرْقُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»(1).

ومن رجح التداوي قال إنه حال النبي ﷺ الذي يداوم عليه، وهو لا يفعل إلا الأفضل، وحمل الحديث على الرقى والمكروهة التي يخشى منها الشرك بدليل لأنه قرنها بالكي والطيرة وكلاهما مكروه.

قال مجاهد وعكرمة والنَّخَعي وغير واحد من السلف: لا يرخص في ترك

(1) رواه البخاري (6542) الطب، ومسلم (218) الإيمان، واللفظ للترمذي (2437) صفة القيامة وفيه زيادة «مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا وَثَلاثُ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِهِ» وقال: هذا حديث حسن صحيح وحسنه الألباني.

السبب بالكلية إلا لمن انقطع قلبه عن الاستشراف إلى المخلوقين بالكلية.

وسُئل إسحاق بن راهويه: هل للرجل أن يدخل المفازة بغير زاد؟ فقال: إن كان الرجل مثل عبد الله بن جبير فله أن يدخل المفازة بغير زاد، وإلا لم يكن له أن يدخل.

***

(20) الرضا[1]

قد أجمع العلماء على أنه مستحب مؤكد استحبابه واختلفوا في وجوبه على قولين:

قال شيخ الإسلام: ولم يجيء الأمر به كما جاء الأمر بالصبر وإنما جاء الثناء على أصحابه ومدحهم.

قال النبي ﷺ: «ذَاقَ طَعمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رسولًا»[2].

وقال النبي ﷺ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ المُؤَذِّنَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ

(1) موعظة المؤمنين - مجموع فتاوى ابن تيمية - عدة الصابرين لابن القيم.

(2) رواه مسلم (34) الإيمان، والترمذي (2623) الإيمان قال صاحب التحرير: معنى رضيت بالشيء قنعت به واكتفيت به ولم أطلب معه غيره فمعنى الحديث لم يطلب غير الله تعالى ولم يسع في غير طريق الإسلام، ولم يسلك إلا ما يوافق شريعة محمد ﷺ ولا شك أن من كانت هذه صفته فقد خلصت حلاوة الإيمان إلى قلبه وذاق طعمه.

وقال القاضي عياض رحمه الله: معنى الحديث صح إيمانه واطمأنت به نفسه وخامر باطنه لأن رضاه بالمذكورات دليل لثبوت معرفته ونفاذ بصيرته ومخالطة بشاشة قلبه لأن من رضي أمرًا سَهُلَ عليه فكذا المؤمن إذا دخل قلبه الإيمان سهل عليه طاعات الله تعالى ولذت له والله أعلم (شرح النووي على صحيح مسلم 2/ 2).

شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا وَبِالإِسْلَامِ دِينًا، غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ»[1].

وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين وإليهما ينتهي، وقد تضمنا الرضا بربوبيته سبحانه وإلهيته، والرضا برسوله ﷺ، والرضا بدينه والتسليم له، ومن جمعت له هذه الأربعة فهو الصديق حقًا، وهي سهلة بالدعوى واللسان، وهي من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان، ولاسيما إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها، من ذلك يتبين أن الرضا كان لسانه به ناطقًا فهو على لسانه لا على حاله.

فالرضا بإلهيته يتضمن الرضا به وحده وخوفه ورجاؤه والإنابة إليه وانجذاب قوى الإرادة والحب كلها إليه، فعل الراضي بمحبوبه كل الرضا وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له.

والرضا بربوبيته يتضمن الرضا بتدبيره لعبده، ويتضمن إفراده بالتوكل عليه والاستعانة به والثقة به والاعتماد عليه وأن يكون راضيًا بكل ما يفعل به.

فالأول يتضمن رضاه بما يؤمر به، والثاني يتضمن رضاه بما يُقَدَّرُ عليه.

---

(1) رواه مسلم (386) الصلاة، وأبي داود (1529) الصلاة، والترمذي (210) الصلاة بزيادة التشهد في أوله في المواضع الثلاثة.

وأما الرضا بنبيه ﷺ رسولًا فيتضمن كمال الانقياد له والتسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولى به من نفسه فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته، ولا يحاكم إلا إليه، ولا يحكم عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره البتة.

وأما الرضا بدينه: فإذا قال أو حكم أو أمر أو نهى رضي كل الرضا ولم يبق في قلبه حرج من حكمه وسلم له تسليمًا ولو كان مخالفًا لمراد نفسه أو هواها أو قول مقلده وشيخه وطائفته، وهنا يوحشك الناس كلهم إلا الغرباء في العالم فإياك أن تستوحش من الاغتراب والتفرد فإنه والله عين العزة والصحبة مع الله ورسوله وروح الأنس به والرضا به ربًا وبمحمد ﷺ رسولًا وبالإسلام دينًا.

فالرضا لم يوجبه الله على خلقه ولكن ندبهم إليه وأثنى على أهله وأخبر أن ثوابه رضاه عنهم الذي هو أعظم وأكبر وأجل من الجنان وما فيها، فمن رضي عن ربه رضي الله عنه، بل رضا العبد عن الله من نتائج رضى الله فهو محفوف بنوعين من رضاه عن عبده رضًا قبله أوجب له أن يرضى عنه ورضًا بعده هو ثمرة رضاه عنه، ولذلك كان الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا ومستراح العارفين وحياة المحبين ونعيم العابدين وقرة عين المشتاقين.

والعبد فيما يكره درجتان: درجة الرضا ودرجة الصبر، فالرضا فضل مندوب إليه والصبر واجب على المؤمن حتم.

وأهل الرضا تارة يلاحظون المبتلي وخيرته لعبده في البلاء وأنه غير متهم في قضائه، وتارة يلاحظون عظمة المبتلي وجلاله وكماله فيستغرقون في مشاهدة ذلك

حتى لا يشعرون بالألم وهذا يصل إليه خواص أهل المعرفة والمحبة حتى ربما تلذذوا بما أصابهم لملاحظتهم صدروه من حبيبهم، والفرق بين الرضا والصبر أن الصبر حبس النفس وكفها عن التسخط مع وجود الألم وتمني زواله وكف الجوارح عن العمل بمقتضى الجزع، والرضا انشراح الصدر وسعته بالقضاء وترك تمني زوال الألم، وإن وجد الإحساس بالألم لكن الرضا يخففه بما يباشر القلب من روح اليقين والمعرفة، وإذا قوى الرضا فقد يزيل الإحساس بالألم بالكلية.

قال ابن مسعود ﷺ: «إن الله تعالى بقسطه وعلمه جعل الروح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط».

وقال علقمة في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن: 11]. هي المصيبة تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى.

وقال أبو معاوية الأسود في قوله تعالى: ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: 97]. الرضا والقناعة.

ودخل أبو الدرداء ﷺ على رجل يموت وهو يحمد الله؛ فقال أبو الدرداء: أصبت إن الله ﷻ إذا قضى قضاء أحب أن يرضى به.

ونظر على بن أبي طالب ﷺ إلى عدي بن حاتم كئيبًا فقال: يا عدي، من رضى بقضاء الله جرى عليه وكان له أجر، ومن لم يَرْضَ بقضاء الله جرى عليه وحبط عمله.

وقال عمر بن عبد العزيز: ما بقى لي سرور إلا في مواقع القدر.

وقيل له: ما تشتهي؟ فقال: ما يقضى الله ﷻ.

وقال الحسن: من رضى بما قسم له وسعه وبارك الله له فيه، ومن لم يرض لم يسعه ولم يبارك له فيه.

وقال بعضهم: من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء.

وقال بعضهم: لن يُرَى في الآخرة أرفعَ درجاتٍ من الراضين عن الله تعالى على كل حال فمن وهب له الرضا فقد بلغ أفضل الدرجات. وأصبح أعرابي وقد ماتت له أباعر كثيرة فقال:

لاَ وَالَّذِي أَنَا عَبْدٌ فِي عِبَادَتِهِ ... لَولاَ شَمَاتَةُ أَعْدَاءٍ ذَوِي إِحَنِ
مَا سَرَّنِي أَنْ إِبِلِي فِي مَبَارِكِهَا ... وَأَنَّ شَيْئًا قَضَاهُ اللهُ لَمْ يَكُنِ

***

(21) محبة الله ﷻ[1]

المحبة هي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى علمها شمر السابقون، وبروح نسيمها تروح العابدون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام، وهي روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه، تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدًا واصليها، وتبوؤهم من مقاعد الصدق ما لم يكونوا بدونها أبدًا واصليها وتبوءهم من مقاعد الصدق مالم يكونوا لولاها داخليها وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائمًا إلى الحبيب، وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى عن قريب، بالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة، إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب، وقد قضى الله يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة أن المرء مع من أحب، فيالها من نعمة على المحبين سابغة، والمحبة لله ﷻ هي الغاية القصوى من المقامات، والذروة العليا من الدرجات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها

---

(١) انظر: الجواب الكافي لابن القيم - وإغاثة اللهفان له كذلك وإحياء علوم الدين للغزالي.

كالشوق والأنس والرضا ، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها.

وأنفع المحبة على الإطلاق وأوجبها وأعلاها وأجلها محبة من جبلت القلوب على محبته ، وفطرت الخليقة على تأليهه ، فإن الإله هو الذي تألهه القلوب بالمحبة والإجلال والتعظيم والذل له والخضوع والتعبد ، والعبادة لا تصلح إلا له وحده ، والعبادة هي كمال الحب مع كمال الخضوع والذل ، والله تعالى يُحَبُّ لذاته من جميع الوجوه وما سواه فإنما يحب تبعًا لمحبته ، وقد دل على وجوب محبته سبحانه جميع كتبه المنزلة ، ودعوة جميع رسله وفطرته التي فطر عباده عليها وما ركب فيهم من العقول وما أسبغ عليهم من النعم ، فإن القلوب مفطورة مجبولةٌ على محبة من أنعم عليها وأحسن إليها ، فكيف بمن كل الإحسان منه وما بخلقه جميعًا من نعمة فمنه وحده لا شريك له كما قال تعالى ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل : 53]. وما تعرف به إلى عباده من أسمائه الحسنى وصفاته العلا وما دلت عليه آثار مصنوعاته من كماله ونهاية جلالة وعظمته.

قال الله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة : 165].

وقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ [المائدة : 54].

وقال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[1]. وقال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ»[2].

وإذا كان النبي ﷺ أولى بنا من أنفسنا في المحبة ولوازمها أفليس الرب جل جلاله أولى بمحبته وعبادته من أنفسهم وكل مَا منْهُ إلى عبده يدعوه إلى محبته مما يحب العبد ويكره، فعطاؤه ومنعه ومعافاته وابتلاؤه وقبضه وبسطه وعدله وفضله وإماتته وإحياؤه وبره ورحمته وإحسانه وستره وعفوه وحلمه وصبره على عبده وإجابته

---

(1) رواه البخاري (14، 15) الإيمان، ومسلم (44) الإيمان، قال الحافظ: قوله «لا يؤمن» أي إيمانًا كاملًا.

وقال القاضي عياض وابن بطال وغيرهما المحبة ثلاثة أقسام: محبة إجلال وإعظام؛ كمحبة الوالد ومحبة شفقة ورحمة كمحبة الولد، ومحبة مشاكلة وإحسان كمحبة سائر الناس؛ فجمع ﷺ أصناف المحبة في محبته.

وقال ابن بطال: ومعنى الحديث أن من استكمل الإيمان علم أن حق النبي ﷺ آكد عليه من حق أبيه وابنه والناس أجمعين؛ لأن به ﷺ استنقذنا من النار وهدينا من الضلال.

قال القاضي عياض رحمه الله: ومن محبته ﷺ نصرة سنته والذب عن شريعته وتمني حضور حياته فيبذل نفسه وماله دونه. قال: وإذا تبين ما ذكرناه تبين أن حقيقة الإيمان لا يتم إلا بذلك ولا يصح الإيمان إلا بتحقيق إعلاء قدر النبي ﷺ ومنزلته على كل والد وولد ومحسن ومفضل، ومن لم يعتقد هذا واعتقد سواه فليس بمؤمن - شرح النووي على صحيح مسلم هامش (2/ 15، 16).

(2) رواه البخاري (6632) الأيمان والنذور.

لدعائه وكشف كربه وإغاثة لهفته وتفريج كربته من غير حاجة منه إليه بل مع غناه التام عنه من جميع الوجوه كل ذلك داع للقلوب إلى تأليهه ومحبته، فلو أن مخلوقًا فعل بمخلوق أدنى شيء من ذلك لم يملك قلبه عن محبته فكيف لا يحب العبد بكل قلبه وجوارحه من يحسن إليه على الدوام بعدد الأنفاس مع إساءته، فخيره إليه نازل وشره إليه صاعد، يتحبب إليه بنعمه وهو غني عنه، والعبد يتبغض إليه بالمعاصي وهو فقير إليه، فلا إحسانه وبره وإنعامه عليه يصده عن معصيته، ولا معصية العبد ولؤمه يقطع إحسان ربه عنه.

وأيضًا فكل من تحبه من الخلق ويحبك إنما يريدك لنفسه وغرضه منك، والله سبحانه يريدك لك، وأيضًا فكل من تعامله من الخلق إن لم يربح عليك لم يعاملك، ولابد له من نوع من أنواع الربح، والرب تعالى إنما يعاملك لتربح عليه أعظم الربح وأعلاه، فالدرهم بعشرة أمثاله إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والسيئة بواحدة وهي أسرع شيء محوًا.

وأيضًا فهو سبحانه خلقك لنفسه وخلق كل شيء لك في الدنيا والآخرة، فمن أولى منه باستفراغ الوسع في محبته وبذل الجهد في مرضاته.

وأيضًا فمطالبك - بل مطالب الخلق كلهم جميعًا - لديه وهو أجود الأجودين وأكرم الأكرمين أعطى عبده قبل أن يسأله فوق ما يؤمله، يشكر القليل من العلم وينميه ويغفر الكثير من الزلل ويمحوه ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: 29]. لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه كثرة

المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، بل يحب الملحين في الدعاء، ويحب أن يسأل ويغضب إذا لم يسأل، يستحيي من عبده حيث لا يستحي العبد منه، ويستره حيث لا يستر نفسه، ويرحمه حيث لا يرحم نفسه، دعاه بنعمه وإحسانه وأياديه إلى كرامته ورضوانه فأبى، فأرسل رسله في طلبه وبعث معهم عهده، ثم نزل إليه سبحانه بنفسه وقال: «مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»(1).

وكيف لا يحب القلب من لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يجيب الدعوات ويقيل العثرات ويغفر الخطيئات، ويستر العورات ويكشف الكربات ويغيث اللهفات وينيل الطلبات سواه؟ فهو أحق من ذُكِرَ، وأحق من شُكِرَ، وأحق من عُبِدَ، وأحق من حُمِدَ، وأنصر من ابتُغِي وأرأف من مَلَكَ وأجود من سئل وأوسع من أعطى وأرحم من استرحم وأكرم من قُصِد وأعز من التُجِئَ إليه وأكفى من تُوُكِّلَ عليه، أرحم بعبده من الوالدة بولدها، وأشد فرحًا بتوبة التائب من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا يئس من الحياة ثم وجدها، وهو الملك لا شريك له والفرد لا نِدَّ له، كل شيء هالك إلا وجهه، لن يطاع إلا بإذنه، ولن يعصى إلا بعلمه، يطاع فيشكر وبتوفيقه ونعمته أُطيع، ويعصى فيغفر ويعفو وحقه أضيع، فهو أقرب شهيد، وأجل حفيظ وأوفى بالعهد، وأعدل قائم بالقسط، حال دون النفوس، وأخذ بالنواصي، وكتب الآثار، ونسخ الآجال، فالقلوب له مفضية، والسر عنده علانية، والغيب لديه

---

(1) رواه البخاري (7494) التوحيد، ومسلم (758) صلاة المسافرين، والترمذي (3498) الدعوات، وأبي داود (1315) الصلاة.

مكشوف، وكل أحد إليه ملهوف، عنت الوجوه لنور وجهه، وعجزت العقول عن إدراك كنهه، ودلت الفطر والأدلة كلها على امتناع مثله وشبهه، أشرقت لنور وجهه الظلمات، واستنارت له الأرض وَٱلسَّمَوَٰت، وصلحت عليه جميع المخلوقات، لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

ومحبة الله ﷻ هي حياة القلوب وغذاء الأرواح، وليس للقلب لذة ولا فلاح ولا حياة إلا بها، وإذا فقدها القلب كان ألمه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورها، والأذن إذا فقدت سمعها، بل فساد القلب إذا خلا من محبة فاطره وبارئه وإلهه الحق أعظم من فساد البدن إذا خلا من الروح، وهذا الأمر لا يصدق به إلا من فيه حياة وما لجرح بميت إيلام.

الأسباب الجالبة للمحبة الموجبة لها:

الأول: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه ليتفهم مراد صاحبه منه.

الثانية: التقرب إلى الله ﷻ بالنوافل بعد الفرائض كما قال تعالى في الحديث القدسي: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»[1].

---

(1) رواه البخاري (6502) الرقاق، وأبو نعيم (1/ 5،4) الحلية والبغوي في شرح السنة، وانظر: الصحيحة للألباني (1640)

الثالث: دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى والتسنم إلى محابه وإن صعب المرتقى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها ومعرفتها وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومباديها، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة، ولهذا كانت المعطلة والجهمية قطاع الطرق على القلوب بينها وبين الوصول إلى المحبوب.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة فإنها داعية إلى محبته.

السابع: وهو من أعجبها انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايب الثمر، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيدًا ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.

فمن هذه الأسباب العشر وصل المحبون إلى منازل المحبة ودخلوا على الحبيب.

محبة الله تعالى للعبد ومعناها:

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[البقرة: 222].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾[الصف: 4].

وأخبر ﷻ أنه لا يعذب من يحبه فرد على الذين ادَّعَوا أنهم أحباء الله ﷻ بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾[المائدة: 18].

وشرط للمحبة غفران الذنوب فقال ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[آل عمران: 31].

ومن علامات محبة الله ﷻ للعبد حسن التدبير له يربيه في الطفولة على أحسن نظام، ويكتب الإيمان في قلبه وينور له عقله فيتبع كل ما يقربه منه وينفر عن كل ما يبعده عنه، ثم يتولاه بتيسير أموره من غير ذلٍ للخلق، ويسدد ظاهره ويجعل همه واحدًا، فإذا زادت المحبة شغله به عما سواه.

علامات محبة الرب جل وعلا:

أما محبة العبد لله فاعلم أن المحبة يدعيها كل أحد فما أسهل الدعوى وأعز المعنى، ولا يَنْبَغِ أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان وخداع النفس إذا ادعت محبة الله تعالى ما لم يمتحنها بالعلامات ويطالبها بالبراهين، فمن العلامات حب لقاء الله تعالى في الجنة، ومنها أن يكون مؤثرًا ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه فيتجنب اتباع الهوى ويعرض عن الدعة والكسل، ولا يزال مواظبًا على طاعة الله ﷻ متقربًا إليه بالنوافل، ومن أحب الله فلا يعصه، إلا أن العصيان لا

ينافي أصل المحبة إنما يضاد كمالها فكم من إنسان يحب الصحة ويأكل ما يضره، وسببه أن المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب فيعجز عن القيام بحق المحبة، ويدل على ذلك حديث عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ أَنَّ رَجُلًا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ اسْمُهُ عَبْدَاللهِ، وَكَانَ يُلَقَّبُ حِمَارًا، وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ، فَأُتِيَ بِهِ يَوْمًا فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: اللَّهُمَّ الْعَنْهُ مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ تَلْعَنُوهُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ»[1]. فلم تخرجه المعصية عن المحبة وإنما أخرجته عن كمالها.

ومنها: أن يكون محبًا لكلام الله ﷻ ولرسوله ﷺ ولأهل الإيمان.

ومنها: أن يكون أنسه بالخلوة ومناجاة الله تعالى وتلاوة كتابه فيواظب على التهجد ويغتنم هدوء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق فأقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب والتنعم بمناجاته.

ومنها: أن يكون شفيقًا على المسلمين رحيمًا بهم شديدًا على أعدائه كما قال تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: 29]. ولا تأخذه في الله لومة

---

(1) رواه البخاري (6780) الحدود.

وقال الحافظ في فوائد الحديث: فيه أن لا تنافي بين ارتكاب النهي وثبوت محبة الله ورسوله في قلب المرتكب لأنه ﷺ أخبر بأن المذكور يحبُّ الله ورسوله مع وجود ما صدر منه، وأن من تكررت منه المعصية لا تنزع منه محبة الله ورسوله، ويؤخذ منه تأكيد ما تقدم أن نفي الإيمان عن شارب الخمر لا يراد به زواله بالكلية،بل نفي كماله كما تقدم. (فتح الباري 12/ 87).

لائم، فهذه علامات المحبة فمن اجتمعت فيه فقد تمت محبته وَصَفًا في الآخرة شرابه، ومن امتزج حبه لله بحب غيره فيمزج شرابه كما قال تعالى: ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ۝ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين: 25-28].

فقوبل الخالص بالصرف والمشوب بالمشوب: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: 7، 8].

قال بعض الصالحين في علامات المحبة:

لاَ تُخْدَعَنَّ فَلِلْحَبِيبِ دَلاَئِلُ ... وَلَدَيْهِ مِنْ تُحَفِ الْحَبِيبِ رَسَائِلُ
مِنْهَا تَنَعُّمُهُ بِمُرِّ بَلاَئِهِ ... وَسُرُورُهُ فِي كُلِّ مَا هُوَ فَعِلُ
وَمِنَ الدَّلاَئِلِ أَنْ يُرَى مُتَبَسِّمًا ... وَالْقَلْبُ فِيهِ مِنَ الْحَبِيبِ بَلاَبِلُ
وَمِنَ الدَّلاَئِلِ أَنْ يُرَى مُتَفَهِّمًا ... لِكَلاَمِ مَنْ يَحْظَى لَدَيْهِ السَّائِلُ

وقال غيره:

وَمِنَ الدَّلاَئِلِ حُزْنُهُ وَنَحِيبُهُ ... خَوْفَ الْكَلاَمِ فَمَا لَهُ مِنْ عَاذِلِ
وَمِنَ الدَّلاَئِلِ أَنْ تَرَاهُ مُسَافِرًا ... نَحْوَ الْجِهَادِ وَكُلِ فِعْلِ فَاضِلِ
وَمِنَ الدَّلاَئِلِ زُهْدُهُ فِيمَا يَرَى ... مِنْ دَارِ ذُلٍّ وَالنَّعِيمِ الزَّائِلِ
وَمِنَ الدَّلاَئِلِ أَن تَرَاهُ بَاكِيًا ... أَنْ قَدْ رَآهُ عَلَى قَبِيحِ فَعَائِلِ
وَمِنَ الدَّلاَئِلِ أَنْ تَرَاهُ مُسَلِّمًا ... كُلَّ الأُمُورِ إِلَى الْمَلِيكِ الْعَادِلِ
وَمِنَ الدَّلاَئِلِ أَنْ تَرَاهُ رَاضِيًا ... بِمَلِيكِهِ فِي كُلِّ حُكْمٍ نَازِلِ

(22) قصر الأمل والاستعداد للموت[1]

قصر الأمل هو العلم بقرب الرحيل وسرعة انقضاء مدة الحياة، وهو من أنفع الأمور للقلب فإنه يبعث على انتهاز فرصة الحياة التي تمر مر السحاب، ومبادرة طي صحائف الأعمال ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء ويحثه على قضاء جهاز سفره وتدارك الفارط ويزهده في الدنيا ويرغبه في الآخرة.

قال الله ﷻ: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: 3]

أي دعهم يعيشوا كالأنعام، ولا يهتمون بغير الطعام والشهوات.

وقوله: ﴿وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ أي: يشغلهم طول الأمل والعمر وبلوغ الوطر واستقامة الحال عن الإيمان والأخذ بطاعة الله تعالى.

قال الحافظ في الفتح: هذا تنبيه على أن إيثار التلذذ والتنعم وما يؤدي إليه طول الأمل ليس من أخلاق المؤمنين.

وقال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: 10، 11].

---

(1) إحياء علوم الدين - جامع العلوم والحكم - رياض الصالحين - فتح الباري.

وقال تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝ أَن تَقُولَ نَفۡسٌ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الزمر: 54-58].

عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خُطُوطًا فَقَالَ: «هَذَا الأَمَلُ وَهَذَا أَجَلُهُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَهُ الْخَطُّ الأَقْرَبُ»[1].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَعْذَرَ اللهُ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً»[2].

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ مِنْ ضُرٍّ أَصَابَهُ، فَإِنْ كَانَ لاَ بُدَّ فَاعِلًا، فَلْيَقُلِ اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي»[3].

---

(1) رواه البخاري (6418) الرقاق.

(2) رواه البخاري (6419) الرقاق، وأحمد (2/ 275)، والحاكم (2/ 427) التفسير.

(3) رواه البخاري (5671) المرضى بزيادة في أوله، ومسلم (2680) الذكر بمعناه والنسائي.

وقال النووي: فيه التصريح بكراهة تمني الموت لضر نزل به من مرض أو فاقة أو محنة من عدو أو نحو ذلك من مشاق الدنيا فأما إذا خاف ضررًا أو فتنة فلا كراهة فيه لمفهوم هذا الحديث وغيره، وقد فعل هذا =

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَنْكِبِي فَقَالَ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»[1].

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما يَقُولُ: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ».

وهذا الحديث أصل في قصر الأمل في الدنيا فإن المؤمن لا ينبغي له أن يتخذ الدنيا وطنًا ومسكنًا فيطمئن فيها، ولكن ينبغي أن يكون فيها كأنه على جناح سفر وقد اتفقت على ذلك وصايا الأنبياء وأتباعهم.

قال الله تعالى حاكيًا عن مؤمن آل فرعون أنه قال: ﴿ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ [غافر: 39]. وإذا لم تكن الدنيا للمؤمن دار إقامة ولا وطنًا؛ فينبغي للمؤمن أن تكون حاله فيها على حالين:

إما أن يكون كأنه غريب، يقيم في بلد غربة، همه التزود للرجوع إلى وطنه، أو يكون كأنه مسافر غير مقيم البتة، بل هو ليله ونهاره يسير إلى بلد الإقامة.

الثاني خلائق من السلف عند خوف الفتنة في أديانهم.اهـ.

ومن الأدلة قوله ﷺ في حديث اختصام الملأ الأعلى: «وَإِذَا أَرَدْتَ بِقَوْمٍ فِتْنَةً، فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ». رواه أحمد والترمذي وقال الترمذي: حسن صحيح، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سيأتي على الناس زمان يكون الموت أحب إلى العلماء من الذهب الأحمر؛ حتى يأتي الرجل قبر أخيه فيقول: «ليتني مكانك».

(1) رواه البخاري (6416) الرقاق، وأحمد (2/ 41،42)، (2333) الزهد، وأبو نعيم في الحلية (3/ 301).

فلهذا وصى النبي ﷺ ابن عمر أن يكون في الدنيا على إحدى هذين الحالين :

فأحدهما : أن يترك المؤمن نفسه كأنه غريب في الدنيا يتخيل الإقامة لكن في بلد غربة فهو غير متعلق القلب ببلد الغربة بل قلبه متعلق بوطنه الذي يرجع إليه ، فلا هم له إلا التزود بما ينفعه للعودة إلى موطنه.

قال الحسن : المؤمن كالغريب لا يجزع من ذلها ولا ينافس في عزها ، له شأن وللناس شأن.

لما خُلق آدم عليه السلام أُسكن هو وزوجته الجنة ثم أهبطا منها ووعدا بالرجوع إليها وصالحي ذريتهما ، فالمؤمن أبدًا يحن إلى وطنه الأول ، كما قال القائل :

كَم مَنْـزِلٍ لِلمَـرْءِ يَأْلَفُـهُ الْفَتَـى ... وَحَنِينُـهُ أَبَـدًا لأَوَّلِ مَنْـزِلِ

ويقول العلامة ابن القيم رحمه الله :

فَحَيَّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّهَا ... مَنَازِلُنَـا الأُوْلَى وَفِيهَـا الْمُخَيَّمُ

وَلَكِنَّنَا سَبْيُ الْعَدُوِّ فَهَلْ تَرَى ... نَعُـودُ إِلَى أَوْطَانِنَـا وَنُسَلَّمُ

الحالة الثانية : أن يترك المؤمن نفسه في الدنيا كأنه مسافر غير مقيم البتة إنما هو سائر في قطع منازل السفر فليس له همة للاستكثار من طلب متاع الدنيا.

قال رجل لمحمد بن واسع : كيف أصبحت؟ قال : ما ظنك برجل يرتحل كل يوم مرحلة إلى الآخرة.

وقال الحسن: إنما أنت أيام مجموعة كلما مضى يوم مضى بعضك.

وقال كذلك: ابن آدم، إنما أنت بين راحلتين مطيتين يوضعانك، يوضعك الليل إلى النهار، والنهار إلى الليل حتى يسلمانك إلى الآخرة، فمن أعظم منك يا ابن آدم خطرًا.

قال بعض الحكماء: كيف يفرح بالدنيا من يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره.

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله لرجل: كم أتت عليك؟ قال ستون سنة. قال: فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك يوشك أن تبلغ.

فقال الرجل: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: 156].

فقال الفضيل رحمه الله: أتعرف تفسيره تقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ فمن عرف أنه لله عبد وأنه إليه راجع؛ فليعلم أنه موقوف، ومن علم أنه موقوف؛ فليعلم أنه مسئول، ومن علم أنه مسئول؛ فليعد للسؤال جوابًا.

فقال الرجل: فما الحيلة؟.

قال: الحيلة يسيرة.

قال: ما هي؟

قال: تحسن فيما بقى يغفر لك ما مضى، فإنك إن أسأت فيما بقى أخذت بما مضى وما بقى.

وقال الحسن: اجتمع ثلاثة من العلماء فقالوا لأحدهم: مَا أَمَلُك؟ قال: ما أتى عليّ شهر إلا ظننت أني سأموت فيه. قال: فقال صاحباه: إن هذا هو الأمل. فقالا لأحدهم: فما أملك؟ قال: ما أتت عليّ جمعةٌ إلا ظننت أني سأموت فيها. قال: فقال صاحباه: إن هذا هو الأمل. فقالا للآخر: فما أملك: قال ما أمل مَنْ نَفْسُهُ بِيَد غيره؟!.

وقال بكر المُزَني: إذا أردت أن تنفعك صلاتك فقل لَعَلِّي لا أصلي غيرها.

أقام معروف الكرخي الصلاة ثم قال لرجل: تقدم فصل بنا، فقال الرجل: إني إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها، فقال معروف: وأنت تحدث نفسك أنك تصلي صلاة أخرى نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع خير العمل.

السبب في طول الأمل وعلاجه:

اعلم أن طول الأمل له سببان: أحدهما الجهل والآخر حب الدنيا.

أما حب الدنيا: فهو أنه إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ثقل على قلبه مفارقتها فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، وكل من كره شيئًا دفعه عن نفسه، والإنسان مشغوف بالأماني الباطلة فيمني نفسه أبدًا بما يوافق مراده، وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا فلا يزال يتوهمه ويقدره في نفسه ويقدر توابع البقاء وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفًا على هذا الفكر موقوفًا عليه فيلهو عن ذكر الموت

فلا يُقَدِّرُ قربه فإن خطر له في بعض الأحوال قربَهُ والحاجة إلى الاستعداد له سوَّفَ، ووعد نفسه وقال: الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب، وإذا كبر يقول إلى أن يصير شيخًا، فإذا صار شيخًا قال إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة أو ترجع من هذا السفر فلا يزال يسوف ويؤخر، ولا يخوض في شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخر وهكذا على التدريج إلى أن تخطفه المنية في وقت لا يحتسبه فتطول عند ذلك حسرته، وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف، والمسوف المسكين لا يدري أن الذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غدًا، وإنما يزداد بطول المدة قوة ورسوخًا.

فَـمَا قَضَـى أَحَـدٌ مِنْهَـا لُبَانَتَـهُ(1) وَمَـا انْتَهَـى أَرَبٌ إلاَّ إِلَى أَرَبِ

وأما الجهل: فهو أن الإنسان قد يعول على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب، وليس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عُدُّوا لكانوا أفرادًا قلائل، وإنما قلوا لأن الموت في الشباب أكثر، فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب، ولو تفكر هذا الغافل وعلم أن الموت ليس له وقت من شباب وشيب وكهولة، ومن صيف وشتاء ومن ليل ونهار لعظم به استشعاره واشتغل بالاستعداد له، وهو أبدًا يظن أن يشيع الجنائز ولا يُقدِّرُ أن تشيع جنازته؛ لأن هذا قد تكرر عليه وألفه وهو

---

(1) قال في المصباح المنير: اللُّبانة: الحاجة، يقال: قُضِيت لبانتي.

مشاهد موت غيره فأما موت نفسه فلم يألفه، فسبيله أن يقيس نفسه بغيره ويعلم أنه لابد وأن تحمل جنازته ويدفن في قبره، ولعل اللبن الذي يغطي به لحده قد ضرب وفرغ منه وهو لا يدري، ولعل أكفانه قد نسجت وهو لا يدري فتسويفه جهل محض، وإذا عرفت أن سببه الجهل وحب الدنيا فعلاجه دفع سببه، أما حب الدنيا فالعلاج في إخراجه من القلب شديد وهو الداء العضال الذي أعيا الأولين والآخرين ولا علاج له إلا الإيمان باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا، فإن حب الخطير هو الذي يمحو عن القلب حب الحقير.

أما علاج الجهل فلينظر الإنسان كل ساعة في أطرافه وأعضائه وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لا محالة، وكيف تتفتت عظامها، فما من شيء من لحمه وشحمه إلا وهو طعمة للدود، وما من شيء من عظامه إلا وسَيَبْلى، ويعلم أن عينيه اللتين ينظر بهما إلى ما أحل الله وما حرم سوف يأكلها الدود، وسوف يأكل الدود لسانه الذي يتكلم به، وأن مفاصله التي كان يتحرك بها سوف تذهب أربطتها وتتناثر عظامها.

المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير:

اعلم أن من له أخوان غائبان وينتظر قدوم أحدهما في الغد وينتظر قدوم الآخر بعد شهر أو سنة فلا يستعد للذي يقدم بعد شهر أو سنة وإنما يستعد للذي ينتظر قدومه غدًا؛ فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: التأني في كل شيء خير؛ إلا في أعمال الخير في الآخرة، وكان الحسن يقول في موعظته: المبادرة المبادرة فإنما هي الأنفاس، لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تتقربون بها إلى الله عز وجل، رحم الله امرءًا نظر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه ثم قرأ هذه الآية: ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ [مريم: 84]. يعني الأنفاس، آخر العدد خروج نفسك، آخر العدد فراق أهلك، آخر العدد دخولك في قبرك.

وعن عَلِيّ رضي الله عنه قال: إن الدنيا قد ارتحلت مدبرة، وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة، ولكل منهما بنون، فكونوا أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل.

***

(23) ذكر المـوت[1]

الحمد لله الذي قصم بالموت رقاب الجبابرة، وكسر به ظهور الأكاسرة، وقصر به آمال القياصرة، الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة، حتى جاءهم الوعد الحق فأرداهم في الحافرة؛ فنقلوا من القصور إلى القبور، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحود، ومن ملاعبة الجواري والغلمان إلى مقاساة الديدان والهوام، ومن التنعم بالطعام والشراب إلى التمرغ في التراب، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة، ومن المضجع الوثير إلى المصرع الوبيل، فانظر هل وجدوا من الموت حصنًا وعزًا واتخذوا من دونه حجابًا وحرزًا، وانظر هل تُحِسُّ منهم من أحد أو تسمع لهم ركزًا.

فسبحان من انفرد بالقهر والاستعلاء، واستأثر باستحقاق البقاء، وأذل أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء، ثم جعل الموت مخلصًا للأتقياء، وموعدًا في حقهم للقاء، وجعل القبر سجنًا للأشقياء، وحبسًا ضيقًا عليهم إلى يوم الفصل والقضاء، فله الإنعام بالنعم المتظاهرة، وله الانتقام بالنقم القاهرة، وله الشكر في ٱلسَّمَٰوَٰتِ والأرض وله الحمد في الأولى والآخرة، والصلاة والسلام على محمد ذيِ المعجزات الظاهرة والآيات الباهرة وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

---

(١) إحياء علوم الدين - معارج القبول - موارد الظمآن - مختصر التذكرة.

فجدير بمن الموت مصرعه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه، ومنكر ونكير جليسه، والقبر مقره، وبطن الأرض مستقره، والقيامة موعده، والجنة أو النار مورده ألاّ يكون له فكر إلا في ذلك ولا استعداد إلا له.

الترغيب في ذكر الموت:

اعلم أن المنهمك في الدنيا المكب على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره، وإذا ذُكِّرَ به كرهه ونفر منه أولئك هم الذين قال الله فيهم: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجمعة: 8]. ثم الناس إما منهمك وإما تائب مبتدئ أو عارف منته.

أما المنهمك فلا يذكر الموت، وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشتغل بمذمته، وهذا يزيده ذكر الموت من الله بعدًا.

وأما التائب فإن يكثر من ذكر الموت لينبعث من قلبه الخوف والخشية فيفي بتمام التوبة، وربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التوبة وقبل إصلاح الزاد، وهو معذور في كراهة الموت فهو كالذي يحب تأخر لقاء الحبيب حتى يستعد للقائه، وعلامة هذا التائب أن يكون دائم الاستعداد للقاء لا شغل له سواه، وإلا التحق بالمنهمك في الدنيا، وأما العارف فإنه يذكر الموت دائمًا لأنه موعد للقائه لحبيبه، وهذا في غالب الأمر يستبطئ مجيء الموت ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ»[1]. أي نغصوا بذكر الموت لذات الدنيا حتى ينقطع ركونكم إليها فتقبلوا على اللهِ تعالى.

عَنْ ابْنِ عُمَرَ ﷺقَالَ: أتيت رَسُولَ اللَّهِ ﷺعاشر عشرة فقال رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ: من أكيس الناس وأكرم الناس يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فقال: «أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا، وأشدهم اسْتِعْدَادًا له أُولَئِكَ هم الأَكْيَاسُ، ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة»[2].

وقد جعل الله الموت من أعظم المصائب، وقد سماه الله تعالى مصيبة في قوله تعالى: ﴿ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِ ﴾[المائدة: 106]. وذلك لأنه تبدل من حال إلى حال، وانتقال من دار إلى دار، وهو المصيبة العظمى والرزية الكبرى، وأعظم منه الغفلة عنه، والإعراض عن ذكره وقلة التفكر فيه وترك العمل، وقد أجمعوا على أن الموت وحده عبرة لمن اعتبر وفكرة لمن تفكر.

وقال في مختصر التذكرة: واعلموا أيها الإخوان أن القلب القاسي يلين إن شاء الله تعالى بأمور: منها زيارة القبور، وحضور مجالس الوعظ والصالحين،

---

(1) رواه الترمذي (2307) الزهد، وقال: هذا حديث حسن غريب. والنسائي (1823) الجنائز، وابن ماجه (4334) الزهد، والحاكم (4/ 321) الرقاق وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وصححه الألباني بشواهده. وهاذم اللذات أي قاطعها.

(2) رواه ابن ماجه (4335) الزهد. وقال العراقي: رواه ابن ماجه مختصرًا وابن أبي الدنيا بسند جيد، وحسنه الألباني لطرقه في الصحيحة (1385) وقوله «أكيس» أي أعقل.

وسماع أخبار من مضى من العباد والزهاد، ومنها ذكر الموت الذي هو هاذم اللذات أي قاطعها، ومفرق الجماعات بعد رغد عيشها، وميتم البنين والبنات بعد عزهم بوالديهم.

وقال: ومن فوائد ذكر الموت أيضًا ردع الإنسان عن ارتكاب المعاصي وترك الفرح بالدنيا وتهوين المصائب فيها، وتأمل يا أخي أن من ثبت عليه ما يوجب القود ثم سحب إلى القتل لا يصير له دعية إلى فعل شيء من المعاصي ولا نظر لشيء من زينة الدنيا وشهواتها وتهون عليه كل مصيبة، بخلاف من كان طويل الأمل؛ فإنه يكون بالضد من ذلك، ومنها أي من الأمور المذهبة لقساوة القلب مشاهدة المحتضرين، فإن النظر إلى سكراتهم ونزعاتهم ومعالجتهم في طلوع الروح وشدة كربهم أعظم عبرة فإن الإنسان عن قريب يقع له مثل ذلك ومن لم يتعظ بالموت فلا تنفعه موعظة.

قال الحسن: فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لب فرحًا، وما ألزم عبد قلبه ذكر الموت إلا صغرت في عينه الدنيا وهان عليه كل ما فيها.

ونظر ابن مطيع يومًا إلى داره فأعجبه حسنها، ثم بكى وقال: «والله لولا الموت لكنت بك مسرورًا، ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا».

وقال عمر بن عبد العزيز: ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غاديًا أو رائحًا إلى الله تَضعُونه في صدع من الأرض قد توسد التراب وخلف الأحباب وقطع الأسباب.

حقيقة الموت:

اعلم أن للناس في الموت ظنونًا كاذبة قد أخطأوا فيها فظن بعضهم أن الموت هو العدم، وأنه لا حشر ولا نشر، ولا عاقبة للخير والشر، وظن قوم أن الميت لا يتنعم بثواب ولا يتألم بعقاب.

وقال آخرون: إن الروح باقية لا تنعدم بالموت وإنما يفنى الجسد، ولا يبعث ولا يحشر وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق، بل الذي تشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الآيات والأخبار أن الموت تغير حال، وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة في النار أو منعمة في الجنة، والقبر كذلك إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار.

فالموت تغير حال من جهتين:

إحداهما : أن الميت تسلب منه عيناه وأذناه ويداه ورجلاه ولسانه وجميع أعضائه ويسلب منه أهله وولده وأقاربه وسائر معارفه ويسلب منه خيله ودوابه وغلمانه ودوره وعقاره وسائر أملاكه، ولا فرق بين أن تسلب هذه الأشياء من الإنسان وبين أن يسلب الإنسان من هذه الأشياء، فإن المؤلم هو الفراق والفراق تارة يحصل بأن ينهب مال الرجل وتارة بأن يسبى الرجل عن الملك والمال، والألم واحد في الحالتين، وإنما معنى الموت سلب الإنسان عن أمواله بإزعاجه إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم، فإن كان له في الدنيا شيء يأنس به ويستريح إليه ويعتد بوجوده فيعظم تحسره عليه بعد الموت ويصعب شقاؤه في مفارقته، وإن لم يكن

يفرح إلا بذكر الله ولم يأنس إلا به عظم نعيمه وتمت سعادته، إذا خلى بينه وبين محبوبه وقطعت عنه العوائق والشواغل، إذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله، فهذا أحد وجهي المخالفة بين حال الموت وحال الحياة.

الثاني: أنه ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوفًا له في الحياة، كما قد يتكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفًا في النوم، والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، وأول ما يتكشف له ما يضره وينفعه من حسناته وسيئاته، فلا ينظر إلى سيئة إلا ويتحسر عليها، وينكشف للمؤمن عقيب الموت من سعة جلال الله ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن الضيق، ويكن مثاله كالمحبوس في بيت مظلم ضيق فتح له باب إلى بستان واسع الأكناف لا يبلغ طرفه أقصاه، فيه أنواع الأشجار والأطيار والثمار، فلا يشتهى العود إلى السجن المظلم.



دواهي الموت الثلاث

الموت مصيبة كما قال الله ﷻ: ﴿فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾ [المائدة: 106]. وهذه المصيبة تشتمل على ثلاث دواهي:

الداهية الأولى: سكرات الموت.

الداهية الثانية: رؤية ملك الموت أو ملائكة الموت.

الداهية الثالثة: خوف سوء الخاتمة وتبشير الفجار بالنار.

الداهية الأولى سكرات الموت:

لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها لكان جديرًا بأن يتنغص عليه عيشه ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته، وحقيقًا بأن يطول فيه فكره ويعظم له استعداده لاسيما وهو في نفس بصدده، فالموت كما قيل: «كرب بيد سراك لا تدري متى يغشاك».

والعجيب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو فانتظر أن يدخل عليه جندي فيضربه خمس خشبات لتكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه، وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع، وسكرات النزع كما قيل: أشد من ضرب بالسيف، ونشر بالمناشير، وقرض بالمقاريض، لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الروح، وإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوته في قلبه وفي لسانه وإنما انقطع

صوت الميت وصياحه من شدة ألمه لأن الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه وبلغ كُلَّ موضع منه، فهد كل قوة وضعف كل جارحة، فلم يترك له قوة الاستغاثة ولو كان المجذوب عرقًا واحدًا لكان ألمه عظيمًا فكيف والمجذوب نفس الروح لا من عرق واحد بل من جميع العروق، ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجيًا فتبرد أولًا قدماه، ثم ساقاه، ثم فخذاه، ولكل عضو سكرة بعد سكرة، وكربة بعد كربة، حتى يبلغ بها إلى الحلقوم، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويغلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة، كما قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [النساء: 18].

قال: إذا عاين الرسل، وقال ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»[1].

شدة موت النبي ﷺ:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: إِنَّ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيَّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ تُوُفِّيَ فِي بَيْتِي، وَفِي يَوْمِي، وَبَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي، وَأَنَّ اللهَ جَمَعَ بَيْنَ رِيقِي وَرِيقِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ: دَخَلَ عَلَيَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَبِيَدِهِ السِّوَاكُ، وَأَنَا مُسْنِدَةٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَرَأَيْتُهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ السِّوَاكَ، فَقُلْتُ: آخُذُهُ لَكَ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ «أَنْ نَعَمْ»، فَتَنَاوَلْتُهُ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ، وَقُلْتُ: أُلَيِّنُهُ

---

(1) تقدم تخريجه.

لَكَ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ «أَنْ نَعَمْ»، فَلَيَّنْتُهُ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ - أَوْ عُلْبَةٌ يَشُكُّ عُمَرُ - فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي الْمَاءِ فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ، يَقُولُ: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ». ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «اللهم فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى». حَتَّى قُبِضَ وَمَالَتْ يَدُهُ[1].

وعنها رضي الله عنها قَالَتْ: مَاتَ النَّبِيُّ ﷺ وَإِنَّهُ لَبَيْنَ حَاقِنَتِي وَذَاقِنَتِي، فَلاَ أَكْرَهُ شِدَّةَ الْمَوْتِ لأَحَدٍ أَبَدًا بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ[2].

والحاقنة المطئن بين الترقوة والحلق، والذاقنة نقرة الذقن، وقيل غير ذلك.

هذه الداهية تخص العصاة ويكفاها المؤمنون، والتوفي تارة يضاف إلى الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾[الزمر: 42].

وتارة يضاف إلى ملك الموت لمباشرته ذلك كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾[السجدة: 11].

وتارة يضاف إلى أعوانه من الملائكة كما قال تعالى: ﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[الأنعام: 61]. ولكن المتوفى في الحقيقة هو الله.

---

(1) رواه البخاري (4449) الرقاق، ومسلم (2443) فضائل الصحابة.

(2) رواه البخاري (4446) المغازي.

قال الكلبي: يقبض ملك الموت الروح ثم يسلمها إلى ملائكة الرحمة إن كان مؤمنًا، وإلى ملائكة العذاب إن كان كافرًا.

روى الإمام أحمد عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رسول الله ﷺ فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ، وَلَمَّا يُلْحَدْ جَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ وَكَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ فِي الأَرْضِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِهَا، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عليه السلام حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ، قَالَ: فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلإٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِلا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلانُ ابْنُ فُلانٍ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا؛ فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فَيُفْتَحُ لَهُمْ؛ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عز وجل: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى، قَالَ: فَتُعَادُ رُوحُهُ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيَقُولانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الإِسْلامُ. فَيَقُولانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ. فَيَقُولانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ؛

فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَافْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ؛ فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ البصر، قَالَ: وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمْ السَّاعَةَ رَبِّ أَقِمْ السَّاعَةَ».

قَالَ: «وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ مَعَهُمْ الْمُسُوحُ فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ، قَالَ: فَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ؛ فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلأٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِلا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلانُ بْنُ فُلانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا؛ فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ فَلا يُفْتَحُ لَهُ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: 40].

فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: 31]. فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لا أَدْرِي. فَيَقُولانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لا أَدْرِي. فَيَقُولانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فلا يهدى لاسمه. فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لا

أَدْرِي؛ فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ؛ فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ؛ فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ. فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ. فَيَقُولُ: رَبِّ لا تُقِمِ السَّاعَةَ».

زاد في رواية في قصة المؤمن: «حَتَّى إِذَا خَرَجَ رُوحُهُ صَلَّى عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ إِلا وَهُمْ يَدْعُونَ اللهَ ﷻ أَنْ يُعْرَجَ بِرُوحِهِ مِنْ قِبَلِهِمْ».

وزاد في قصة الكافر: «ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَى أَصَمُّ أَبْكَمُ فِي يَدِهِ مِرْزَبَةٌ لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ كَانَ تُرَابًا؛ فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً حَتَّى يَصِيرَ تُرَابًا، ثُمَّ يُعِيدُهُ اللهُ ﷻ كَمَا كَانَ فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أُخْرَى؛ فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهُ كُلُّ شَيْءٍ إِلا الثَّقَلَيْنِ» قَالَ الْبَرَاءُ: ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ النَّارِ وَيُمَهَّدُ مِنْ فُرُشِ النَّارِ(1).

الداهية الثالثة: خوف سوء الخاتمة وتبشير الفجار بالنار:

خوف سوء الخاتمة قطع قلوب العارفين، وهو من الدواهي العظيمة عند الموت، فإنهم في حال السكرات وقد تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج أرواحهم ولن تخرج أرواحهم ما لم يسمعوا نغمة ملك الموت بإحدى البشريين،

(1) رواه أبي داود (3196) الجنائز مختصرًا، (4753) السنة، والحاكم (1/ 37،38) الإيمان وقال: صحيح على شرط الشيخين وأحمد (4/ 287،288) وصححه الألباني (1344) على شرط الشيخين.

إما أبشر يا عدو الله بالنار، أو أبشر يا ولي الله بالجنة، ومن ثم كان خوف أرباب الألباب.

روي أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عند احتضاره قال لابن مسعود رضي الله عنه: قم فانظر أي ساعة هي؟ فقام ابن مسعود ثم جاء فقال: قد طلعت الحمراء يعني الشمس. فقال حذيفة: أعوذ بالله من صباح إلى النار.

ورُوي أن أبا هريرة بكى عند موته ثم قال: والله ما أبكي حزنًا على الدنيا ولا جزعًا من فراقكم، ولكن أنتظر إحدى البشريين من ربي؛ بجنة أم بنار.

وفي الصحيحين من حديث عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه ما يشهد أن الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللهِ وَكَرَامَتِهِ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللهِ وَعُقُوبَتِهِ[1].

قَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ: إِنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ، قَالَ: «لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ وَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ وَكَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ»[2].

---

(1) رواه البخاري (6507) الرقاق، ومسلم (2684) الذكر والدعاء، والنسائي (1835) الجنائز.

(2) رواه البخاري (6507) الرقاق، ومسلم (2684) الذكر والدعاء، والترمذي (1066) الجنائز، والنسائي (1837) الجنائز.

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت: 30-32]. فقوله: ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ أي عند الموت.

ما يستحب من أحوال المحتضر: .

اعلم أن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسكون، ومن لسانه أن يكون ناطقًا بالشهادة، ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله ﷻ.

أما الهدوء والسكون فلرؤية ملائكة الرحمة وتوليهم قبض روحه وتبشيره بجنة الله ﷻ كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: 32].

أما الفاجر والكافر فقد قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [الأنفال: 50].

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الأنعام: 93].

قال المفسرون: باسطوا أيديهم بالعذاب والنكال؛ فإن روح الكافر إذا بشرت بالنار وبغضب الملك الجبار تَفرُّقُ في جسده فتضرب الملائكة وجه الكافر ودبره وتقول: ﴿ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ﴾ [الأنعام: 93]. عياذًا بالله من حالهم.

وأما اللسان فالمستحب من حاله أن يكون ناطقًا بالشهادة لقوله ﷺ: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلامِهِ لا إِلَهَ إِلا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»[1].

فهذه علامة على حسن الخاتمة، ويدخل في ذلك من استصحب معناها كأن يتكلم بعدها بطاعة الله ﷻ أو يعمل عملًا صالحًا.

وروي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: «احضروا موتاكم وذكروهم فإنهم يرون مالا ترون ولقنوهم لا إله إلا الله». ويستحب لأهل الخير حضور الميت لعله ينتفع بدعوتهم ولا يتكلمون عنده إلا بخير لحضور الملائكة وتأمينهم على دعاء الحاضرين.

ويستحب من القلب أن يكون حسن الظن بالله ﷻ لما في حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما قال: سمعت النبي ﷺ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلاثَةِ أَيَّامٍ يَقُولُ: «لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ ﷻ»[2].

قال أبو المعتمر بن سليمان: قال أبي لما حضرته الوفاة يا معتمر حدثني بالرخص لعلي ألقى الله ﷻ وأنا أحسن الظن به.

---

(1) رواه أبي داود (3116) الجنائز، والحاكم (1/ 351) الجنائز، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وأحمد (5/ 233) وحسنه الألباني.

(2) تقدم تخريجه.

وقال بعضهم عند موته: كيف لا أرجوه وقد صمت له ثمانين رمضان.

مرض أعرابي فقيل له إنك تموت: فقال: أين يذهب بي؟ قالوا: إلى الله. قال: وما كراهتي أن أذهب إلى من لا يُرى الخير إلا منه.

وكانوا يستحبون أن يذكر للعبد عند موته محاسن عمله ويذكر برحمة الله ﷻ وعفوه لعله يلقى الله ﷻ وهو حسن الظن به.

فصل في كلام بعض المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين:

لما حضرت مروان بن عبد الملك الوفاة نظر إلى غسال بجانب دمشق يغسل ثوبًا بيده ثم يضرب به المغسلة؛ فقال عبد الملك: ليتني كنت غسالًا آكل من كسب يدي يومًا بيوم ولم أل من أمر الدنيا شيئًا؛ فبلغ ذلك أبا حازم فقال: الحمد لله الذي جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيه وإذا حضرنا الموت لم نتمن ما هم فيه.

وقيل لعبد الملك في مرضه الذي مات فيه كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟

قال: أجدني كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: 94].

وحُكي عن هارون الرشيد أنه انتقى أكفانه بيده عند الموت، وكان ينظر إليها ويقول: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: 28، 29].

وروى أن المأمون افترش رمادًا واضطجع عليه وقال: يا من لا يزول ملكه؛ ارحم من زال ملكه.

وقال الحجاج عند موته: اللهم اغفر لي فإن الناس يقولون: إنك لا تغفر لي، فكان عمر بن عبد العزيز تعجبه هذه الكلمة منه ويغبطه عليها، ولما حكي ذلك للحسن قال: أقالها: قيل نعم، قال: عسى.

ولما حضرت بلالًا ﷺ الوفاة قالت امرأته: وا حزناه قال: بل وا طرباه، غدًا نلقى الأحبة محمدًا وحزبه.

وقيل فتح عبد الله بن المبارك عينيه عند الوفاة وضحك، وقال: لمثل هذا فليعمل العاملون.

موعظة:

لَيْسَ الغَرِيبُ غريبَ الشَّام والـيَمَنِ ... إِنَّ الغريبَ غريبُ اللحدِ والكفنِ
تمرُّ ساعاتُ أيامي بلاَ نـدمٍ ... ولا بكاءٍ ولا خوفٍ ولا حزنِ
سفرِي بعيدٌ وزادي لا يبلغني ... وقسمتي لم تـزلْ والموتُ يطلبني
ما أحلمَ الله عني حيثُ أمهلني ... وقدْ تماديتُ في ذنبي ويسترني
أنا الـذي أغلقُ الأبواب مجتهدًا ... على المعاصي وعينُ الله تنظرني
يا زلةً كُتبت في غفلةٍ ذهبت ... يا حسرةً بَقِيَتْ في القلبِ تقتلني
دعْ عَنكَ عَذْلِي يا من كان يعذلني ... لو كنتَ تعلَمُ ما بي كنتَ تعذرني
دعني أنوحُ على نفسي وأندبها ... وأقطعُ الدهرَ بالتذكارِ والحزنِ
دعني أسحُ دموعًا لا انقطاعَ لها ... فَهل عسى عبرةٌ منها تُخَلِّصُني
كأنني بين تلك الأهلِ مُنطَرِحًا ... على الفِرَاشِ وَأَيْدِيهِمْ تُقَلِّبُنِي

وَقَدْ أَتَوا بِطَبِيْبٍ كَي يُعَالِجَني   وَلَمْ أَرَ مَن طَبِيْبِ اليَوْمَ يَنْفَعُني

وَاشْتَدَّ نَزْعِي وَصَارَ المَوْتُ يَجْذِبُها   مِنْ كُلِّ عِرْقٍ بِلاَ رِفقٍ وَلاَ هَوَنِ

وَاسْتَخْرَجَ الرُّوْحَ مِنِّي فِي تَغَرْغُرِهَا   وَصَارَ فِي الحَلْقِ مُرًّا حِيْنَ غَرْغَرَنِي

وَسَلَّ رُوْحِي وَظَلَّ الجِسْمُ مُنطَرِحًا   عَلَى الفِرَاشِ وَأَيْدِيهِمْ تُقَلِّبُني

وَغَمَّضُونِي وَرَاحَ الكُلُّ وَانْصَرَفُوا   بَعدَ الإِيَاسِ وَجَدُّوا فِي شِرا كَفَني

وَقَامَ مَنْ كَانَ أَوْلَى النَّاسِ فِي عجلٍ   إِلَى المُغَسِّلِ يَأْتِيْنِي يُغَسِّلُنِي

وَقَالَ يَا قَوْمِ نَبْغِي غَاسِلًا حَذِقًا   حُرًّا أَدِيْبًا أَرِيْبًا عَارِفًا فَطِنِ

فَجَاءَنِي رَجُلٌ مِنْهُمْ فجردني   مِنَ الثِّيَابِ وَأَعْرَانِي وَأَفْرَدَنِي

وَأَطْرَحُونِي عَلَى الأَلْوَاحِ مُنفَرِدًا   وَصَارَ فَوْقِي خَرِيْرُ المَاءِ يُنْظِفُني

وَأَسْكَبَ المَاءَ مِنْ فَوقِي وَغسَّلَنِي   غُسْلًا ثَلاثًا وَنَادَى القَوْمَ بِالكَفَنِ

وَأَلْبَسُونِي ثِيَابًا لاَ كِمَامَ لَهَا   وَصَارَ زَادِي حَنُوطًا حِيْنَ حَنَّطَني

وَقَدَّمُونِي إِلَى المِحْرَابِ وَانْصَرَفُوا   خَلْفَ الإِمَامِ فَصَلَّى ثُمَّ وَدَّعَني

صَلُّوا عَلَيَّ صَلاَةً لاَ رُكُوعَ لَهَا   وَلاَ سُجُودَ لَعَلَّ اللهُ يَرْحَمُنِي

وَأَنْزَلُونِي فِي قَبْرِي عَلَى مَهَلٍ   وَأَنْزَلُوا وَاحِدًا مِنْهُمْ يُلَحِّدُنِي

وَكَشَّفَ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِي لِيَنْظُرَنِي   وَأَسْبَلَ الدَّمْعَ مِنِ عَيْنَيْهِ أَغْرَقَني

فَقَامَ مُحْتَرِمًا بِالعَزْمِ مُشْتَمِلًا   وَصَفَّفَ اللَّبِنَ مِنْ فَوْقِي وَفَارَقَنِي

وَقَالَ هُلُّوا عَلَيْهِ التُّرَابَ وَاغْتَنِمُوا   حُسْنَ الثَّوابِ مِنَ الرحمن ذِي المِنَنِ

فِي ظُلْمَةِ القَبْرِ لاَ أُمٌّ هُنَاكَ وَلاَ   أَبٌ شَفِيْقٌ وَلاَ أَخٌ يُؤَنِّسُنِي

وَأَوْدَعُـونِي وَلَجُّـوا فِي سُـؤَالِهِمُوا ... مَـالِي سِـوَاكَ إِلَهِـي مَـنْ يُخَلِّصُـنِي
وَهَالَنِي صُورَةٌ فِي العَيْنِ إِذْ نَظَرَتْ ... مِنْ هَوْلِ مَطْلَعِ مَا قَدْ كَانَ أَدْهَشَنِي
مِـنْ مُنْكَـرٍ وَنَكِـيْرٍ مَـا أَقُـولُ لَهُـمْ ... إِذْ هَـالَنِي مِـنْهُمَا مَـا كَـانَ أَفْزَعَنِـي
فَـامْنُنْ عَـلَيَّ بِعَفْـوٍ مِنْـكَ يَـا أَمَـلِي ... فَــإِنَّنِي مُوَثَّــقٌ بِالــذَّنْبِ مُـرْتَهِنِ
تَقَاسَمَ الأَهْلُ مَالِي بَعْدَمَا انْصَرَفُوا ... وَصَار وِزْرِي عَلَى ظَهْـرِي فـأثقلني
فَــلاَ تَغُرَّنَّــكَ الــدُّنْيَا وَزِينَتُهَــا ... وَانْظُرْ إِلَى فِعْلِهَا فِي الأَهْلِ وَالـوَطَنِ
وَانْظُرْ إِلَى مَنْ حَوَى الـدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَـا ... هَلْ رَاحَ مِنْهَـا بِغَـيْرِ الـزَّادِ وَالكَفَـنِ
خُذْ القَنَاعَةَ مِـنْ دُنْيَـاكَ وَارْضَ بِهَـا ... لَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ مِنْهَا إِلاَّ رَاحَةُ البَـدَنِ
يَا نَفْسُ كُفِّي عَنِ العِصْيَانِ وَاكْتَسِبِي ... فِعْــلاً جَمِـيْلاً لَعَــلَّ اللهَ يَرْحَمُنِــي

اللهم أيقظنا من غفلتنا بفضلك وإحسانك، وتجاوز عن جرائمنا بعفوك وغفرانك، وألحقنا بالذين أنعمت عليهم في دار رضوانك، وارزقنا كما رزقتهم من لذيذ مناجاتك، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين.

❋❋❋

(24) نعيم البرزخ وعذابه(1)

فلتعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن العبد إذا مات يكون نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن ويحصل له معها النعيم أو العذاب، ثم إذا كان يوم القيامة أعيدت الأرواح إلى الأجساد وقاموا من قبورهم لرب العالمين، والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة أشهر من أن تذكر وأكثر من أن تحصر وإليك بعضها:

أما أدلة الكتاب فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[الفجر: 27-30].

وقد قال طائفة من المفسرين: يقال لها ذلك عند الموت لأنه خطاب للنفس التي تجردت عن البدن وخرجت منه.

ومن الأدلة كذلك قوله ﷻ: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[غافر: 45، 46].

فذكر الله ﷻ عذاب الدارين دار البرزخ ودار القرار، ذكرًا صريحًا لا يحتمل غيره.

---

(1) تقدم تخريجه. باختصار وتصرف من كتاب «الروح» لابن القيم.

ومنها قوله تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الطور: 45-47].

فهذا يحتمل أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره في الدنيا وأن يراد به عذابهم في البرزخ وهو أظهر لأن كثيرًا منهم مات ولم يعذب في الدنيا.

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[السجدة: 21].

وقد احتج بهذه الآية ابن عباس رضي الله عنهما على عذاب القبر، وهذا مما يدل على فقهه في القرآن ودقة فهمه فيه، فإنه سبحانه أخبر أن لهم عذابين أدنى وأكبر، فأخبر أنه يذيقهم بعض الأدنى ليرجعوا، فدل على أنهم بقي لهم من الأدنى بقية يعذبون بها بعد عذاب الدنيا، فدل على إثبات عذاب القبر فتأمله.

ومنها قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾[الواقعة: 83-96].

فذكر الله ﷻ ها هنا أحكام الأرواح عند الموت، وذكر في أول السورة أحكامها يوم المعاد الأكبر، وقدم ذلك على هذا تقديم الغاية للعناية، إذ هي أهم وأولى بالذكر، وجعلهم عند الموت ثلاثة أقسام كما جعلهم في الآخرة ثلاثة أقسام.

أدلة السنة وهي كثيرة متواترة منها الأحاديث في إثبات عذاب القبر:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ مَرَّ بِقَبْرَيْنِ يُعَذَّبَانِ فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ». ثُمَّ أَخَذَ جَرِيدَةً رَطْبَةً فَشَقَّهَا بِنِصْفَيْنِ، ثُمَّ غَرَزَ فِي كُلِّ قَبْرٍ وَاحِدَةً. فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ، لِمَ صَنَعْتَ هَذَا؟ فَقَالَ: «لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا»[1].

وحديث زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي حَائِطٍ لِبَنِي النَّجَّارِ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ، وَنَحْنُ مَعَهُ، إِذْ حَادَتْ بِهِ فَكَادَتْ تُلْقِيهِ. وَإِذَا أَقْبُرٌ سِتَّةٌ أَوْ خَمْسَةٌ أَوْ أَرْبَعَةٌ فَقَالَ: «مَنْ يَعْرِفُ أَصْحَابَ هَذِهِ القبور»؟. فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا. قَالَ: «فَمَتَى مَاتَ هَؤُلاءِ»؟. قَالَ: مَاتُوا فِي الإِشْرَاكِ. فَقَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا. فَلَوْلا أَنْ لا تَدَافَنُوا، لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ»، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ» قَالُوا نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ. فَقَالَ: «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ». قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ. قَالَ: «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الْفِتَنِ، مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ».

---

(1) رواه البخاري (1361) الجنائز، والنسائي (2068) الجنائز.

قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الْفِتَنِ، مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ. قَالَ: «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ». قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ(1).

وحديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «إِذَا فَرَغَ أَحَدُكُمْ مِنَ التَّشَهُّدِ الآخِرِ، فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ: مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ. وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ. وَمِنْ شَرِّ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ»(2).

ومنها الأحاديث في سؤال القبر:

كحديث قَتَادَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ، فَيُقْعِدَانِهِ فَيَقُولاَنِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ، لِمُحَمَّدٍ ﷺ. فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ، قَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ، فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا». قَالَ قَتَادَةُ وَذُكِرَ لَنَا: أَنَّهُ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى حَدِيثِ أَنَسٍ، قَالَ: «وَأَمَّا الْمُنَافِقُ وَالْكَافِرُ فَيُقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: لاَ أَدْرِي، كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيُقَالُ: لاَ دَرَيْتَ وَلاَ تَلَيْتَ، وَيُضْرَبُ بِمَطَارِقَ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً، فَيَصِيحُ صَيْحَةً، يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ»(3).

---

(1) رواه مسلم (2867) صفة القيامة والجنة والنار، وأحمد (3/ 103، 144، 153) باختصار.

(2) رواه البخاري (1377) الجنائز، ومسلم (3588) المساجد واللفظ له.

(3) رواه البخاري (1374) الجنائز، ومسلم (2870) الجنة، وأحمد (3/ 126، 233).

عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ عَنْ النَّبِيِّ قَالَ: «إِذَا أُقْعِدَ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ أُتِيَ، ثُمَّ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: 27]. وفي لفظ نزلت على عذاب القبر يقال له: من ربك؟ فيقول: الله ربي ومحمد نبيي. فذلك قول الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾»[1].

ومما ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ الذي قال الله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: 100]. فكل من مات وهو مستحق للعذاب فله نصيب منه قُبِرَ أو لم يُقْبَر، فلو أكلته السباع أو أحرق حتى صار رمادًا ونسف في الهواء أو غرق في البحر وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى القبور.

ومنها الأحاديث التي تبين صورًا من عذاب القبر:

فمن ذلك حديث سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا صَلَّى صَلاَةً، أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمُ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا؟». قَالَ: فَإِنْ رَأَى أَحَدٌ قَصَّهَا، فَيَقُولُ: «مَا شَاءَ الله»، فَسَأَلَنَا يَوْمًا، فَقَالَ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا؟». قُلْنَا: لاَ. قَالَ: «لَكِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخَذَا بِيَدِي، فَأَخْرَجَانِي إِلَى الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ

---

(1) رواه البخاري (1369) الجنائز، ومسلم (2871) الجنة.

جَالِسٌ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ، بِيَدِهِ كَلُّوبٌ مِنْ حَدِيدٍ»، قَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْ مُوسَى: إِنَّهُ يُدْخِلُ ذَلِكَ الْكَلُّوبَ فِي شِدْقِهِ حَتَّى يَبْلُغَ قَفَاهُ، ثُمَّ يَفْعَلُ بِشِدْقِهِ الآخَرِ مِثْلَ ذَلِكَ، وَيَلْتَئِمُ شِدْقُهُ هَذَا، فَيَعُودُ فَيَصْنَعُ مِثْلَهُ. قُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالاَ: انْطَلِقْ. فَانْطَلَقْنَا، حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَى قَفَاهُ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ بِفِهْرٍ، أَوْ صَخْرَةٍ، فَيَشْدَخُ بِهِ رَأْسَهُ، فَإِذَا ضَرَبَهُ تَدَهْدَهَ الْحَجَرُ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ، فَلاَ يَرْجِعُ إِلَى هَذَا حَتَّى يَلْتَئِمَ رَأْسُهُ، وَعَادَ رَأْسُهُ كَمَا هُوَ، فَعَادَ إِلَيْهِ فَضَرَبَهُ. قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالاَ: انْطَلِقْ. فَانْطَلَقْنَا إِلَى ثَقْبٍ مِثْلِ التَّنُّورِ، أَعْلاَهُ ضَيِّقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ، يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا، فَإِذَا اقْتَرَبَ ارْتَفَعُوا، حَتَّى كَادَ أَنْ يَخْرُجُوا، فَإِذَا خَمَدَتْ رَجَعُوا فِيهَا، وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ. فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالاَ: انْطَلِقْ. فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ مِنْ دَمٍ، فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ، عَلَى وَسَطِ النَّهَرِ. قَالَ يَزِيدُ وَوَهْبُ بْنُ جَرِيرٍ، عَنْ جَرِيرِ بْنِ حَازِمٍ. وَعَلَى شَطِّ النَّهَرِ - رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهَرِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِي فِيهِ، فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ، فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِي فِيهِ بِحَجَرٍ، فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ. فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالاَ: انْطَلِقْ. فَانْطَلَقْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، فِيهَا شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ، وَفِي أَصْلِهَا شَيْخٌ وَصِبْيَانٌ، وَإِذَا رَجُلٌ قَرِيبٌ مِنَ الشَّجَرَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ نَارٌ يُوقِدُهَا، فَصَعِدَا بِي فِي الشَّجَرَةِ، وَأَدْخَلاَنِي دَارًا لَمْ أَرَ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا، فِيهَا رِجَالٌ شُيُوخٌ وَشَبَابٌ، وَنِسَاءٌ وَصِبْيَانٌ. ثُمَّ أَخْرَجَانِي مِنْهَا فَصَعِدَا بِي الشَّجَرَةَ فَأَدْخَلاَنِي دَارًا هِيَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ، فِيهَا شُيُوخٌ وَشَبَابٌ. قُلْتُ: طَوَّفْتُمَانِي اللَّيْلَةَ، فَأَخْبِرَانِي عَمَّا رَأَيْتُ. قَالاَ: نَعَمْ، أَمَّا الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ فَكَذَّابٌ يُحَدِّثُ بِالْكَذْبَةِ، فَتُحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الآفَاقَ، فَيُصْنَعُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَالَّذِي رَأَيْتَهُ يُشْدَخُ رَأْسُهُ، فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ الْقُرْآنَ، فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ، وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهَارِ، يُفْعَلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَالَّذِي رَأَيْتَهُ فِي الثَّقْبِ فَهُمُ الزُّنَاةُ. وَالَّذِي رَأَيْتَهُ فِي النَّهَرِ آكِلُو الرِّبَا. وَالشَّيْخُ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام. وَالصِّبْيَانُ حَوْلَهُ فَأَوْلَادُ النَّاسِ. وَالَّذِي يُوقِدُ النَّارَ مَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ. وَالدَّارُ الأُولَى الَّتِي دَخَلْتَ دَارُ عَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ. وَأَنَا جِبْرِيلُ، وَهَذَا مِيكَائِيلُ، فَارْفَعْ رَأْسَكَ. فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا فَوْقِي مِثْلُ السَّحَابِ. قَالاَ: ذَاكَ مَنْزِلُكَ. قُلْتُ دَعَانِي أَدْخُلْ مَنْزِلِي. قَالاَ: إِنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمْرٌ لَمْ تَسْتَكْمِلْهُ، فَلَوِ اسْتَكْمَلْتَ أَتَيْتَ مَنْزِلَكَ»(1).

فهذا النص صحيح صريح يبين لنا صورًا من عذاب القبر كما فسره به العلماء، وكذلك المشاهد التي رآها رسول الله ﷺ ليلة الإسراء إن صحت فإنها تبين صورًا أخرى لنعيم القبر وعذابه، كما في حديث البيهقي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في هذه الآية: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: 1]. أنه قال: «أتى بفرس فحمل عليه قال: كل خطوة منتهى أقصى بصره؛ فسار وسار معه جبريل، فأتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم كلما حصدوا عاد كما كان فقال: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله يضاعف لهم الحسنة بسبعمائة: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: 39]. ثم أتى على قوم

---

(1) رواه البخاري (1386) الجنائز، ومسلم (2275) مختصر الرؤيا.

ترضخ رؤوسهم بالصخر كلما رضخت عادت كما كانت لا يفتر عنهم شيء من ذلك قال: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة. قال: ثم أتي على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الأنعام على الضريع والزقوم ورصف جهنم وحجارتها، قال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء لا يؤدون صدقات أموالهم، وما ظلمهم الله وما الله بظلام للعبيد، ثم أتي على قوم بين أيديهم لحم من قدر نضيج ولحم آخر خبيث، فجعلوا يأكلون من الخبيث ويدعون النضيج الطيب فقال: يا جبريل من هؤلاء؟ فقال: هذا الرجل يقوم وعنده امرأة حلالًا طيبًا فيأتي المرأة الخبيثة فتبيت معه حتى تصبح» الحديث.

فصل:

فإذا قال قائل فإنا نكشف القبر فلا نجد فيه ملائكة عميًا صمًا يضربون الموتى بمطارق من حديد ولا نيران تأجج؟

فالرد عليهم من وجوه:

أولها : أن الله سبحانه جعل الدور ثلاثًا : دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار، وجعل لكل دار أحكامًا تختص بها.

ثانيًا : أن الله سبحانه جعل أمر الآخرة وما كان متصلًا بها غيبًا وحجبها عن إدراك المكلفين في هذه الدار، وذلك من كمال حكمته، وليتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم، فأول ذلك الملائكة تنزل على المحتضر وتجلس قريبًا منه ويشاهدهم

عيانًا ويتحدثون ومعهم الأكفان والحنوط إما من الجنة وإما من النار، ويؤمنون على دعاء الحاضرين بالخير والشر، كما قال الله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ [الواقعة: 85]. أي أقرب إليه بملائكتنا ورسلنا ولكنكم لا ترونَهُم فهذا أول الأمر وهو غير مرئي لنا ولا مشاهد وهو في هذه الدار، ثم يمد الملك يده إلى الروح فيقبضها ويخاطبها والحاضرون لا يرونه ولا يسمعونه، ثم تخرج لها نور مثل شعاع الشمس ورائحة أطيب من رائحة المسك والحاضرون لا يرون ذلك ولا يشمونه، ثم تأتي الروح فتشاهد غسل البدن وتكفينه وحمله وتقول: قدموني قدموني، أو تقول إلى أين تذهبون بي، ولا يسمع الناس ذلك، فإذا وضع في لحده وسوى عليه التراب لم يحجب التراب الملائكة عن الوصول إليه.

فكل ذلك من أمور الغيب التي أخفاها الله عن المكلفين ليتميز المؤمن من الكافر.

ثالثها: أن النار التي في القبر والخضرة ليست من نار الدنيا ولا من زروع الدنيا فيشاهدها من شاهد نار الدنيا وخضرها، وإنما هي من نار الآخرة وخضرها وهي أشد من نار الدنيا فلا يحس بها أهل النار.

وأعجب من هذا أن الرجلين يدفنان أحدهما إلى جنب الآخر هذا في حفرة من حفر النار لا يصل حرها إلى جاره، وهذا في روضة من رياض الجنة لا يصل روحها ونعيمها إلى جاره، وقدرة الرب تعالى أوسع وأعجب من ذلك، وقد أرانا من آيات قدرته في هذه الدار ما هو أعجب من ذلك بكثير، ولكن النفوس مولعة

بالتكذيب بما لم تحط به علمًا إلا من وفقه الله وعصمه، فإننا نجد النائمين في فراش واحد وهذا روحه في النعيم ويستيقظ وأثر النعيم على بدنه وهذا روحه في العذاب ويستيقظ وأثر العذاب على بدنه وليس عند أحدهما خبر بما عند الآخر.

وقد قال ﷺ: «لَوْلا أَنْ لا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ»[1].

وقد أخبر النبي ﷺ أن الدجال يأتي معه بماء ونار، فالنار ماء بارد، والماء نار تأجج، وأحاديث الدجال صحيحة متواترة، وهذا أعجب وأعجب، وقد كان جبريل عليه السلام ينزل على النبي ﷺ ويتمثل له رجلًا فيكلمه بكلام يسمعه، ومن إلى جانب النبي ﷺ لا يراه ولا يسمعه، وأحيانًا يأتي مثل صلصة الجرس ولا يسمعه غيره من الحاضرين.

وفي غزوة بدر كانت الملائكة تضرب أعناق الكفار وتقاتل مع المسلمين وهم لا يرونهم ولا يسمعونهم، وسر المسألة أن الله عز وجل إنما أشهد بني آدم في هذه الدار ما كان منها فأما ما كان من أمر الآخرة فقد أسبل عليه الغطاء ليكون الإقرار به والإيمان سببًا لسعادتهم، فإذا كشف عنهم الغطاء صار عيانًا مشاهدًا.

---

(1) تقدم تخريجه.

فصـل

فإن قال قائل من تفرقت أجزاؤه كالمحروق والغريق والمصلوب كيف يتنعم بثواب أو يتألم بعقاب فالجواب:

أنه لا يمتنع على من هو على كل شيء قدير أن يجعل للروح اتصالات بتلك الأجزاء على تباعد ما بينها وقربه ويكون في تلك الأجزاء شعور بنوع من الألم واللذة.

إذا كان الله ﷻ قد جعل في الجمادات شعورًا وإدراكًا تسبح ربها به وتسقط الحجارة من خشيته وتسجد له الجبال والشجر وتسبحه الحصى والمياه والنبات، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: 44]. وإذا كان التسبيح هو مجرد دلالتها على صانعها لم يقل: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ فإن كان عاقل يفقه دلالتها على صانعها وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: 41]. فهذه صلاة وتسبيح حقيقة يعلمها الله وإن جحدها الجاهلون.

وقد كان الصحابة ﭫ يسمعون تسبيح الطعام وهو يؤكل، وسمعوا حنين الجذع اليابس في المسجد إلى رسول الله ﷺ، فإذا كانت هذه الأجسام فيها الإحساس والشعور فالأجسام التي كانت فيها الحياة أولى بذلك.

فلو علق الميت على رؤوس الأشجار في مهاب الريح لأصاب جسده من عذاب البرزخ حظه ونصيبه، ولو دفن الرجل الصالح في أتون من النار لأصاب

جسده من نعيم البرزخ وروحه نصيبه وحظه، فيجعل الله النار على هذا بردًا وسلامًا والهواء على هذا نارًا وسمومًا، فعناصر العالم ومواده منقادة لربها وفاطرها يصرفها كيف يشاء ولا يستعصى عليه منها شيء أراده، بل هي طوع مشيئته مذللة منقادة لقدرته، ومن أنكر هذا فقد جحد رب العالمين وكفر به وأنكر ربوبيته.

ما هي الأسباب التي يعذب بها أصحاب القبور؟

الجواب من جهتين مجمل ومفصل.

أما الجواب المجمل:

فإنهم يعذبون على جهلهم بالله وإضاعتهم لأمره وارتكابهم لمعاصيه، فلا يعذب الله روحًا عرفته وأحبته وامتثلت أمره واجتنبت نهيه ولا بدنًا كانت فيه أبدًا، فإن عذاب القبر وعذاب الآخرة أثر غضب الله وسخطه على عبده، فمن أغضب الله وأسخطه في هذه الدار ثم لم يتب ومات على ذلك كان له من عذاب القبر فمستقلٌ ومستكثر، ومصدق ومكذب.

وأما الجواب المفصل:

فقد أخبر النبي ﷺ عن الرجلين اللذين رآهما يعذبان في قبريهما يمشي أحدهما بالنميمة بين الناس ويترك الآخر الاستبراء من البول.

وفي حديث سمرة المذكور آنفًا تعذيب من يكذب الكذبة فتبلغ الآفاق،

وتعذيب من يقرأ القرآن ثم ينام عنه بالليل ولا يعمل به بالنهار، وتعذيب الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي، وتعذيب آكل الربا كما شاهدهم النبي ﷺ في البرزخ.

وقد أخبر النبي ﷺ عن صاحب الشملة التي غَلَّهَا من المغنم أنها تشتعل عليه نارًا في قبره، هذا وله فيها حق فكيف بمن ظلم غيره ما لا حق له فيه.

ولما كان أكثر الناس واقعًا في أسباب عذاب القبر كان أكثر أصحاب القبور معذبين والفائز منهم قليل، فظواهر القبور تراب وبواطنها حسرات وعذاب.

ظواهرها بالتراب والحجارة المنقوشة مبنيات وفي باطنها الدواهي والبليات، تغلي بالحسرات بما فيها ويحق لها، وقد حيل بينها وبين شهواتها وأمانيها، تالله لقد وعظت فما تركت لواعظ مقالًا، ونادت يا عُمار الدنيا لقد عمرتم دارًا موشكة بكم زوالاً، وخربتم دارًا أنتم مسرعون إليها انتقالًا.

عمرتم بيوتًا لغيركم منافعها وسكناها، وخربتم بيوتًا ليس لكم مساكن سواها.

هذه دار الاستباق ومستودع الأعمال وبذر البذر، وهذه محلٌ للعبر رياض من رياض الجنة أو حفر من حفر النار.

ما هي الأسباب المنجية من عذاب القبر؟

الجواب من وجهين مجمل ومفصل:

أما المجمل: فهو تجنب تلك الأسباب التي تقتضي عذاب القبر ومن أنفعها أن يجلس الرجل عندما يريد النوم لله ساعة يحاسب نفسه فيها على ما خسره وربحه في يومه، ثم يجدد له توبة نصوحًا بينه وبين الله، فينام على تلك التوبة ويعزم على أن

لا يعود إلى الذنب إذا استيقظ، ويفعل هذا كل ليلة، فإذا مات في ليلته مات على توبة، وإن استيقظ استيقظ مستقبلًا للعمل مسرورًا بتأخر أجله حتى يستعتب ربه ويستدرك ما فاته.

وأما المفصل: فما ثبت من الأحاديث عن رسول الله ﷺ فيما ينجي من عذاب القبر.

ومنها ما رواه سَلْمَانَ ؓ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ. وإِن مَاتَ، جَرَى عَلَيهِ عَمَلُهُ الذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَّانَ»(1).

ومنها: حديث فَضَالَةَ بْنَ عُبَيْدٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قال: «كُلُّ المَيِّتِ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلاَّ الْمُرَابِطَ، فَإِنَّهُ يَنْمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيُؤَمَّنُ مِنْ فَتَّانِ الْقَبْرِ»(2).

ومنها حديث الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنْ الْجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنْ الْفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، الْيَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنْ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ»(3).

---

(1) رواه مسلم (1913) الإمارة، والترمذي (1665) فضائل الجهاد، وقال: حديث حسن، والنسائي (3168) الجهاد.

(2) رواه أبي داود (2500) الجهاد، والترمذي (1621) الجهاد، وأحمد (6/ 20)، والحاكم (2/ 144) قسم الفيء، وقال صحيح على شرط الشيخين وصححه الترمذي.

(3) رواه الترمذي (1663) فضائل الجهاد، صحيح: «أحكام الجنائز» (35-36) «التعليق الرغيب»

وقال ابن القيم رحمه الله: قال أبو عمر بن عبد البر: وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ سُورَةً مِنْ الْقُرْآنِ ثَلاثُونَ آيَةً، شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ وهي سورة ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ [الملك: 1]»[1]. وينجي من عذاب القبر كذلك اجتناب الأسباب التي يعذب بها أصحاب القبور المذكورة آنفًا وغيرها مما ثبت عن رسول الله ﷺ.

***

(2/ 194) الصحيحة (3213).

(1) رواه أحمد (2/ 299، 321)، الترمذي (2891) ثواب القرآن وحسنه، وأبي داود (1400)، الصلاة وابن ماجه (3854) الأدب، والحاكم، (1/ 565) وصححه ووافقه الذهبي وحسنه الألباني.

(25) يـوم القيـامة(1)

كما أن للموت شدة في أحواله وسكراته وخطرًا في خوف العاقبة، كذلك الخطر في مقاساة ظلمة القبر وخطره إن كان مغضوبًا عليه، وأعظم من ذلك كله الأخطار التي بين يديه من نفخ الصور، والبعث يوم النشور، والعرض على الجبار والسؤال عن القليل والكثير، ونصب الميزان لمعرفة المقادير، ثم جواز الصراط ثم انتظار النداء عند فصل القضاء إما بالإسعاد وإما بالإشقاء.

فهذه أحوال وأهوال لابد لك من معرفتها ثم الإيمان بها على سبيل الجزم والتصديق، ثم تطويل الفكر في ذلك لينبعث من قلبك دواعي الاستعداد لها.

وأكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخرة صميم قلوبهم، ولم يتمكن من سويداء أفئدتهم، ويدل على ذلك شدة تشميرهم لحر الصيف وبرد الشتاء وتهاونهم بحر جهنم وزمهريرها مع ما تكتنفه من المصاعب والأهوال، بل إذا سُئلُوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثم غفلت عنه قلوبهم، ومن أخبر بأن ما بين يديه من الطعام مسموم فقال لصاحبه الذي أخبره صدقت ثم مد يده لتناوله كان مصدقًا بلسانه ومكذبًا بعمله، وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان.

فَمَثِّلْ نَفْسَكَ وقد بعثت من قبرك مبهوتًا من شدة الصاعقة شاخص العين نحو النداء، وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاؤهم، وقد

---

(١) موعظة المؤمنين للقاسمي - معارج القبول.

أزعجهم الرب مضافًا إلى ما كان عندهم من الهموم والغموم وشدة الانتظار لعاقبة الأمر.

قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر: 68].

وتفكر في الخلائق وذلهم وانكسارهم واستكانتهم انتظارًا لما يقضي عيهم من سعادة أو شقاوة، وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم متحير كتحيرهم، فكيف حالك وحال قلبك وقد بدلت الأرض غير الأرض وَٱلسَّمَٰوَٰت، وطمست الشمس والقمر، وأظلمت الأرض، واشتبك الناس وهم حفاة عراة مشاة، وازدحموا في الموقف شاخصة أبصارهم، منفطرة قلبوهم، فتأمل يا مسكين في طول هذا اليوم وشدة الانتظار فيه والخجل والحياء من الافتضاح عند العرض على الجبار تعالى، وأنت عارٍ مكشوفٌ ذليلٌ متحيرٌ مبهوتٌ منتظر ما يجرى عليك من القضاء بالسعادة والشقاوة، وأعظم بهذه الحال فإنها عظيمة، واستعد لهذا اليوم العظيم شأنه، القاهر سلطانه، القريب أوانه، يوم تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ.

يوم ترى السماء فيه قد انفطرت، والكواكب من هوله قد انتثرت، والنجوم الزواهر قد انكدرت، والشمس قد كورت، والجبال قد سيرت، والعشار قد عطلت، والوحوش قد حشرت، والبحار قد سُجِّرت، والنفوس إلى الأبدان قد زوجت، والجحيم قد سعرت، والجنة قد أزلفت.

وقد وصف الله دواهي يوم القيامة وأكثر من أساميه ؛ لتقف بكثرة أساميه على كثرة معانيه فمن أساميه :

يوم القيامة، ويوم الحسرة، ويوم الزلزلة، ويوم الواقعة، ويوم القارعة، ويوم الغاشية، ويوم الراجفة، ويوم الحاقَّة، ويوم الطامَّة، ويوم الصاخَّة، ويوم التلاق، ويوم الجزاء، ويوم الوعيد، ويوم العرض، ويوم الفصل، ويوم الدين، ويوم النشور.

فالويل كل الويل للغافلين، يرسل الله لنا سيدَ المرسلين، وينزل عليه الكتاب المبين، ويخبرنا بالصفات من نعوت يوم الدين، ثم يعرفنا غفلتنا ويقول: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنبياء: 1-3].

ثم يعرفنا قرب القيامة فيقول: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ [القمر: 1]. ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾ [المعارج: 6،7]. ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب: 63].

أرض المحشر وصفة الحشر:

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاة عراة غرلًا إلى أرض المحشر، أرض بيضاء قَاع صَفْصَف، لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا.

قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه: 105-107].

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم: 48].

قال ابن عباس رضي الله عنهما : يزاد فيها وينقص، وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها وما فيها، وتمد مد الأديم العكاظي، أرض بيضاء مثل الفضة لم يسفك عليها دم ولم يعلم عليها خطيئة، وَٱلسَّمَٰوَٰتُ تذهب شمسها وقمرها ونجومها.

وقال ﷺ : «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ، عَفْرَاءَ، كَقُرْصَةِ نَقِيٍّ»[1].

قَالَ سَهْلٌ أَوْ غَيْرُهُ: «لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لأَحَدٍ».

قوله: «عَفْرَاءَ» أي بياضها غير ناصع، وقوله: «كَقُرْص النَقِيِّ» أي النقي عن القشر والنخالة، والمعلم هو البناء أو المرتفع.

أما عن صفة الحشر ففي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلاثِ طَرَائِقَ: رَاغِبِينَ رَاهِبِينَ، وَاثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ، وَثَلاثَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَأَرْبَعَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَعَشَرَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَيَحْشُرُ بَقِيَّتَهُمْ النَّارُ، تَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا، وَتَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتُصْبِحُ مَعَهُمْ حَيْثُ أَصْبَحُوا، وَتُمْسِي مَعَهُمْ حَيْثُ أَمْسَوْا»[2].

وعَنْ قَتَادَةَ عن أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، كيف يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ؟ قَالَ: «أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى الرِّجْلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»؟ قَالَ قَتَادَةُ: «بَلَى وَعِزَّةِ رَبِّنَا». وذلك قول الله عز وجل: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء: 97][3].

---

(1) رواه البخاري (6521) الرقاق، ومسلم (2790) صفة القيامة.

(2) رواه البخاري (6522) الرقاق، ومسلم (2861) صفة القيامة، والنسائي «الجنائز».

(3) رواه البخاري (6523) الرقاق، ومسلم (2806) صفة القيامة.

فشتان بين الفريقين، وفرقان ما بين الطريقين، أولئك يفدون ركبانًا إلى جنات النعيم ورحمة ٱلرَّحْمَٰنِ الرحيم، وهؤلاء يُسْحَبُونَ سحبًا إلى نار الجحيم ونكالها الأليم وعذابها المقيم ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: 85، 86].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: وفدًا: ركبانًا وقال عَلِيّ بن أبي طالب رضي الله عنه: ما يحشرون والله على أرجلهم، ولكن على نُوقٍ رحالها الذهب، ونجائب سرجها يواقيت، إن هموا بها سارت، وإن هموا بها طارت. وقوله: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ أي عطاشًا قد تقطعت أعناقهم من العطش، ولكنهم لا يردون إلى الماء بل إلى جهنم وجحيمها ومهلها وحميمها، وفي حديث الشفاعة الطويل: «فَيُقَالُ لَهُمْ: مَاذَا تَبْغُونَ؟ قَالُوا: عَطِشْنَا. يَا رَبَّنَا! فَاسْقِنَا. فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ: أَلاَ تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا. فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ»[1].

فسبحان الله وبحمده، الله أكبر، كانوا في الدنيا على السواء، يرزقون ويسيرون ويذهبون ويجيئون، يؤتاها من يحبه الله ومن لا يحب، فلما جاءهم الموت عرف كل منهم سبيله، واتضح له مقيله، فلما كانوا في البرزخ خلا كل منهم بعمله، وأفضى إلى ما قدم قبل أجله، فبينما هم كذلك إذ صرخ بهم الصارخ

---

(1) الحديث مخرج في الكتب الستة بألفاظ وطرق وهو في البخاري (7439) التوحيد، ومسلم (183) الإيمان واللفظ له.

وصاح بهم الصائح، فخرجوا من الأجداث مسرعين، وإلى الداعي مهطعين، هذا على النجائب، وهذا على الركائب، وهذا على قدميه، وهذا على وجهه.

هؤلاء في النور ينظرون، وأولئك في ظلمات لا يبصرون.

هؤلاء إلى ٱلرَّحۡمَٰنِ يفدون، وأولئك إلى النار يردون.

هؤلاء حلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابًا طهورًا، وأولئك غلوا بالسلاسل وعلتهم الزبانية بالمقامع يضربون بطونًا منهم وظهورًا.

هؤلاء عليهم حلل السندس والإستبرق وسائر الألوان، وأولئك مقرنون في الأصفاد سرابيلهم من قطران.

هؤلاء يقول لهم ربهم سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار، وأولئك يقول لهم اخسئوا فيها ولا تكلمون، وما هم بخارجين من النار.

فحينئذٍ ظهر الفرقان، وافترق الطريقان، وامتاز الفريقان، وصار الغيب شهادة، والسر علانية، والمستور مكشوفًا، والمخبأ ظاهرًا: ﴿ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ﴾ [ص: 28]. ﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾ [الجاثية: 21].

كم مكسو في الدنيا طال يومئذٍ عُرْيُهُ، كم طاعم في الدنيا عظم يومئذٍ جوعه، كم ريان في الدنيا اشتد يومئذٍ عطشه، كم ناعم في الدنيا حق يومئذٍ

بؤسه: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [القصص: 83، 84].

أحوال القيامة وأهوالها:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: 42، 43].

قوله: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي مسرعين. ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ قال الحسن: وجوه الناس يومئذٍ إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر وهي شاخصة قد شغلهم ما بين أيديهم.

قوله: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي خالية، قال قتادة: خرجت قلوبهم عن صدورهم فصارت في حناجرهم لا تخرج من أفواههم ولا تعود إلى أماكنها، هواء لا شيء فيها ومنه سمى ما بين الأرض وَالسَّمَاءِ هواء لخلوه.

وقال سعيد بن جبير: مترددة تمور في أجوافهم ليس لها مكان تستقر فيه، وهذا معنى قوله: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ [غافر: 18].

قال قتادة: وقفت القلوب في الحناجر من الخوف فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها، ومعنى ﴿كَاظِمِينَ﴾ أي ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه.

قال البغوي: مكروبين ممتلئين خوفًا وجزعًا، والكظم تردد الغيظ والخوف والحزن في القلب حتى يضيق به.

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾[المعارج: 10، 11]. أي لا يسأل القريب قريبه عن حاله وهو يراه في أسوأ الأحوال؛ فتشغله نفسه عن غيره قال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[عبس: 37].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: 18]

قال عكرمة: هو الجار يتعلق بجاره يوم القيامة فيقول: يا رب: سل هذا لما كان يغلق بابه دوني، وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن فيقول: يا مؤمن إن لي عندك يدًا قد عرفت كيف كنت لك في الدنيا وقد احتجت إليك اليوم فلا يزال المؤمن يشفع له عند ربه حتى يرده إلى منزل دون منزله وهو النار، وإن الوالد يتعلق بولده يوم القيامة فيقول يا بني أي والد كنت لك فيثني خيرًا، فيقول: يا بني إني قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى فيقول ولده: يا أبت ما أيسر ما طلبت ولكني أتخوف مثل ما تتخوف فلا أستطيع أن أعطيك شيئًا، ثم يتعلق بزوجته فيقول يا فلانة أو يا هذه: أي زوج كنت لك؟ فتثني خيرًا فيقول لها: إني أطلب إليك حسنة واحدة تهبنيها لي لعلي أنجو بها مما ترين، قال فتقول: ما أيسر ما طلبت ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئًا إني أتخوف مثل الذي تتخوف.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ»، قَالَ: «يقوم أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ»(1).

وعن الْمِقْدَادُ بْنُ الأَسْوَدِ الكندي رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ». قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ: فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا يَعْنِي بِالْمِيلِ؟ أَمَسَافَةَ الأَرْضِ أَمِ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ. قَالَ: «فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ. فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا». قَالَ: وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ(2).

صفة الحساب:

قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: 65].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ

(1) رواه البخاري (6531) الرقاق، ومسلم (2862) صفة يوم القيامة.

(2) رواه مسلم (2864) صفة يوم القيامة، والترمذي (2421) الزهد.

وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [فصلت: 19-23].

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَضَحِكَ. فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟». قَالَ: قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ. يَقُولُ: يَا رَبِّ! أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ يَقُولُ: بَلَى. قَالَ فَيَقُولُ: فَإِنِّي لا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلاَّ شَاهِدًا مِنِّي قَالَ فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا. وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا. قَالَ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ. فَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ: انْطِقِي. قَالَ فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ. قَالَ ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلاَمِ. فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا. فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ»[1].

وعَنْ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ». قالتْ: قُلْتُ: أَلَيْسَ يَقُولُ اللهُ تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ [الانشقاق: 7-8]. قال: «ذلك الْعَرْضُ»[2].

---

(1) رواه مسلم (2969) الزهد.

(2) رواه البخاري (6536) الرقاق، ومسلم (2876) صفة يوم القيامة، والترمذي (3337)، عن عَائِشَةَ ﵂ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلاَّ هَلَكَ». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ [الانشقاق:7-8]. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّمَا ذَلِكِ الْعَرْضُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُنَاقَشُ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلاَّ عُذِّبَ».

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لاَ تَزُولُ قَدَمَا ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلاَهُ؟ وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟ وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ؟»(1).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ»(2). الْجَلْحَاءِ: التي لا قرن لها.

صفة الميزان:

قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[الأنبياء: 47].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[الأعراف: 8، 9].

والقول في الموزون على أربعة أوجه:

الأول: أن الأعمال نفسها هي التي توزن وأن أفعال العباد تجسم فتوضع في الميزان قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[الزلزلة: 7، 8].

---

(1) رواه الترمذي (2416) صفة القيامة. وقال حسن صحيح، وحسنه الألباني لشواهده في الصحيحة.

(2) رواه الترمذي (2416) صفة القيامة. وقال حسن صحيح، وحسنه الألباني لشواهده في الصحيحة.

وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: قال النَّبِيُّ ﷺ: «كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ. سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ»(1).

الثاني: أن صحائف الأعمال هي التي توزن ويدل على ذلك حديث البطاقة عَنْ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ! فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ! فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ! مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟! فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ»(2).

---

(1) رواه البخاري (7563) التوحيد، ومسلم (2694) الذكر والدعاء، والترمذي (3593) الدعوات.

(2) رواه الترمذي (2639) الإيمان وقال: حسن غريب، وابن ماجه (4300)، والحاكم (1/ 529) وصححه ووافقه الذهبي، وأحمد (2/ 213)، وابن حبان (2524) موارد، وصححه الألباني.

قال الألباني: والحديث دليل على أن ميزان الأعمال له كفتان مشاهدتان، وأن الأعمال وإن كانت أعراضا فإنها توزن وذلك من عقائد أهل السنة، والأحاديث في ذلك متضافرة إن لم تكن متواترة (الصحيحة:1/ 43،44).

الثالث: أن الموزون ثواب العمل كما في حديث النَّوَّاسَ بْنَ سَمْعَانَ الْكِلابِيَّ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ. تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ». وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلاثَةَ أَمْثَالٍ. مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ. قَالَ: «كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ. أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا»[1]. قال الترمذي رحمه الله: معنى هذا أنه يجيء ثواب قراءته.

الرابع: أن الموزون هو العامل نفسه ودليل ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ». وَقَالَ اقْرَءُوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: 105][2].

والذي استظهر من النصوص والله وأعلم أن العامل وعمله وصحيفة عمله كل ذلك يوزن بالجمع بين النصوص ولا منافاة بينها والله أعلم.

صفة الصراط:

في الصحيحين عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه من حديثه الطويل في الرؤية والشفاعة: «وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَي جَهَنَّمَ؛ فَأَكُونُ أنا وأمتي أَوَّلَ مَنْ يجيزها، وَلا يَتَكَلَّمُ إلا

---

(1) رواه مسلم (805) صلاة المسافرين، والترمذي (2883) ثواب القرآن.

(2) رواه البخاري (4729) التفسير، ومسلم (2785) صفة القيامة.

الرُّسُلُ، وَدعوى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ. هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟ قَالُوا: نَعَمْ يا رسول الله. قَالَ: فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ؛ غَيْرَ أَنَّهُ لا يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إلا الله ﷻ تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ الموبق بِعَمَلِهِ وَمِنْهُمْ المخدل أو المجازي أو نَحوَه»[1].

وفي حديث أبي سعيد الخدري ﷺ من حديث الطويل في ذلك مرفوعًا وفيه: «ثُمَّ يُؤْتَى بِالْجَسْرِ فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ». قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الْجَسْرُ. قَالَ: «مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ وَكَلالِيبُ وَحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ، لَهَا شَوْكَةٌ عُقَيْفَاءُ تَكُونُ بِنَجْدٍ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ يمر الْمُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالرِّيحِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا»[2].

وفي حديث مسلم في بعض طرقه قال أبو سعيد: بلغني أن الجسر أدق من الشعر وأحد من السيف.

الخصماء ورد المظالم:

اعلم أنه لا ينجو من أخطار الآخرة إلا من حاسب في الدنيا نفسه ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطواته ولحظاته، وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) رواه الحاكم (4/ 58) الأهوال، وقال صحيح على شرط الشيخين. وقال الذهبي: روى مسلم أكثره من حديث معمر عن زيد بن أسلم.

كل معصية قبل الموت توبة نصوحًا، ويتدارك ما فرط من تقصيره في فرائض الله تعالى، ويرد المظالم حبة بعد حبة، ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسوء ظنه بقلبه، ويطيب قلوبهم حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة، فهذا يدخل الجنة بغير حساب.

وإن مات قبل رد المظالم أحاط به خصومه فهذا يأخذ بيده، وهذا يقبض على ناصيته وهذا يتعلق به، هذا يقول ظلمني، وهذا يقول شتمني، وهذا يقول استهزأت بي، وهذا يقول عاملتني فغششتني، وهذا يقول بايعتني وأخفيت عني عيب سلعتك، وهذا يقول كذبت في سعر متاعك، وهذا يقول رأيتني محتاجًا وكنت غنيًا فما أطعمتني، وهذا يقول وجدتني مظلومًا وكنت قادرًا على دفع الظلم عني فما راعيتني، فبينما أنت كذلك وقد أنشب الخصماء فيك مخالبهم وأحكموا في تلابيبك أيديهم وأنت مبهوت متحير من كثرتهم وقد ضعفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم، إذ قرع سمعك نداء الجبار ﷻ: ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ﴾ [غافر: 17].

فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة، وتتذكر ما أنذرك الله تعالى على لسان رسوله ﷺ حيث قال: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [إبراهيم: 42، 43].

فما أشد فرحتك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك أموالهم وما أشد حسراتك في ذلك اليوم إذا وقف بك على بساط العدل وكشف عن فضائحك ومساويك، فاحذر من التعرض لسخط الله عقابه الأليم، واستقم على صراطه

المستقيم، فمن استقام في هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة ونجا، ومن عدل عن الاستقامة في الدنيا وأثقل ظهره بالأوزار وعصى، تعثر في أول قدم من الصراط وتردى.

***

(26) الجنة والنار[1]

جهنم وأهوالها وأنكالها:

قال الغزالي :

يَـٰٓأيُّها الغافل عن نفسه، المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على الانقضاء والزوال، دع التفكير فيما أنت مرتحل عنه، واصرف الفكر إلى موردك، فإنك أُخبرت بأن النار مورد الجميع، إذ قيل: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: 72، 71].

فأنت من الورود على يقين ومن النجاة في شك، فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد فعساك تسعد للنجاة منه، وتأمل في حال الخلائق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا، فبينما هم في كربها وأهوالها وقوفًا ينتظرون حقيقة أنبائها وتشفيع شفعائها، إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب، وأطلت عليهم نار ذات لهب، وسمعوا لها زفيرًا وجرجرة تفصح عن شدة الغيظ والغضب، فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب، وجثت الأمم على الركب، حتى أشفق البراء من سوء المنقلب، وخرج النادي من الزبانية قائلًا: أين فلان بن فلان المسوف نفسه في الدنيا

---

(1) إحياء علوم الدين - الترغيب والترهيب للمنذري - الزهد والرقائق لابن المبارك - حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم - البداية والنهاية لابن كثير.

بطول الأمل، المضيع عمره في سوء العمل؛ فيبادرونه بمقامع من حديد، ويستقبلونه بعظائم التهديد، ويسوقونه إلى العذاب الشديد، وينكسونه في قعر الجحيم، ويقولون له: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان: 49].

فاسكنوا دارًا ضيقة الأرجاء، مظلمة المسالك، مبهمة المهالك، يخلد فيها الأسير، ويوقد فيها السعير، شرابهم فيها الحميم، ومستقرهم الجحيم، الزبانية تقمعهم، والهاوية تجمعهم، أمانيهم فيها الهلاك، وما لهم منها فكاك، قد شدت أقدامهم إلى النواصي، واسودت وجوههم من ظلمة المعاصي، ينادون من أكنافها ويصيحون في نواحيها وأطرافها، يا مالك قد حق علينا الوعيد، يا مالك قد نضجت منا الجلود، يا مالك أخرجنا منها فإنا لا نعود.

فتقول الزبانية: هيهات لات حين أمان، ولا خروج لكم من دار الهوان، فاخسئوا فيها ولا تكلمون، ولو أخرجتم منها لكنتم إلى ما نهيتم عنه تعودون، فعند ذلك يقنطون وعلى ما فرطوا في جنب الله يتأسفون، ولا ينجيهم الندم، ولا يغنيهم الأسف، بل يكبون على وجوههم مغلولين، النار من فوقهم، والنار من تحتهم، والنار عن أيمانهم، والنار عن شمائلهم، فهم غرقى في النار، طعامهم نار، وشرابهم نار، ولباسهم نار، ومهادهم نار، فهم بين مقطعات النيران وسرابيل القطران وضرب المقامع وثقل السلاسل، فهم يتجلجلون في مضايقها، ويتحطمون في دركاتها، ويضربون بين غواشيها، تغلي بهم النار كغلي القدور، ويهتفون بالويل والعويل، ومهما دعوا بالثبور صُب من فوق رؤوسهم الحميم،

يصهر به ما في بطونهم والجلود، ولهم مقامع من حديد، تهشم بها جباههم فينفجر الصديد من أفواههم، وتنقطع من العطش أكبادهم، وتسيل على الخدود أحداقهم، ويسقط من الوجنات لحومها، وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون»[1].

عمق جهنم وشدة حرها:

عن عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الصَّخْرَةَ الْعَظِيمَةَ، لَتُلْقَى مِنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ، فَتَهْوِي فِيهَا سَبْعِينَ عَامًا، وَمَا تُفْضِي إِلَى قَرَارِهَا»[2].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: كُنَّا عند رَسُولِ اللهِ ﷺ فسَمِعنا وَجْبَةً فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا هَذَا»؟. قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الآنَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا»[3].

والوجبة هي صوت سقوط الشيء من مكان عالٍ.

ولجهنم سبعة أبواب قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر: 43، 44].

وقيل: المراد بالأبواب الأطباق طبق فوق طبق.

---

(1) إحياء علوم الدين (2986-2988).

(2) رواه أحمد (4/ 174)، والترمذي (2575) صفة جهنم وصححه الألباني (1612).

(3) رواه مسلم (2844) صفة القيامة، والوجبة هي السقطة.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: 24].

قال: هي حجارة من كبريت خلقها الله يوم خلق ٱلسَّمَٰوَٰت والأرض في السماء الدنيا يعدها للكافرين؟ وفي الصحيحين من غير وجه عَنِ النَّبيِّ ﷺ قال: «لاَ تَزَالُ جَهَنَّمُ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ حَتَّى يَضَعَ فِيهَا رَبُّ الْعِزَّةِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدَمَهُ فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، وَعِزَّتِكَ. وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ»(1).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ [المرسلات: 32].
قال: أما إني لست أقول كالشجرة ولكن كالحصون والمدائن.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قَالَ رسول الله ﷺ: «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ، جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ». قَالُوا: وَاللهِ! إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا. كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا»(2).

---

(1) رواه البخاري (4848) التفسير، ومسلم (2848) القيامة والجنة والنار، واللفظ له.

(2) رواه البخاري (3265) بدء الخلق، ومسلم (2843) كتاب الجنة ومالك في الموطأ (2/ 994) جهنم، والترمذي (2589) صفة جهنم.

طعام أهل النار:

قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: 6، 7]. الضريع: نوع من الشوك لا تأكله الدواب لخباثته.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: 12، 13]

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ قال: شوك يأخذ بالحلق لا يدخل ولا يخرج.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ۝ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ۝ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ۝ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة: 51-56].

وقد وصف الله عز وجل شجرة الزقوم فقال: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۝ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ۝ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 64-68].

والشوب: هو الخلط والمزج أي يخلط الزقوم المتناهي في القذارة والمرارة والحميم المتناهي في اللهب والحرارة.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ ﷺ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102]. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ

قُطِرَتْ فِي دَارِ الدُّنْيَا؛ لأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَكُونُ طَعَامَهُ؟!»[1].

وقال تعالى: ﴿ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ [الحاقة: 36، 35].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الغسلين الدم والماء والصديد الذي يسيل من لحومهم.

والتوفيق بين ما ها هنا وبين قوله: ﴿ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾ [الغاشية: 6]. وقوله: ﴿ مِّن زَقُّومٍ ﴾ [الواقعة: 52]. وقوله: ﴿ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾ [البقرة: 174]. أنه يجوز أن يكون طعامهم جميع ذلك أو أن العذاب أنواع والمعذبين طبقات فمنهم أكلة الضريع، ومنهم أكلة الزقوم، ومنهم أكلة النار، لكل منهم جزء مقسوم.

شراب أهل النار:

قال الله تعالى: ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ [إبراهيم: 16، 17].

أي: يستقى من ماء صديد شديد النتانة والكثافة فيتكرهه ولا يكاد يبتلعه من شدة نتانته وكثافته.

---

(1) رواه الترمذي (2585) صفة جهنم وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد (1/ 301، 338)، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (5126) وصححه عبد القادر الأرناؤوط في تحقيق جامع الأصول.

قال تعالى: ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ [محمد: 15]. والحميم هو الماء الحر المغلي بنار جهنم يذاب بهذا الحميم ما في بطونهم، وتسيل به أمعاؤهم، وتتناثر جلودهم كما قال تعالى: ﴿ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ۝ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [الحج: 20-22].

وقال تعالى: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: 29].

ملابس أهل النار:

قال الله ﷻ: ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۝ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ [إبراهيم: 49، 50].

فقوله: ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ أي: قمصانهم من قطران تطلى به جلودهم حتى يعود ذلك الطلاء كالسرابيل، وخص القطران لسرعة اشتعال النار فيه مع نتن رائحته ووحشة لونه، والقطران قيل فيه ما يطلى به الجمل الأجرب.

وعن أبا مَالِكٍ الأَشْعَرِيَّ قَالَ: حَدَّثَهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ»[1].

---

(1) رواه مسلم (934) الجنائز. وقال النووي: فيه دليل على تحريم النياحة وهو مجمع عليه وفيه صحة التوبة ما لم يمت المكلف ولم يصل إلى الغرغرة.

وقال الله تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ﴾ [الحج: 19].

فقوله: ﴿ قُطِّعَتۡ ﴾ أي قدرت لهم على قدر جثثهم؛ لأن الثياب تقطع على مقدار بدن من يلبسها، وقيل إنها من نحاس قد أذيب فصار كالنار، والحق إجراء النظم القرآني على ظاهره.

عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى كَعْبَيْهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى حُجْزَتِهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى تَرْقُوَتِهِ»(1).

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا أَبُو طَالِبٍ، وَهُوَ مُنْتَعِلٌ بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ»(2).

أسرة أهل النار:

قال تعالى: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖ ﴾ [الأعراف: 41]

أي فرش من النار ويلتحفون بألحفة من النار عياذًا بالله من حالهم.

وقال تعالى: ﴿ لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞ ﴾ [الزمر: 16]. أي

---

(1) رواه مسلم (2845م) صفة القيامة والجنة والنار.

(2) رواه مسلم (212) الإيمان.

أطباق وفراش ومهاد وسرادقات، وإطلاق الظلل عليهما تهكمًا، وإلا فهي محرقة والظلة تقي من النار كما قال تعالى: ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ۝ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴾ [المرسلات: 30، 31].

عظم أهل النار وبشاعة منظرهم:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا بَيْنَ مَنْكِبَيْ الْكَافِرِ فِي النَّارِ، مَسِيرَةُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ، للرَّاكِبِ الْمُسْرِعِ»[1].

والمنكب هو الكتف. وعنه ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ضِرْسُ الْكَافِرِ، أَوْ نَابُ الْكَافِرِ، مِثْلُ أُحُدٍ. وَغِلَظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلاثٍ»[2].

قال الحافظ المنذري: وقد ورد أن من هذه لأمة من يعظم في النار كما يعظم فيها الكفار، فروى ابن ماجه والحاكم وغيرهم من حديث عَبْدِ اللهِ بْنُ قَيْسٍ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي بُرْدَةَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَدَخَلَ عَلَيْنَا الْحَارِثُ بْنُ أُقَيْشٍ ﷺ فَحَدَّثَنَا الْحَارِثُ لَيْلَتَئِذٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَكْثَرُ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ سِوَاكَ؟ قَالَ: «سِوَايَ»[3].

---

(1) رواه البخاري (6551) الرقاق، ومسلم (2852) صفة الجنة.

(2) رواه مسلم (2851) صفة الجنة، والترمذي (2578) صفة جهنم. قال النووي: هذا كله لكونه أبلغ في إيلامه وكل هذا مقدور لله تعالى يجب الإيمان به لإخبار الصادق به.

(3) رواه ابن ماجه (4392) صفة النار والحاكم (1/ 7) وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وقال المنذري: وإسناده جيد وصححه الألباني.

فصل في ذكر بعض ألوان العذاب:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ النَّارِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً. ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ! هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لا. وَاللهِ يَارَبِّ! وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ! هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لا. وَاللهِ! يَارَبِّ! مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ. وَلا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ»(1).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ آتَاهُ الله مَالًا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ، مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ، لَهُ زَبِيبَتَانِ، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ(2)، يَعْنِي شِدْقَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ»(3). ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران:180].

وعَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ، عَلَى أخمص قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِي الْمِرْجَلُ والْقُمْقُمُ»(4).

---

(1) رواه مسلم (2807) صفة القيامة، وابن ماجه (4397) صفة النار قال ابن الأثير: فيصبغ: أي يغمس في النار أو الجنة غمسة كأنه يدخل إليها إدخالة واحدة.

(2) اللهزمة: عظم ناتئ في اللحى.

(3) رواه البخاري (1403) الزكاة.

(4) رواه البخاري (6562) الرقاق، ومسلم (213) الإيمان، والترمذي (2604) صفة جهنم.

وعن الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ [النساء: 56]. قال: تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة، كلما أكلتهم قيل لهم: «عودوا» فيعودون كما كانوا.

عذاب أهل النار المعنوي:

من عذاب أهل النار المعنوي: أن الملائكة تبكتهم قبل أن يدخلوا منازلهم في النار. كما قال تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الملك: 8، 9].

ومن عذابهم المعنوي: أنهم يلعن بعضهم بعضًا ويسب بعضهم بعضًا. قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف: 38]. ويتبرأ الكبراء من المستضعفين ويقول المستضعفون: ﴿ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: 167].

ومن عذابهم المعنوي: أنهم يرون الذين كانوا يسخرون منهم ويستهزؤون بهم من أهل الإيمان قد فازوا بالرضى والرضوان، ونجوا من غضب الملك الديان كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ۝ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [ص: 62، 63].

ومن عذابهم المعنوي كذلك: أنهم يمنعون من الكلام، قال محمد بن كعب: لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله ﷻ في أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا

بعدها أبدًا يقولون: ﴿ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴾ [غافر: 11]. فيقول الله تعالى مجيبًا لهم: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴾ [غافر: 12].

ثم يقولون: ﴿ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا ﴾ [السجدة: 12]

فيجيبهم الله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ﴾ [إبراهيم: 44].

فيقولون: ﴿ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُ ﴾ [فاطر: 37].

فيجيبهم الله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: 37].

ثم يقولون: ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ (١٠٦) رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ [المؤمنون: 106، 107].

فيجيبهم الله تعالى: ﴿ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: 108].

فلا يتكلموا بعدها أبدًا، وذلك غاية شدة العذاب.

قال مالك بن أنس: قال زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ﴾ [إبراهيم: 21].

قال: صبروا مائة سنة، ثم جزعوا مائة سنة، ثم صبروا مائة سنة، ثم قالوا: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ﴾ [إبراهيم: 21].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: «إِذَا صَارَ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَى الْجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ إِلَى النَّارِ، جِيءَ بِالْمَوْتِ حَتَّى يُجْعَلَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُذْبَحُ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ لاَ مَوْتَ، ويَا أَهْلَ النَّارِ لاَ مَوْتَ، فَيَزْدَادُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرَحًا إِلَى فَرَحِهِمْ، وَيَزْدَادُ أَهْلُ النَّارِ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ»[1].

فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة وتفصيل غمومها وأحزانها ومحنها وحسرتها لا نهاية له، وأعظم الأمور عليهم مع ما يلاقونه من شدة العذاب حسرة فوت نعيم الجنة وفوت لقاء الله وفوت رضاه، مع علمهم بأنهم باعوا كل ذلك بثمن بخس دراهم معدودة، إذ لم يبيعوا ذلك إلا بشهوات حقيرة في الدنيا أيامًا قصيرة وكانت غير صافية كانت مكدرة منغصة، فيقولون في أنفسهم: واحسرتاه كيف أهلكنا أنفسنا بعصيان ربنا، وكيف لم نكلف أنفسنا الصبر أيامًا قلائل، ولو صبرنا لكانت انقطعت عنا أيامه وبقينا الآن في جوار رب العالمين، متنعمين بالرضا والرضوان، فيا لحسرة هؤلاء وقد فاتهم ما فاتهم وبلوا بما بلوا به ولم يبق معهم شيء من نعيم الدنيا ولذاتها، واعلم أن الله تعالى خلق النار بأهوالها، وخلق لها أهلًا لا يزيدون ولا ينقصون، وأن هذا أمر قد قضي وفرغ منه.

---

(1) رواه البخاري (6548) الرقاق: صفة الجنة والنار، ومسلم (2850) صفة الجنة.

قال ابن الأثير: الأملح: المختلط البياض والسواد. وقوله: «فيذبح» شبه اليأس من مفارقة الحالتين في الجنة والنار، والخلود فيها بحيوان يذبح فيموت، فلا يبقى يرجى له حياة ولا وجود، وكذلك حال أهل الجنة والنار بعد الاستقرار فيهما وإخراج من يخرجه الله من النار في اليأس من مفارقة حالتيهما وانقطاع الرجاء من زوالها.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [مريم: 39].

ولعمري الإشارة به إلى يوم القيامة، بل في أزل الأزل ولكن أظهر يوم القيامة ما سبق به القضاء، فالعجب منك حيث تضحك وتلهو وتنشغل بمحقرات الدنيا ولست تدري أن القضاء بماذا سبق في حقك، فإن قلت: فليت شعري ماذا موردي؟ وإلى ماذا مآلي ومرجعي؟ وما الذي سبق به القضاء في حقي؟ فلك علامة تستأنس بها وتصدق رجاءك بسببها، وهي أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك فإن كلًا ميسر لما خلق له، فإن كان قد يسر لك سبيل الخير فأبشر فإنك مبعد عن النار، وإن كنت لا تقصد خيرًا إلا وتحيط بك العوائق فتدفعك، ولا تقصد شرًا إلا ويتيسر لك أسبابه فاعلم أنك مقضي عليك، فإن دلالة هذا على العاقبة كدلالة الدخان على النار، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار: 13، 14].

فاعرض نفسك على الآيتين وقد عرفت مستقرك من الدارين والله أعلم.

***

صفة الجنة وأصناف نعيمها

قال الغزالي رحمه الله ما ملخصه:

اعلم أن تلك الدار التي عرفت همومها وغمومها تقابلها دار أخرى فتأمل نعيمها وسرورها، فإن من بَعُدَ من أحدهما استقر لا محالة في الأخرى، فاستثر الخوف من قلبك بطول الفكر في أهوال الجحيم، واستثر الرجاء بطول الفكر في النعيم المقيم لأهل الجنان، وسق نفسك بسوط الخوف، وقدها بزمام الرجاء إلى الصراط المستقيم، فبذلك تنال الملك العظيم، وتسلم من العذاب الأليم، فتفكر في أهل الجنة وفي وجوههم نضرة النعيم، يسقون من رحيق مختوم، متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل، ومحفوفة بالغلمان والولدان، مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان، كأنهن الياقوت والمرجان لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، آمنات من الهرم مقصورات في الخيام، ثم يطاف عليهم وعليهن بأكواب وأباريق وكأس من معين، بيضاء لذة للشاربين، ويطوف عليهم خُدام وولدان كأمثال اللؤلؤ المكنون؛ جزاء بما كانوا يعملون، في مقام أمين، في جنات وعيون، في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم، وقد أشرقت في وجوههم نظرة النعيم، لا يرهقهم قتر ولا ذلة بل عباد مكرمون وبأنواع التحف من ربهم يتعاهدون، فهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون، لا يخافون فيها ولا يحزنون، وهم من ريب المنون آمنون، فهم يتنعمون ويأكلون من أطعمتها ويشربون من أنهارها لبنًا وخمرًا وعسلًا.

فيا عجبًا ممن يؤمن بدار هذه صفتها، ويوقن بأنه لا يموت أهلها، كيف يأنس بدار قد أذن الله في خرابها، ويهنأ بعيش دونها، والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان، مع الأمن من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثان، لكان جديرًا بأن يهجر الدنيا بسببها، وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتنغص من ضرورته، كيف وأهلها ملوك آمنون، وفي أنواع السرور متمتعون، لهم فيها ما يشتهون، وهم بفناء العرش يحضرون، وإلى وجه الله الكريم ينظرون، وينالون بالنظر إلى وجه الله ما لا ينظرون معه إلا سائر نعيم الجنان ولا يلتفتون، وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يترددون وهم من زوالها آمنون»[1].

عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلا تَسْقَمُوا أَبَدًا. وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلا تَمُوتُوا أَبَدًا. وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلا تَهْرَمُوا أَبَدًا. وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلا تَبْأَسُوا أَبَدًا. فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: 43]»[2].

***

(1) إحياء علوم الدين (2997-2999) باختصار وتصرف.

(2) رواه مسلم (2837) صفة القيامة والجنة والنار، والترمذي (3246) التفسير.

فصل: في أن الجنة فوق ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال، وأن موضع سَوطٍ منها خير من الدنيا وما فيها:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ الله تعالى أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ: مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[السجدة:17]»[1].

وثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء، فليس العسل كالعسل، وليس الخمر كالخمر، وليس العنب كالعنب.

ومهما قرأت في وصف نعيمها وخطر نعيمها ببالك من متاعها وعجائبها فهي أعجب مما قرأت، وأطيب مما خطر على قلبك.

عن أبي هريرة ﷺقال: قال رسول الله ﷺ: «ولَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ أَوْ تَغْرُبُ»[2].

---

(1) رواه البخاري (3244) بدء الخلق، ومسلم (2824م) الجنة وصفة نعيمها.

(2) رواه البخاري (3253) بدء الخلق، ورواه مسلم بلفظ «لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ رَوْحَةٌ...» (1882) الإمارة، والترمذي (7/ 155) الجهاد.

قال ابن القيم رحمه الله:

وكيف يقدر قدر دار خلقها الله بيده، وجعلها مقرًا لأحبابه، وملأها من رحمته وكرامته ورضوانه، ووصف نعيمها بالفوز العظيم، وملكها بالملك الكبير، وأودعها الخير بحذافيره، وطهرها من كل عيب وآفة ونقص، فإن سألت عن أرضها وتربتها فهي المسك والزعفران، وإن سألت عن سقفها فهو عرش الرحمن، وإن سألت عن ملاطها فهو المسك الأذفر، وإن سألت عن حصبائها فهو اللؤلؤ والجوهر، وإن سألت عن بنائها فلبنة من فضة ولبنة من ذهب، وإن سألت عن أشجارها فما فيها شجرة إلا وساقها من ذهب أو فضة لا من الحطب والخشب، وإن سألت عن ثمارها فأمثال القلال ألين من الزبد، وأحلى من العسل، وإن سألت عن ورقها فأحسن ما يكون من رقائق الحلل، وإن سألت عن أنهارها فأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى.

فصل: في بيان صفة أبواب الجنة ودرجاتها وأبنيتها:

أبواب الجنة:

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «فِي الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ، فِيهَا بَابٌ يُسَمَّى الرَّيَّانَ، لا يَدْخُلُهُ إِلا الصَّائِمُونَ»[1].

(1) رواه البخاري (3257) بدء الخلق، ومسلم (1152) الصيام بلفظ «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ»

وعن أبي هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺيَقُولُ: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ مِنْ شَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ فِي سَبِيلِ اللهِ، دُعِيَ مِنْ أَبْوَابِ - يَعْنِي: الْجَنَّةَ - يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاَةِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الصِّيَامِ، وَبَابِ الرَّيَّانِ». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: مَا عَلَى هَذَا الَّذِي يُدْعَى مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، وَقَالَ: هَلْ يُدْعَى مِنْهَا كُلِّهَا أَحَدٌ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ يَا أَبَا بَكْرٍ»(1).

درجات الجنة:

وفي الصحيحين عنه ﷺأنه قال: «الْجَنَّةَ مِائَةَ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ كل دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ». وهذا يدل على أنها في غاية العلو والارتفاع والله أعلم، والحديث له لفظان هذا أحدهما والثاني: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ»(2).

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يرجح هذا اللفظ وهو لا ينفي أن يكون درج الجنة أكثر من ذلك ونظير هذا قوله في الحديث الصحيح: «للهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ اسْمًا، مِائَةٌ إِلاَّ وَاحِدًا، لاَ يَحْفَظُهَا أَحَدٌ إِلاَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَهُوَ وَتْرٌ يُحِبُّ الْوَتْرَ»(3).

---

(1) رواه البخاري (3666) فضائل الصحابة، ومسلم (1027) الزكاة.

(2) رواه البخاري (7423) التوحيد، ومسلم (1884) الإمارة، والترمذي (2529) صفة الجنة، وابن ماجه (4407) الزهد.

(3) رواه البخاري (6410) الدعوات بمعناه، ومسلم (2677) الذكر والدعاء ورواه الترمذي وفيه زيادة ذكر الأسماء.

أي من جملة أسمائه هذا القدر فيكون الكلام جملة واحدة في الموضعين، ويدل على صحة هذا أن منزلة نبينا ﷺ فوق هذا كله، في درجة في الجنة ليس فوقها درجة، وتلك المائة ينالها آحاد أمته بالجهاد، والجنة مقببة أعلاها وأوسطها هو الفردوس، وسقفه العرش كما قال ﷺ في الحديث الصحيح: «فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ وَسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»[1].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الأُفُقِ، مِنَ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ»[2].

أبنية الجنة:

قال الله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر: 20]. فأخبر أنها غرف فوق غرف، وأنها مبنية بناء حقيقة، لئلا تتوهم النفوس أن ذلك تمثيل وأنه ليس هناك بناء.

---

(1) رواه البخاري (7423) التوحيد.

(2) رواه البخاري (3256) بدء الخلق، ومسلم (2831) الجنة وصفة نعيمها والترمذي (2556) صفة الجنة.

وَعَنْ أَبِي مُوسى الأَشْعَرِي ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ. طُولُهَا سِتُّونَ مِيلًا. لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ. يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُ. فَلا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا»[1].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ. مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ[2].

والقصب ها هنا قصب اللؤلؤ المجوف، قيل: لأنها حازت قصب السبق في التصديق برسول الله ﷺ فكان جزاؤها قصرًا من قصب.

عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ قَالَ: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي فِي الْجَنَّةِ، فَإِذَا امْرَأَةٌ تَتَوَضَّأُ إِلَى جَانِبِ قَصْرٍ، فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا الْقَصْرُ؟ فَقَالُوا: لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَذَكَرْتُ غَيْرَتَهُ، فَوَلَّيْتُ مُدْبِرًا»[3]. فَبَكَى عُمَرُ وَقَالَ: أَعَلَيْكَ أَغَارُ يَا رَسُولَ اللهِ.

---

(1) رواه البخاري (3243) بدء الخلق، ومسلم (2838) الجنة وصفة نعيمها، والترمذي (2527) صفة الجنة.

(2) رواه البخاري (3820) مناقب الأنصار (7497)، ومسلم (2432) الفضائل والمراد بالبيت هنا القصر، والصخب الصوت المختلط المرتفع، والنصب المشقة والتعب.

(3) رواه البخاري (3242) بدء الخلق، ومسلم بمعناه (2395) الفضائل بمعناه عن جابر ﷺ.

طعام أهل الجنة:

قال تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الواقعة: 20، 21].

أما فاكهة الجنة فقد قال تعالى في وصفها: ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾ [البقرة: 25].

قال ابن جرير رحمه الله: ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ ﴾ من ثمرة من ثمار الجنة في الجنة قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا، وقيل كذلك ﴿ رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ﴾ أي في الجنة لتعدد الأصناف وتشابهها في الظاهر، قوله: ﴿ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾

قال الحسن: خيار كله لا رَذْل ألم تروا إلى ثمر الدنيا كيف تسترذلون بعضه، وقال تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة: 32، 33] أي لا تكون في وقت دون وقت ولا تمنع ممن أرادها، وقال تعالى: ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ [الإنسان: 14].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا هَمَّ أن يتناول من ثمرها تدلت له حتى يتناول ما يريد.

عن أنس بن مالك قال: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا الْكَوْثَرُ؟ قَالَ: «ذَاكَ نَهْرٌ أَعْطَانِيهِ اللهُ - يَعْنِي فِي الْجَنَّةِ - أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، فِيهَا طَيْرٌ، أَعْنَاقُهَا كَأَعْنَاقِ الْجُزُرِ». قَالَ عُمَرُ: إِنَّ هَذِهِ لَنَاعِمَةٌ! قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَكَلَتُهَا أَحْسَنُ مِنْهَا»[1].

---

(1) رواه الترمذي (2542) صفة الجنة وقال: هذا حديث حسن غريب وقال الألباني: حسن صحيح (2514) الصحيحة.

عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ، وَلاَ يَتْفُلُونَ، وَلاَ يَبُولُونَ، وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ، وَلاَ يَمْتَخِطُونَ»(1).

وعن ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ حَدَّثَهُ قال: كُنْتُ قَائِمًا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَجَاءَ حِبْرٌ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ فذكر أسئلة إلى أن قَالَ: فَمَنْ أَوَّلُ النَّاسِ إِجَازَةً؟ - يعني على الصراط - قَالَ: «فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ». قَالَ الْيَهُودِيُّ: فَمَا تُحْفَتُهُمْ حِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: «زِيَادَةُ كَبِدِ النون». قَالَ: فَمَا غِذَاؤُهُمْ عَلَى إِثْرِهَا؟ قَالَ: «يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الْجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا». قَالَ: فَمَا شَرَابُهُمْ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «مِنْ عَيْنٍ فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا»(2). قَالَ: صَدَقْتَ.

شراب أهل الجنة:

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: 5، 6].

والكأس هو الإناء فيه الشراب، ويطلق كذلك على نفس الخمر كما قال بعضهم:

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ ... وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

---

(1) رواه مسلم (2835) الجنة وصفة نعيمها.

(2) رواه مسلم (315) الحيض بزيادة في أوله وآخره والبغوي في شرح السنة (15/ 224، 225) الفتن قوله: «زيادة كبد الحوت» الزيادة هي طرف الكبد وهو أطيبها.

قوله: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ أي يخالطها وتمزج به قال مقاتل: ليس هو كافور الدنيا وإنما سمي ما عنده بما عندكم حتى تهتدي له القلوب، قوله: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي يجرونها إلى حيث يريدون وَيَنْتَفِعُونَ بها كما يشاءون.

وقال تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ [الإنسان: 17].

أي كأسًا من خمر ممزوجة بالزنجبيل، وقد كانت العرب تستلذ مزج الشراب بالزنجبيل لطيب رائحته.

وقال تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: 21]. والمعنى أن ذلك الشراب طاهر ليس كخمر الدنيا، قال أبو قلابة وإبراهيم النخعي: يؤتون بالطعام فإذا كان آخره أتوا بالشراب الطهور فتضمر بطونهم من ذلك ويفيض عرض من أبدانهم مثل ريح المسك.

وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ ﷺ قَالَ: جاء رَجُلٌ من أهل الكتاب إلى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ تَزْعُمُ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ؟ قَالَ: «نعم؛ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيُعْطَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِي الأكل والشرب وَالْجِمَاعِ». قَالَ: فَإِنَّ الَّذِي يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ تَكُونُ لَهُ الْحَاجَةُ وليس في الجنة أذى. قَالَ: «حَاجَةُ أَحَدِهِمْ رشحًا يَفِيضُ مِنْ جُلُودِهِمْ كرشح الْمِسْكِ فيضمر بطنه»(1).

(1) رواه أحمد (4/ 367) والنسائي في الكبرى عن علي بن حجر عن علي بن مسهر عن الأعمش عنه به (3/ 191) تحفة الأشراف، وقال المنذري: رواته محتج بهم في صحيح «الترغيب والترهيب» (6/ 296، 297). وقال الهيثمي: ورواه البزار ورجال أحمد والبزار رجال الصحيح، غير ثمامة بن عقبة وهو ثقة - مجمع الزوائد (10/ 416).

وقال أبو الدرداء ﷺ في قوله تعالى: ﴿خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ [المطففين: 26]. قال: هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم. لو أن رجلًا من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها.

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: 27، 28].

قال: يمزج لأصحاب اليمين ويشربه المقربون صرفًا.

ثياب أهل الجنة:

قال تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: 33].

وقال تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ [الكهف: 31].

قال جماعة من المفسرين: السندس: ما رَقَّ من الحرير، والإستبرق ما غلظ منه.

وقالت طائفة: ليس المراد به الغليظ ولكن المراد به الصفيق، وقال الزجاج: هما نوعان من الحرير، وأحسن الألوان: الأخضر، وألين اللباس الحرير؛ فيجمع بين حسن منظر اللباس والتذاذ العين به وبين نعومته والتذاذ الجسم به.

عَنْ قَتَادَةَ: حَدَّثَنَا أَنَسٌ ﷺ قَالَ: أُهْدِيَ لِلنَّبِيِّ ﷺ جُبَّةُ سُنْدُسٍ، وَكَانَ يَنْهَى عَنِ الْحَرِيرِ، فَعَجِبَ النَّاسُ مِنْهَا، فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَمَنَادِيلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِي الْجَنَّةِ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا»[1].

---

(1) رواه البخاري (2616) الهبة، ومسلم (2468) فضائل الصحابة.

أي أن المنديل الذي يمسح به يديه في الجنة أحسن من حلل الملوك.

وَقَالَ ﷺ: «تَبْلُغُ الْحِلْيَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوَضُوءُ»(1).

وَعَنِ زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «مَنْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لا يَبْأَسُ. ولا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلا يَفْنَى شَبَابُهُ»(2).

صفة أهل الجنة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَهْلُ الْجَنَّةِ جُرْدٌ مُرْدٌ كُحْلٌ، لاَ يَفْنَى شَبَابُهُمْ، وَلاَ تَبْلَى ثِيَابُهُمْ»(3).

قوله: «جُرْدًا» أي بدون شعر على أجسادهم.

وقوله: «مُرْدًا» بدون لحية.

وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ: «فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ. وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا»(4).

---

(1) رواه مسلم (250) الطهارة، والنسائي (149) الطهارة، والصحيحة (252).

(2) رواه مسلم (2836) الجنة وصفة نعيمها.

(3) رواه الترمذي (2539) صفة الجنة، وقال: حسن غريب، وحسنه الألباني.

(4) رواه البخاري (3326) أحاديث الأنبياء، ومسلم (2841) الجنة وصفة نعيمها.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لاَ يَبْصُقُونَ فِيهَا وَلاَ يَمْتَخِطُونَ وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ، آنِيَتُهُمْ فِيهَا الذَّهَبُ، أَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَمَجَامِرُهُمُ الأَلُوَّةُ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ، لاَ اخْتِلاَفَ بَيْنَهُمْ وَلاَ تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ»(1).

وأما الأخلاق فقد قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: 47].

فأخبر عن تلاقي قلوبهم وتلاقي وجوههم وفي حديث الصحيحين: «قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، لاَ اخْتِلاَفَ بَيْنَهُمْ وَلاَ تَبَاغُضَ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا يُرَى مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ لَحْمِهَا مِنَ الْحُسْنِ، يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا»(2).

أدنى أهل الجنة منزلة:

عَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ ﷺ عن النبي ﷺ قَالَ: «سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ: مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ. فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ! كَيْفَ؟. وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ؟ فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ

---

(1) رواه البخاري (3245) بدء الخلق، ومسلم (2834) الجنة وصفة نعيمها. والألوّة: العود الهندي.

(2) رواه البخاري (3246) بدء الخلق، ومسلم (2834) الجنة وصفة نعيمها وهو رواية للحديث السابق.

مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ، رَبِّ! فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ. فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ، رَبِّ! فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ. وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ. فَيَقُولُ: رَضِيتُ، رَبِّ! قَالَ: رَبِّ! فَأَعْلاَهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ، غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي. وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا. فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»(1).

نساء الجنة:

قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: 25].

قال ابن القيم ما ملخصه:

جمع الله ﷻ في هذه الآية بين نعيم البدن بالجنات وما فيها من الأنهار والثمار، ونعيم النفس بالأزواج المطهرة، ونعيم القلب وقرة العين بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد وعدم انقطاعه.

والأزواج المطهرة هي التي طهرت من المحيض والبول والنفاس والغائط والمخاط والبصاق، وكل قذر وكل أذى يكون من نساء الدنيا، وطهر مع ذلك باطنها من الأخلاق السيئة والصفات المذمومة، وطهر لسانها من الفحش والبذاء، وطهر طرفها من أن تطمع به إلى غير زوجها.

---

(1) رواه البخاري بمعناه مختصرًا (6571) الرقاق، ومسلم (189) الإيمان واللفظ له.

وقال تعالى: ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ [الدخان: 54].

والحور جمع حوراء، وهي المرأة الشابة الحسناء الجميلة البيضاء شديدة سواد العين.

وقال مجاهد: الحوراء التي يحار فيها الطرف من رقة الجلد وصفاء اللون، والصحيح أن الحور مأخوذ من الحور في العين، وهو شدة بياضها مع قوة سوادها، فهو يتضمن الأمرين.

وقال تعالى: ﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴾ [ص: 52].

أي قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يطمحن إلى غيرهم وقوله: ﴿ أَتْرَاب ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وسائر المفسرين: مستويات على سن واحد وميلاد واحدة، بنات ثلاث وثلاثين سنة.

وَسَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَرَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ غَدْوَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ أَوْ مَوْضِعُ قِيدٍ - يَعْنِي سَوْطَهُ - خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ لأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمَلأَتْهُ رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»(1).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَى أَضْوَإِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ اثْنَتَانِ، يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ، وَمَا فِي الْجَنَّةِ أَعْزَبُ»(2).

---

(1) رواه البخاري (2796) الجهاد، ومسلم (1880) الإمارة.

(2) رواه مسلم (2834) صفة القيامة والجنة والنار.

النظر إلى وجه الله ﷻ:

قال الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: 22، 23].

وقال تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: 26].

وهذه الزيادة هي النظر إلى وجه الله ﷻ، والحسنى هي الجنة.

عَنْ صُهَيْبٍ رضي الله عنه قال: قرأ رَسُولُ اللهِ ﷺ قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ. فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ ﷻ»[1].

وهذه هي غاية الحسنى، ونهاية النعمة، وكل ما فصلناه من النعيم عند هذه النعمة ينسى، وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى، بل لا نسبة لشيء من لذات الجنة إلى لذة اللقاء.

---

(1) رواه مسلم (181) الإيمان.

شعر:

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله في وصف الجنة:

وَمَـا ذَاكَ إِلاَّ غَـيْرَةً أَنْ يَنَالَهَـا ... سِوى كُفْئِهَا وَالرَّبُّ بِالخَلْقِ أَعْلَمُ

وإِن حُجِبَتْ عَنَّا بِكُلِّ كَرِيهَةٍ ... وَحُفَّتْ بِمَا يُؤْذِي النُّفُوسَ وَيُؤْلِمُ

فَلِلَّهِ مَا فِي حَشْوِهَا مِنْ مَسَرَّةٍ ... وَأَصْنَافِ لَذَّاتٍ بِهَا يُتَنَعَّمُ

ولله بَرْدُ العَيْشِ بَيْنَ خِيَامِهَا ... وَرَوْضَاتِهَا وَالثَّغْرُ فِي الرَّوْضِ يبسمُ

ولله وَادِيهَا الَّذي هُوَ مَوْعِدُ الْمَزِ ... يدِ لوفْدِ الْحُبِّ لَوْ كُنْتَ مِنْهُمْ

وَلله أَبْصَارٌ تَرَى اللهَ جَهْرَةً ... فَلاَ الضَّيْمُ يَغْشَاهَا وَلاَ هِيَ تَسْأَمُ

فَيَا نَظْرَةً أَهْدتْ إِلى الوَجْهِ نَضْرَةً ... أَمِنْ بَعْدِهَا يَسْلُو الْمُحِبُّ الْمُتَيَّمُ

وَلله كَمْ خِيرَةٍ إِنْ تَبَسَّمَتْ ... أَضَاءَ لَهَا نُورٌ مِنَ الْفَجْرِ أَعْظَمُ

فَيَا لَذَّةَ الأَبْصَارِ إِنْ هِيَ أَقْبَلَتْ ... وَيَا لَذة الأَسْمَاعِ حِينَ تكَلَّمُ

وَيَا خَجْلَةَ الغُصْنِ الرَّطِيبِ إِذَا انْثَنَتْ ... وَيَا خَجْلَةَ الْفَجْرَيْنِ حِينَ تَبَسَّمُ

فَإِنْ كُنْتَ ذَا قَلْبٍ عَلِيلٍ بِحُبِّهَا ... فَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ وَصْلُهَا لَكَ مرْهَمُ

إِذَا قَابَلَتْ جَيْشَ الهُمُوم بِوَجْهِهَا ... تَوَلَّى عَلَى أَعْقَابِهِ الجَيْشُ يُهْزَمُ

فَيَا خَاطِبَ الْحَسْنَاءِ إِنْ كُنْتَ رَاغِبًا ... فَهَذَا زَمَانُ الْمَهْرِ فَهْوَ الْمُقَدَّمُ

وَكُنْ مُبْغِضًا لِلْخَائِنَاتِ لِحُبِّهَا ... فَتَحْظَى بِهَا مِنْ دُونِهِمْ وَتُنَعَّمُ

وَصُمْ يَوْمَكَ الأَدْنَى لَعَلَّكَ فِي غَدٍ ... تَفُوزُ بِعِيدِ الْفِطْرِ وَالنَّاسُ صُوَّمُ

وَأَقْدِمْ وَلاَ تَقْنَعْ بِعَيْشٍ مُنَغَّصٍ ... فَمَا فَازَ بِاللَّذَّاتِ مَنْ لَيْسَ يُقْدِمُ

وَإِنْ ضَاقَتْ الدُّنْيَا عَلَيْكَ بِأَسْرِهَا ... وَلَمْ يَكُ فِيهَا مَنْزِلٌ لَكَ يُعْلَمُ
فَحَيَّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّهَا ... مَنَازِلُنَا الأُولَى وَفِيهَا المُخَيَّمُ
وَحَيَّ عَلَى السُّوقِ الَّذِي فِيهِ يَلْتَقِي ... المُحِبُّونَ ذَاكَ السُّوقُ لِلْقَوْمِ يُعْلَمُ
فَمَا شِئْتَ خُذْ مِنْهُ بِلاَ ثَمَنٍ لَهُ ... فَقَدْ أَسْلَفَ التُّجَارُ فِيهِ وَأَسْلَمُوا
وَحَيَّ عَلَى يَوْمِ المَزِيدِ الَّذِي بِهِ ... زِيَادَةُ رَبِّ العَرْشِ فَالَيومَ مَوْسِمُ
وَحَيَّ عَلَى وَادٍ هُنَالِكَ أَفْيَحٍ ... وَتُرْبَتُهُ مِنْ أَذْفَرِ المِسْكِ أَعْظَمُ
مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ هُنَالِكَ وَفِضَّةٍ ... وَمِنْ خَالِص العقْيَانِ لاَ يَتَقَسَّمُ
وَكُثْبَانُ مِسْكٍ قَدْ جُعِلْنَ مَقَاعِدًا ... لِمَنْ دُونَ أَصْحَابِ المَنَابِرِ يُعْلَمُ
فَبَيْنَا هُمُو فِي عَيْشِهِمْ وَسُرُورِهِمْ ... وَأَرْزَاقُهُمْ تُجْرَى عَلَيْهِمْ وَتُقْسَمُ
إِذَا هُمْ بِنُورٍ سَاطِعٍ أَشْرَقَتْ لَهُ ... بِأَقْطَارِهَا الجَنَّاتُ لاَ يُتَوَهَّمُ
تَجَلَّى لَهُمْ رَبُّ السَّمَاوات جَهْرَةً ... فَيَضْحَكُ فَوْقَ العَرْشِ ثُمَّ يُكَلِّمُ
سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ يَسْمَعُونَ جَمِيعُهُمْ ... بِآذَانِهِمْ تَسْلِيمَهُ إِذْ يُسَلِّمُ
يَقُولُ سَلُونِي مَا اشْتَهَيْتُمْ فَكُلُّ مَا ... تُرِيدُونَ عِنْدِي إِنَّنِي أَنَا أَرْحَمُ
فَقَالُوا جَمِيعًا نَحْنُ نَسْأَلُكَ الرِّضَا ... فَأَنْتَ الَّذِي تُولِي الجَمِيلَ وَتَرْحَمُ
فَيُعْطِيهِمُو هَذَا وَيَشْهَدُ جَمْعُهُمْ ... عَلَيْهِ تَعَالَى اللهُ فَاللهُ أَكْرَمُ
فَيَا بَائِعًا هَذَا بِبَخْسٍ مُعَجَّلٍ ... كَأَنَّكَ لاَ تَدْرِي بَلى سَوفَ تَعلمُ
فَإِنْ كُنْتَ لاَ تَدْرِي فَتِلْكَ مُصِيبَةٌ ... وإن كُنتَ تَدرِي فَالمُصِيبَةُ أَعْظَمُ

فهرس


تم بحمد الله

البحر الرائق

في الزهد والرقائق

د. أحمد فريد

Dr.Ahmed Faried



الدار السلفية للنشر والتوزيع
هاتف 012/3490589
الأسكندرية